كلمة العدد

بقلم : سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

تاريخ البحرين الحديث في المصادر الروسية

لقد شهد العصر الحديث تطورا في تكنولوجيا الارشيفات والمكتبات ومراكز المعلومات نتيجة للكم الهائل من الوثائق والكتب والبحوث التي حوتها خزاناتها مما يتطلب بحثا وتصنيفا وتوزيعا وتبادلا للمعلومات، ومن هذا المنطلق بادرت (الامانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية) منذ تأسيسها بالبحث عن الوثائق التي تلقي الضوء على تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية وكان لسياسة الانفتاح التي تنتهجها بعض الدول التي حوت الوثائق أثركبير في الحصول على مصادر البحث التاريخي الموثق من بريطانيا والهند والبرتغال وتركيا وهولنده والمانيا.وقريبا تفتحت لنا مصادر للوثائق حوتها خزانات الارشيفات في (روسيا) اذ يبلغ عدد الوثائق بالارشيفات المركزية في موسكو وحدها حوالي مليونين ونصف المليون وثيقة للفترة من القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين ويوجد نحو مليونين من الوثائق لفترة ما بعد ١٩١٧م تتعلق بمدينة موسكو وحدها.

وقد أعرب مدير ارشيف موسكو مؤخرا عن استعداده للتعاون مع الارشيفات الاخرى وكتب عضو اكاديمية العلوم السوفيتية الاستاذ (بوديافسكي) كتابا عن (البحرين) ترجمه عن الروسية (رضوان ابراهيم) ونشر منه في مجلة الوثيقة وقد استند الكاتب على وثائق روسية واوردت الموسوعة الاسلامية تقريرا حول زيارة السائح الروسي (افاناسي نكيتين) عام ١٤٧٢م. وللبروفيسور (اليكس فاسيليف) والمتقاعد (بندرو فسكي) أكثرمن كتاب عن الخليج العربي. كما كتب أحد الرحالة الروس كتابا عن أبن ماجد في الخليج العربي. واورد المترجم سليم توما في كتاب بعنوان (سفن روسية في الخليج العربي في الفترة بين ١٨٩٩ ـ ١٩٠٣م) ان ضابطا من الاركان العامة الروسية زار الخليج والبحر الاحمربصحبة النقيب (افلاتشين) عام ١٨٩٨م الذي كتب تقريراً عن زيارته نشرها في سان بطر سبورغ عام ١٨٩٩م.

وزار الخليج (بوغويا فلنسكي) وهو عالم بيولوجي كتب عن زيارته كما نقل بعض الحيوانات التي حفظت في ارشيف القنصلية الروسية العامة في بوشهر وكانت الجمعية العلمية في جامعة موسكو قد ارسلت مأمورية الى المحمرة والكويت والبحرين ومسقط بقيادة (بوغو يافلنسكي) وكان وصوله للبحرين في شهر ابريل ١٩٠٢م وقد قابله محمد بن عبدالوهاب (الفيحاني) في دارين وهو الذي رتب للقائد الروسي مقابله مع (الشيخ عيسى بن على آل خليفة) شيخ البحرين كما زار الضابط الروسي (بوغويا فلنسكي) (الملك عبدالعزيز) سنة ١٩٠٣م ليهنئه بمناسبة انتصار الملك عبدالعزيز على ابن رشيد وزار (الشيخ جابر) الذي كان يدير شئون البلاد في الكويت في غياب والده الشيخ مبارك وتبادل معه الهدايا. وهكذا فان مواد ارشيف الدولة المركزي للاسطول البحري الحربي السوفيتي تشمل سياسة روسيا القيصرية تجاه الخليج العربي في فترة زمنية تمتد بين ١٨٩٩ ـ ١٩٠٣م فقداهتم الدبلوماسيون بالخليج العربي حينما تغلغل النفوذ الروسي في ايران في القرنين التاسع عشر والعشرين وقد حفزت الخطط الالمانية لمد سكك

حديد الى الخليج العربي اهتمام روسيا بالمنطقة فارسلت سفنا حربية الى الخليج العـربي وكتب الممثلون الـدبلومـاسيون الروس مـذكراتهم وتقاريرهم وارسلوها الى وزارة الحربيـة الروسية كما كتبت المعاهدات والاتفاقيات فكونت هذه وتلك مـواد ارشيفيه من وجهة النظر الروسية فكانـوا يصفون الموانيء ويعطون لمحه مـوجزة عن الوضـع الجغرافي والحالة التجارية والاقتصادية والسيـاسية في موانيء الخليج العربي فقد وصـل الطراد الـروسي (نيجني نوفغـورد) الى مسقط وجـاسك في أواخر أغسطس ١٨٨٣م وحوت مذكـرات قائد الطراد ملفات واضبارات تحوي صفحـات حـول تلـك المذكـرات. ومن أجـل ذلـك فقـد تضمنـت توصيات وقـرارات مديري وممثلي (مراكـز الدراسات والوثـائق لدول الخليـج العـربي والجزيرة العـربيـة) في جلستهـم المنعقدة في ينـايـر ١٩٩٤م الاهتمام بالبحـث والتصويـر للوثـائق (الروسيـة) المتعلقة بتاريـخ المنطقة في حدود امكـانيات الامانة العـامة للمراكـز الخليجية فباشر الامين العام بوضع خطة للتعاون بين الهيئات الروسية وعلماء الاستشراق الـروسي ومنهـم (اوليغ بيريسيبكين) الـذي اجتمـع معـي وأبلغته ان ينقل للجهات الرسمية في الارشيفـات الروسية رغبة مراكز الدراسـات والوثائق في الخليج العـربي والجزيرة العربيـة في البحث والتصوير للوثـائق والمخطوطات ذات العلاقة بتاريـخ المنطقة خاصة وقد سبق أن قامت بعض المراكـز في الامانة بالاتصال الشخصي ببعض دور الارشيف الروسي فحصلت على وثائق وصور ذات أهمية تـاريخية مما شجع الامانـة العامة للقيام بتحرك منظم للبحث عـن الوثائق التي تلقـي الضوءعلى تـاريـخ المنطقة والله يـوفـق الجميـع لخدمة البحـث والباحثين.

عبدالله بن خالد آل خليفة

الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة



عيد جلوسه	توليه الحكم	ولادتـه
١٨ ربيع أول ١٣٦١ هـ	٥ صفر ١٣٦١ هـ	١٥ ربيع ٢ ١٣١٢ هـ
٦ أبريل ١٩٤٢م	٢٢ فبراير ١٩٤٢م	١٧ أكتوبر ١٨٩٤م

عمـــره	وفـــاته
٦٩ سنة هجرية(١)	١٢ جمادى ٢ ١٣٨١ هـ
٦٧ سنة ميلادية	الخميس ٢ نوفمبر ١٩٦١م

التطور الإداري في عهد الشيـ

هو الشيخ سلمان بن حمد بن عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن أحمد (الفاتح) بن محمد بن خليفة آل خليفة. وترتيبه في الحكام الثامن من حكام آل خليفة في البحرين وذلك منذ فتح البحرين عام ١٧٨٣م/١١٩٧هـ على يد الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة الملقب بـ (الفاتح).

ولد الشيخ سلمان في البحرين عام ١٣١٢ هجرية الموافق ١٨٩٤م وذكر انه ولد عام ١٨٩٥م [٢] وربما أن سبب الاختلاف هو ان ولادته قد ثبتت في العام الهجري ١٣١٢ هـ وهذا التاريخ يصادف عام ١٨٩٤ و ١٨٩٥م.

ونودى بالشيخ سلمان حاكما على (البحرين وتوابعها) اثر وفاة

...خ سلمان بن حمد آل خليفة

إعـــداد : الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة
الدكتـــور عـلي أبا حسـين

والده الشيخ حمد الذي تـوفي في الساعة الثانية عشرة والربـع من بعد ظهر يوم الجمعة ٢٠ فبرايـر ١٩٤٢م وحضر تشييع جنازته جمع غفير من المواطنين وممـن قدموا مـن خارج البحرين ودفن في مقبرة الـرفاع. وكان للشيخ سلمان من العمر انئذ ٤٨ عـاما. وقد ارسل المقيم السياسي بالخليج تقـريرا كتبه المعتمد السيـاسي في البحرين حول وفـاة الشيخ (حمد بن عيسـى بن علي آل خليفة) وتولى ابنـه الأكبر الشيخ (سلمان) الحكم قال فيه: انه من دواعي الطمـأنينة أن انتقال الحكم انتهى بلطف ولم يواجه (ويكفيلد) المعتمد السياسي في البحريـن أية صعوبات تذكر وكان لتيسير الأمـور من قبـل (بلجريـف) مستشار حكومة البحـرين خلال سنوات حكم الشيخ حمد كبير الأثر في استقرار الأمور [٣].

أما التقرير الذي كتبه (ويكفيلد) حول وفاة الشيخ (حمد) فقد ورد فيه: انه التقى به في ١٦ فبراير أي قبل وفاته بأربعة أيام وكان يشكو من مرض السكر واستطرد ويكفيلد يقول: حدث هذا اللقاء أثناء عرض عسكرى لقوات البحرين أمام قصر المنامة احتفالا بعيد جلوسه العاشر. وقد سبق ان عقدت معه مقابلة قبل يوم أى في ١٥ فبراير وناقشنا أوضاع الحرب على ضوء السقوط الوشيك لسنغافورة، وشعرت أن صحة سموه لم تكن على ما يرام وقد سبق أن تحسنت صحته بعد رحلة القنص التى قام بها سموه في المملكة العربية السعودية في هذا الشتاء ولكنها لم تستمر اذ انتكس ثانية وكان له من العمر ٧٥ سنة على حد قول (بندركار) الطبيب الذي عالجه أثناء رحلة القنص وغادرتُ البحرين جواً لزيارة الساحل المهادن في اليوم التالي ولكنى وجدت أمامي في عصر ١٩ فبراير برقية في الشارقة من (جاكسون) المعتمد السياسي المساعد في البحرين وفيها: أن الشيخ حمد تعرض لسكتة قلبية وفقد الوعي حتى صباح ٢٠ فبراير حيث انتقل الى الرفيق الأعلى [٤]. وخلف من الأبناء: الشيخ سلمان ومبارك وأحمد وراشد وابراهيم وخليفة ومحمد وعلي وعبدالله ودعيج.

وكان الشيخ حمد قد رشح نجله الشيخ سلمان ليتبوأ الحكم من بعده وفق وثيقة سرية كتبها قبل عامين من وفاته وشهد عليها كل من المستشار لحكومة البحرين بلجريف والشيخ راشد بن محمد آل خليفة الذي سبق وان شهد على تعيين الشيخ حمد وليا للعهد قبل خمسين عاما من ذلك التاريخ [٥].

وقد أيد أفراد الأسرة الحاكمة تعيين الشيخ سلمان وليا للعهد خلفا لوالده ففي مساء يوم ١٩ فبراير وافق الشيخ سلمان على تولى الحكم وكان الشيخ سلمان قد اجتاز شوطا في تثبيت موقعه ليحل محل أبيه حتى اذا ما كشف عن وصية الشيخ حمد المحفوظة في البنك الشرقي بالبحرين وتسلم منصب الحكم أعلن عن عزمه بأن يتبع خطوات أبيه الى اقصى حد ممكن كما أكد انه واخوانه سيبقون أصدقاء وأوفياء لبريطانيا.

وقال المعتمد السياسي في البحرين: في ٢٢ فبراير زارني كل من الشيخ سلمان وعماه والمستشار بلجريف في مقر المعتمدية فرحبت بهم وكان الشيخ سلمان في طليعتهم وانه يحتفظ بصداقته ويحترم حقوق أعضاء أسرته وأفراد رعاياه وانه سيعمل من أجل خير الناس بكل طاقاته. ثم اصدر



خريطة (جزر البحرين وتوابعها) رسم (رؤوف نادر شركس)
طبعت على كراسات الطلبة بعد موافقة سمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة وذلك في ١٩٤٧م وما بعدها وتم طبعها في مطبعة (العالم العربي بمصر).

الشيخ سلمان بيان توليه الحكم وكان الاعتراف الرسمي من بريطانيا وحكومة الهند البريطانية بوراثة الشيخ سلمان للحكم قد جاء ضمن رسالة سلمها المعتمد شخصيا للشيخ سلمان في أول مارس ١٩٤٢م (٦).

وختم المقيم السياسي (هاى) تعليقاته على رسالة (ويكفيلد) حول وصية الشيخ حمد بولاية العهد لابنه الشيخ سلمان انها كانت تجربة لا أوافق عليها والأفضل أن يعين الحاكم خلفا له في حياته بعد موافقة الأسرة الحاكمة لهذا الغرض (٧).

وفي وصف للحفل الذي اقيم في قصر القضيبية الساعة الخامسة من مساء اليوم السادس من أبريل ١٩٤٢م جلس المدعوون وعددهم بين ٢٠٠-٣٠٠ شخص وحشد كبير من عامة الناس وكان الجو لطيفا والموقع مزينا بالرايات المختلفة الاحجام وقدمت القهوة العربية ثم القيت الخطب والقى المقدم (هاي) وهو المقيم السياسي في الخليج خطابا بالانجليزية ثم ترجم للعربية وسلم وثيقة نائب الملك الى الشيخ سلمان وقرأ نصها بالعربية فرحب الحضور بها بالهتافات والتصفيق ثم قدم العود وماء الورد وكان أحد رؤساء قبيلة عنزه وهو الشيخ (نايف الشعلان) حاضرا للحفل وهنأ الشيخ وقبله وتبعه أعضاء الأسرة والأشخاص البارزون من الجاليات العربية والأجنبية في البحرين (٨).

وأعلن الشيخ سلمان لعموم الجمهور في ٢٢ فبراير ١٩٤٢م الموافق في ٥ صفر ١٣٦١هـ قوله: نحن سلمان بن حمد آل خليفة توليتُ حكم البحرين حسبما عهد به الي والدى وجميع ما عليه أعمامي واخواني وجميع عشيرتي متمثلين ومنفذي هذا العهد الذي عهد الي به. واني كما ذكر والدي وأمر بأن أكون بعونه متمسكا بديني ساهرا على اصلاح حال عشيرتي وبلادي مجريا للعدل والانصاف وجاريا على توثيق من الارتباط الوثيق مع الدولة البريطانية ملزما لعلاقتها الى الدوام وارجو الله الهداية والتوفيق والاعانة منه جل وعلا وهو السميع المجيب.

ولما تولى والده الشيخ حمد بن عيسى الحكم كان الشيخ سلمان في موقع المسئولية فأخذ على عاتقه تحمل جانب كبير من ادارة الحكومة فقد ترأس بعض الدوائر مثل (ادارة أموال القاصرين، والمحاكم) وكانت من قبل تدار من قبل أجانب فكان من أهم أعمال الشيخ سلمان بحرنة الوظائف (كما يطلق عليها الآن) فعين فيها وطنيين بدلا من غيرهم.



جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود وصاحب السمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة عام ١٩٤٧م.

فقد اعطى جل اهتمامه أن يحتل المواطن البحريني المراكز القيادية في ادارة البلاد.

ومن أعماله الأخرى انه ادخل ماء الشرب والكهرباء في معظم البيوت في البحرين ولم تنته فترة حكمه الا ومعظم المنازل قد اضيئت بالكهرباء وزودت بالماء النقي فحقق بذلك عملا جليلا. كما كان يهتم ببناء المساجد في البحرين من ماله الخاص ومثل ذلك الاهتمام بالنهضة التعليمية والمشاريع البلدية فكثيرا ما كان يراقب أعمال توسعة الشوارع بنفسه. وكان نقد البحرين قويا مدعما بالذهب في المصارف الدولية. وهكذا وضع الشيخ سلمان بن حمد بعض الأسس الحكيمة في تطوير البلاد.

وهكذا ازدهرت البلاد في عهده خاصة وان مدة حكمه قد طالت الى نحو عشرين عاما فنالت البلاد قسطا وافرا من التحضر في كثير من المجالات. واكمل المسيرة أكبر ابنائه وولي عهده صاحب السمو الشيخ عيسى الذي ولاه أبوه العهد في عام ١٩٥٨م وذلك في مجلس حضره أفراد الأسرة الخليفية وجرى ذلك في قصر الرفاع فبارك المواطنون ذلك لأن ولاية العهد جاءت محققة لرغباتهم (٩).

كان الشيخ سلمان جليل الطلعة، له

هيبة الحاكم ونظرته النافذة تعكس فيه امارات الجد والحزم والذكاء والكفاءة، فهو كفء لتسلم مقاليد الحكم ومثال للرجل الحكيم ويتصف بكرم الاخلاق وحصافة الرأى.

تلقى تعليمه على يد مدرسين خصوصيين فأصبح يجيد القراءة والكتابة بلغة عربية فصيحة خاصة وهو من بيئة دينية محافظة مما كان له كبير الأثر في كونه شخصية اسلامية ورعة متمسكا بتعاليم الاسلام الصحيحة، وكان واسع الاطلاع على أحوال الدول ويهتم بما يدور حوله وقد اعتاد أن يعقد في كل أسبوع عددا من المجالس في مختلف انحاء البلاد ويحرص على تقريب العلماء والتحدث معهم. كما كان عامة الناس يحضرون مجلسه لمقابلته شخصيا فمن لديه حاجة يريد تقديمها بنفسه الى الحاكم لينظر فيها كان يحضر مجلسه ليقدمها مباشرة بنفسه. وفي شبابه اهتم بالقنص وهي رياضة أهله وبني قومه وفيها فتوة ودراية بالبلاد التى يرتادها وخاصة في المملكة العربية السعودية الشقيقة مهد آبائه واجداده وكذلك مناطق من الخليج العربي وفي أيامه الأخيرة كان يزاول هذه الرياضة في الاجزاء الجنوبية من البحرين.

وكان سموه زاهدا لا يهتم بالمظاهر محافظا على التقاليد في سلوكه مع عامة الناس متصفا بالتواضع والبساطة وليس أدل على ذلك من قصره الكائن في الرفاع والذي يسقبل عموم الناس وخاصتهم فكان مثالا على ذوقه المتواضع وقد زينت جدرانه بصور الشخصيات الذين زاروا البحرين والخرائط وشجرات النسب وبعض الكتب في التاريخ والشعر والأدب ومن مظاهر تواضعه انك تراه في كثير من الأحيان يجلس عصرا مع أطفال أسرته وغيرهم من الأطفال الآخرين على اختلاف اعمارهم وذلك في (سافرة) حيث يطل قصره في الرفاع ليشهد ألعابهم وخاصة ألعاب الفروسية [١٠] وكان يحنو على الأطفال عموما ويرعاهم فهو بحق أب الشعب أحبهم واحبوه.

والشيخ سلمان يسعى الى التطور والتحديث لبلاده ويهتم بصرف الأموال دون اسراف على مستحقيها سواء على المشروعات والخدمات في البلاد، أو على المحتاجين من أبناء شعبه وحتى على غيرهم.

ففي الرابع عشر من سبتمبر

١٩٥٨م غرقت سفينة تجارية في (رأس الحد) بخليج عمان وتم انقاذ أربعة وثمانين راكبا وبحارا وما أن وصل المنكوبون الى البحرين حتى أمر سموه الجهات المختصة بتوفير المأوى والملبس والاشراف الصحي لهم. وكان يشرف على المعونات التى يقدمها أبناء شعبه ويتصدر قائمة التبرعات. وقد شكره اتحاد الأندية الوطنية على مواقفه الانسانية وما قدمه من عون لأبناء الجزائر المجاهدة كما شكر الاتحاد أبناء الشعب الذين ساهموا في تقديم معوناتهم. وتبرع سموه في ١٩٥٥م من نفقته الخاصة بمبلغ قدره ١٥٧,٥٠٠ جنيه استرليني من أجل المشاريع التنموية والصحية [١١] وفي يناير ١٩٤٩م ذكر المقيم (بيلي) ان الشيخ سلمان قرر منح علاوات زائدة لاقاربه من ماله الخاص وليس من الميزانية العامة [١٢] وكذلك اهتم برفاه عامة الناس خاصة اثناء الحرب تدفعه انسانيته المنبعثة عن تقواه وتقاليده العربية العريقة ورغبته في مساعدة الضعفاء والمحتاجين لقضاء حاجاتهم.

وشهدت البلاد تطورا سريعا نظرا لموقعها الجغرافي والتجاري ولظهور النفط فيها وهي تأتي في الدرجة الثانية عشرة في الانتاج للنفط. وكان يدرك أهمية التنمية الاقتصادية وما لها من اثر اجتماعي في جو يسوده الأمن والرخاء. ومن صفاته الصبر حتى يحقق أهدافه لخير شعبه ورخاء بلاده. وله مميزات جعلته كفؤاً لقيادة الشعب فقد حافظ على استقلال بلاده بمهارة الحاكم الحكيم، وكان مرتبطا منذ أعلن عن ولايته للعهد عام ١٩٤٠ بأمور ادارية في البلاد ارتباطا مباشرا تحت اشراف أبيه الذي تولى الحكم في عام ١٩٣٢م فقد عمل في المحاكم المختلفة واهتم بالصحة والتعليم والخدمات العامة واعتمد على تنويع مصادر الدخل وكان النفط أحدها ثم الاعتماد على مهارات السكان وكان لظهور النفط أثر في بروز مشاكل اجتاحت البحرين قادها بعض المتطرفين بسلوك طرق محفوفة بالمخاطر بينما كان الشيخ سلمان يرغب في السير بطريق التوازن والاعتدال وبذا يتعامل الشيخ سلمان وبشكل ناجح مع تلك المخاطر مما لا يمكن لسابقيه أو معاصريه التعامل معها بنجاح يحدوه بذلك الثقة بنفسه وبشعبه الذي لم يخذله قط وبذا تخطى العقبات التى اعترضته خاصة

وردا على الزيارة التى قام بها الملك سعود للبحرين فقد زار الشيخ سلمان المملكة العربية السعودية زيارة رسمية وفي تلك الزيارة عقدت اتفاقية الرياض حول مسألة الحدود بين البحرين والمملكة العربية السعودية الشقيقة[١٧].

وفي ٥ مايو ١٩٥٥م مر الرئيس جمال عبدالناصر عن طريق البحرين عند عودته من مؤتمر باندونج في اندونيسيا واستقبل استقبالا رسميا وشعبيا رائعا كما استقبل سلطان عُمان في اغسطس ١٩٥٥م. والرئيس التركي بايار في فبراير ١٩٥٥م[١٨] وفي مارس استقبل جلالة الملك حسين ملك المملكة الاردنية الهاشمية استقبالا عظيما اثر وصوله مطار البحرين بعد زيارة قام بها للباكستان[١٩] وفي ٢١ يونيه ١٩٥٦م نزل السيد نهرو (رئيس وزراء الهند) الى البحرين وقد اندفع الجمهور نحو الطائرة ووصل الى مبنى المطار بصعوبة وكان في استقباله عم الأمير الشيخ محمد بن عيسى بن علي ممثلا عنه والقى السيد نهرو كلمة قصيرة للصحفيين وسجل رسالة لاذاعة البحرين[٢٠]. وزار البحرين في ١٩٥٦م الملك محمد ظاهر شاه ملك افغانستان.

وفي ابريل ١٩٥٧ مر بالبحرين جلالة الملك فيصل الثاني ملك العراق قادما من كراجي وكان له من العمر ١٩ عاما فأقام له الشيخ سلمان مأدبة فاخرة حضرها نحو سبعين مدعوا[٢١].

وفي يناير ١٩٦٠م استقبل أمير الكويت الشيخ عبدالله السالم آل صباح أثناء مروره بالبحرين في طريقه الى الهند قادما من بلاده. ومن الشخصيات الأخرى التى زارت البحرين في عهد سمو الشيخ سلمان السيد أنور السادات:

وفي العام الذي توفي فيه الشيخ سلمان زار البلاد كل من أصحاب السمو أمراء الكويت ودبي والشارقة وقطر وقدموا خصيصا لتقديم التعازي الى صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة في وفاة المغفور له الشيخ سلمان[٢٢].

المحاكم في عهده:

لقد تطورت المحاكم في البحرين في عهد سمو الشيخ سلمان نظرا لاهتمامه ومشاركته الفعلية في القضاء قبل توليه الحكم اذ كان والده سمو

الشيخ حمد يكلفه بتنظيم الادارة والقيام بأمور المحاكم فأصبح له خبرة واسعة في الاجراءات الادارية والقانونية وكان سريع الفهم يمتاز بميزات القاضي الذكي المستوعب لتفاصيل الاجراءات القضائية يحكم بالعدل والانصاف. ففي الأول من محرم ١٣٤١هـ الموافق ٢٤ اغسطس ١٩٢٢م وقبل نحو عقدين من الزمن طلب منه والده بأن يقوم بترتيب ادارة المنامة والمحافظة على قيامه بالقضاء بمقتضى الحق والانصاف حسب المواد التالية:

المادة الأولى: وهي القضايا الشرعية وتحال الى الشرع.

المادة الثانية: وهي القضايا العرفية وتحال الى العرف.

المادة الثالثة: وهي مسائل الغواصين وتحال الى عرف الغوص أي (السالفة).

المادة الرابعة: في المسائل الجنائية ويقبض على فاعلها الى وقت المحاكمة.

وان تنفيذ ما في كل من المواد المذكورة يتم بمقتضى الحكم

وما ان تولى الحكم الا وكان يجعل جل اهتمامه للقضاء فقد تم تعيين شيخ راشد (حمى الشيخ حمد) قاضي قضاته كما عين له مستشارا قضائيا وفي عهده صدرت عدة قوانين أهمها:

قانون العقوبات. وقانون تعويض موظفي الدولة وقانون العمل. وقانون السير والمرور.

وفي رسالة مؤرخة في ٩ مايو ١٩٥٢م كتب المعتمد السياسي أن حاكم البحرين يطلب ان تكون له صلاحية قانونية بخصوص قضايا الأجانب والا يحكم المعتمد السياسي دون مراجعة الشيخ سلمان ويريد الشيخ ابرام اتفاقية جديدة بين البحرين وبريطانيا وبموجبها تلغى الاتفاقية السابقة التى عقدت بين جده الشيخ عيسى وبريطانيا والتى تجعل لشيخ البحرين الحق في النظر في القضايا التى تخص أهل البحرين فقط ويطلب ان يكون له الحق في ان ينظر في القضايا التى تخص المواطنين العرب المقيمين في البحرين من السعوديين والعمانيين ومشيخات الخليج اعتبارا من مايو ١٩٥٢م [٢٣]. فأصبح رعايا الدول العربية ومنطقة الخليج العربي يخضعون للسلطة القضائية

لحكومة البحرين بدلا من السابق حيث كانوا يخضعون للسلطة التنفيذية للمعتمد البريطاني في البحرين [٢٤].

المقيمية وشركة نفط بابكو وغيرهما من المؤسسات الاخرى يطلب جمع التبرعات من الموظفين فاحتج الوكيل السياسي لدى الشيخ سلمان فتبرع بعشرة بالمائة من عائدات سباق الخيل (لقضية فلسطين) فما كان من الوكيل السياسي الا ان أوقف ارسال المبلغ فارسله الى حساب الهلال الأحمر. ولكن الشيخ سلمان تبرع بمبلغ مائة الف روبية الى المنظمة الدولية لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين(٢٦).

وطلب الشيخ سلمان من المقيم (بيلي) ان يرتب مبلغا وقدره مائة الف روبية لارسالها الى القاهرة لنجدة اللاجئين الفلسطينيين(٢٧).

وقدمت البحرين مساعدة مالية الى مصر لشراء أسلحة في نوفمبر ١٩٥٥م(٢٨).

تطور المؤسسات الصحية :

فاضيفت عيادة خارجية لدائرة الصحة بالاضافة الى الجناح الخاص بالولادة في مستشفى النساء. ووضع حجر الاساس لمستشفى الرفاع وزاد عدد الاسرة في مستشفيات الحكومة من ١٤٠ سريرا في عام ١٩٤٢ الى حوالى ٥٠٠ سرير في عام ١٩٥٨م وبانتهاء مستشفى النساء والرجال في المنامة ستشفى الرفاع فان العدد وصل الى ٦٠٠ سرير.

وأناب سموه الشيخ مبارك بن حمد لافتتاح عيادة سترة(٢٩). واصدر أمره السامي بمجانية الخدمات الصحية مما كان له كبير الاثر في التقدم الصحي وزيادة الأطباء وانشاء المستشفيات(٣٠). وبعد عيد الفطر من عام ١٣٧٣هـ الموافق يونيو ١٩٥٤م قام سموه بزيارة للعيادة الطبية المتنقلة التي تزور القرى لتوفير العلاج الصحي السريع والعيادة تتكون من سيارة كبيرة وكأنها مستشفى صغير بما تحويه من جميع ما يحتاج اليه الطبيب خارج المستشفى ويعمل فيها طبيب وممرض وسائق. كما اهدت شركة نفط البحرين سيارة عيادة متنقلة لدائرة الصحة(٣١).

وبدأ العمل في بناء جناح الولادة الملحق بمستشفى النساء الذي تفضل بافتتاحه. وافتتحت مدرسة. وجلب الاطباء الاخصائيون وارسى حجر الأساس لمستشفى الرفاع(٣٢).

وكتب ابن الدكتور (باندركار) في

مذكرات عام ١٩٤٤م قال ان والده جاء لاستلام عمله في البحرين في شهر مايو ١٩٢٥م وكان له من العمر وقتئذ ٤٤ عاما وكنا نجمع مياه الامطار في أوان كبيرة بواسطة قطع من القماش نرفعها فوق الأواني ونستخدم الماء للطبخ. وذات يوم من أيام صيف ١٩٤٤م ارسل الحاكم الشيخ سلمان الى ابي لمشورة طبية فرافقته وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر وجلسنا كلنا على سجادة في المجلس وأمر صاحب السمو أحد الخدم ليأتي بالعنب لي ولما أكلته كله أمر أن يؤتي بالمزيد.

أما الدكتور بندركار فقد عمل في سفينة حكومية اشبه بالمستشفى العائم الذي يتجول في المغاصات وكنا نرتاح بعض الوقت في (جزر حوار أو فشت الديبل أو جراده) أو لنتزود أحيانا بالماء العذب من (خور فشت) وكان عدد السفن البحرينية التى تعمل في الغوص نحو ٧٠٠ سفينة وكنت أزورها وأعالج المرضى فيها. وقد تأثرت تجارة اللؤلؤ بسبب الكساد الاقتصادي الذي أصاب العالم في عام ١٩٢٩م وبسبب ظهور النفط فأصبح عدد السفن التى تمارس صيد اللؤلؤ حتى اليوم ١٩٥٥م لا تزيد على ست سفن وتدنى الحصاد السنوي حتى لم يعد يجاوز الخمسة الملايين روبية مقابل ٥٠-٦٠ مليون روبية في العشرينات والثلاثينات.

وكانت دائرة الصحة في عام ١٩٥٥م ترسل فرق التطعيم ضد الملاريا والجدرى الى كل قرية ومدرسة مع فحص كل المسافرين والقادمين والتأكد من حملهم شهادات التطعيم ضد الجدرى ويراقب مفتشو الصحة الاسواق والفنادق والمطاعم والمرافق العامة بجدية. وكانت (دائرة الصحة العامة) في عام ١٩٥٥م تحتل مبنى جديدا رائعا ويعمل به عدد من الكتاب والممرضيين تحت اشراف طبيب انجليزي واثنين من المساعدين الهنود احدهما يهتم بالحجر الصحى والآخر بالعيادات المدرسية المتزايدة.

قال بندركار في مذكراته: كان المستوصف في المحرق عام ١٩٢٥م يقع في دكان صغير طوله ٢٠ قدما وعرضه ١٠ أقدام وله باب كبير في المقدمة ونافذة صغيرة من جانب واحد وتنقصه التهوية والاضاءة وكان يديره قبل حضورى طبيب من طائفة البهرة ويمارس العلاج فيه على أساس الطب اليوناني الشعبي القديم. وكانت تنقص المستوصف الأدوية

والأجهزة الضرورية للعلاج. وفي السنة التى قدمت فيها للبحرين حدثت عاصفة أدت الى انقلاب مئات من سفن الغوص ووفاة نحو خمسة آلاف شخص. واما المستوصف فقد بقى على حالته حتى عام ١٩٣٨م تنقصه الاضاءة والتهوية وزود بمنضدتين للمرضى ووصل أول طبيب رسمي وانشئت أول دائرة صحية وانتشرت الملاريا في الأعوام من ١٩٢٨-١٩٣٥م. وفي عام ١٩٥٥م ارسلت دائرة الصحة فرق التطعيم الى كل قرية ومدرسة مع فحص القادمين والمسافرين والتأكد من حملهم شهادة التطعيم ضد الجدرى. ويزور المدارس طبيب بانتظام لفحص الطلبة من مرضى التراخوما والملاريا وترش الاسواق والمستودعات بمادة الـ د.د.ت. واصبحت دائرة الصحة تحتل مبنى جديدا رائعا ويعمل فيها عدد كبير من الكتاب والممرضين تحت اشراف طبيب انجليزي واثنين من المساعدين الهنود وزود المستشفى بأجهزة للأشعة السينية ومختبر يعمل فيه فنيون بلغ عددهم ١٢ فنيا يحملون مؤهلات عالية وخبرة واسعة وممرضات أجنبيات لهن خبرة وكفاءة وعين جراح محنك هو (ولكنس) ثم انشئت مستشفيات للأمراض المعدية(٣٣).

وشهد اليوم السابع من اكتوبر ١٩٥٩م افتتاح مدرسة التمريض والتى تقبل فيها خريجات الثانوية أو ما يعادلها والدراسة فيه لمدة ثلاث سنوات للحصول على دبلوم في التمريض وكان عدد الطالبات في السنة الأولى ست بحرينيات وترسل خريجاتها الى المملكة المتحدة للتخصص والتدريب العالي وكانت مديرة مدرسة التمريض السيدة أمينة قربى.

التربية والتعليم:

اهتم سمو الشيخ سلمان بنشر التعليم وفق خطط مدروسة فبعد ان كان عدد المدارس الحكومية في عام ١٩٤٠م تسع مدارس يتعلم فيها ١٥٥٣ طالبا وطالبة يعلمهم ٢١ معلما ومعلمة أصبح عدد الطالبات فقط في عام ١٩٤٥م ١١٣٩ طالبة يدرسن في خمس مدارس وكان ذلك في فترة الحرب العالمية الثانية. وفي عام ١٩٤٣م حين زاد الوارد من النفط تحمل سموه مسئولية تسيير مدرسة دينية تكلف بين ١٢-١٥ الف روبية شهريا وتمثل هذه التكاليف زيادة

يرجع سببها الى سياسة ابتعاث بعض الطلبة الى مدرسة دينية في مكة. وما ان انتهت الحرب حتى تضاعف عدد المدارس فأصبح في عام ١٩٤٦م احدى وعشرين مدرسة تضم ٥,٥٥٥ تلميذا وتلميذة وعدد أعضاء الهيئة التعليمية ٢٢٢ عضوا اي خمسة اضعاف عدد الطلبة خلال سنين الحرب.

وفي عام ١٩٥٥م وصل عدد المدارس الى ٥٥ مدرسة يتعلم فيها ٢٠,٤ طلاب وطالبات يعلمهم ٧٩٩ معلما ومعلمة.

وقد خصص من ميزانية البحرين للتعليم لتكلمة بناء بعض المدارس الجديدة مبلغ ٨١٤,٠٠٠ روبية. وبناء مدرسة السلمانية للبنات ٤٥٠,٠٠٠ روبية ولبناء مدرسة في النبيه صالح ٥٠,٠٠٠ روبية. وكانت ادارة التعليم توفد طلابها للدراسة في الخارج منذ ١٩٥٠م وحتى ١٩٦٠م.

وفي عام ١٩٦٠ اوفدت الحكومة اثنى عشر طالبا وطالبة من خريجي وخريجات المدارس الثانوية منهم ثمانية الى الجامعة الامريكية في بيروت واربعة الى القاهرة وهناك ثلاثة طلاب انهوا دراستهم الطبية في بيروت فبعثوا الى الولايات المتحدة الامريكية للتدريب بمستشفياتها(٣٤)

وفي عام ١٩٥١م تم تشكيل أول مجلس لادارة المعارف في البحرين ويتألف من ثمانية أعضاء تعينهم الحكومة.

وفي هذه الفترة تم تأسيس أول مدرسة ثانوية للبنات. وفي عام ١٩٥٦م تألف لأول مرة مجلس لتخطيط سياسات التعليم تحت اسم مجلس التربية والتعليم واستمر العمل على نشر التعليم وتطوره في تقرير مؤرخ في ٢٧ فبراير ١٩٥٥م قدمه كل من الشيخ عبدالله بن عيسى والشيخ ابراهيم بن محمد آل خليفة والشيخ مبارك بن حمد آل خليفة وأحمد بن يوسف كانو وجارلس بلجريف.

وكان سمو الشيخ سلمان يسير بخطوات مدروسة لتطوير البلاد فقد عين لجانا تدرس أحوال التعليم. والقوانين والأمن العام والدوائر الطبية وقدمت تقريرا هاما سعت حكومة سموه الى تحقيقه ومما جاء فيه:

في مجال التعليم:

بعد زيارة لمديرية المعارف وبعض المدارس وجدنا انها تحتل بنايات قديمة وان المكتبات فيها غير صالحة وكتبها غير مجلدة وبعضها تالف

نتيجة لطبيعة بناء المكتبات فنوصي ببناء للمديرية وللمكتبات بصورة خاصة كما نوصي بتوسيع المدرسة الثانوية وبناء أو ترميم المدارس عموما. اما عراد وحالة النعيم والسلطة فليس عندهم مدرسة وكذلك المنطقة الغربية تحتاج الى مدرسة قرب مستشفى النعيم أما مدارس البنات فلم نزرها لان العرف والتقاليد لا تسمح لنا بذلك الا ان الرفاع تحتاج الى مدرسة للبنات لطالبات الرفاعين وأوصت اللجنة بتوحيد المناهج للبنين والبنات أما مدرسة الصناعة الثانوية فقديمة وينقصها الكثير من التجهيزات والمختصين كما أوصت ان تعادل شهادتها بالشهادة الثانوية العامة وبخصوص الرواتب لابد ان يعاد النظر في رواتب المعلمين المواطنين كما نوصي ببناء بناية خاصة لسكن المعلمين الاجانب.

ان الكتب توزع مجانا لمدارس البنات والبنين اما الثياب المدرسية فتوزع على الطالبات الفقيرات دون الاولاد.

ونوصي بالاهتمام بتعميم اللغة الانجليزية. ولابد من توحيد التعليم والمناهج في المدارس الحكومية والاهلية وان تكون خاضعة لمجلس المعارف. وان تفتح (مدارس ليلية للتعليم المجاني) في المدارس الابتدائية للأميين ومثل ذلك لما بعد الابتدائية ونرى مضاعفة المبتعثين الى الجامعة الامريكية وكذلك الى العراق ومصر وسوريا لأن هذه الدول تقبلهم مجانا. الخلاصة ان سير المعارف غير مرضي فلابد من تعيين مجلس للمعارف ينظر في ميزانية المعارف وطرق الصرف والاصلاحات الاخرى.

وفي نصيحة لأحد الطلاب الذين تشرفوا بمقابلة سموه بمناسبة التحاقه باحدى الجامعات في الخارج: (تذكر على الدوام بأن رسالتك في الخارج هي الدراسة والسعي وراء المعرفة كن ملازما لكتبك واستمع الى مدرسيك واسمح لنفسك بجانب من الرياضة ولكن لا تدع شيئا يحيدك عن طريق المعرفة والعلم والا خنت نفسك وضميرك).

الصحافة في عهد سمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة:

لقد عرف عن الشيخ سلمان تشجيعه للصحافة لانها هي الوسيلة لاطلاع الرأى العام على ما يجرى في الداخل والخارج من شئون سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية فقد

صدرت عدة صحف ومجلات في عهده منها:

صحيفة (البحرين): وهي يومية سياسية وأدبية علمية صدرت في مارس ١٩٣٩م واستمرت في الصدور حتى يونيه ١٩٤٥م ومديرها (عبدالله علي الزايد) وتقع في أربع صفحات من الحجم الكبير.

ومجلة (صوت البحرين): وهي أدبية اجتماعية شهرية بدأ صدورها في عام ١٩٤٩م ثم توقفت عن الصدور في بداية عام ١٩٥٥م بعد ان صدر منها نحو خمسين عددا. ومديرها (ابراهيم حسن كمال) وتقع بين ٢٤-٤٨ صفحة من الحجم المتوسط.

وصحيفة (القافلة): وهي جريدة اسبوعية جامعة بدأ صدورها عام ١٩٥٢م واستمرت حتى عام ١٩٥٤م بعد انِ صدر منها ٤٦ عدداً ومديرها (أحمد يتيم) وسكرتير التحرير (علي سيار) وتقع في ثمان صفحات من الحجم الكبير.

جريدة (الخميله): وهي اسبوعية أدبية جامعة صدر العدد الأول منها في ٨ اغسطس ١٩٥٢م واستمرت في الصدور حتى عام ١٩٥٦م ورئيس تحريرها (كارنيك جورج ميناسيان) وهو صحفي عراقي وعدد صفحاتها ثمانى صفحات من الحجم المتوسط.

مجلة (هنا البحرين): وهي اعلامية شهرية. بدأت في الصدور في يناير ١٩٥٦م واستمرت حتى ديسمبر ١٩٧٢م حيث احتجبت لتؤدى رسالتها في اسم جديد وعدد صفحاتها في البداية ٤٨ صفحة من الحجم المتوسط ثم كبر حجمها فيما بعد.

مجلة (نجمة البحرين): وهي شهرية تصدرها شركة نفط البحرين (بابكو) وبدأت في الصدور في شهر مارس ١٩٥٧م واحتجبت في يونيو ١٩٧٤م وكان يرأسها (يني بشاي) وتقع في ٢٨ صفحة من الحجم المتوسط.

اذاعة البحرين : افتتحت في الرابع من نوفمبر ١٩٤٠م ثم مدد البث الاذاعي فيها اثر تولى سموه الحكم ببضعة اشهر وذلك في مايو ١٩٤٢م وكانت تقدم المحاضرات الدينية والأدبية والتاريخية والطبية علاوة على الأخبار وبرامج أخرى.

وقد وضع حجر الاساس لمبنى الاذاعة في ٥ مايو ١٩٥٤م ففي الساعة الثامنة من اليوم السادس لشهر ذى القعدة ١٣٧٤هـ الموافق

٢٦ يونيه ١٩٥٥م كان أول تجربة اذاعية ثم قام سموه بافتتاح الاذاعة رسميا في ٢١ يوليه ١٩٥٥م والقى كلمة بالمناسبة (٣٥).

وفي يوم ٢٨ ابريل ١٩٥٤م تألفت في البحرين (جمعية تاريخ وأثار البحرين) تحت رعاية حضرة صاحب العظمة الشيخ سلمان حاكم البحرين وقد انتخب الشيخ (راشد بن خليفة آل خليفة) رئيسا للجمعية ومستر (حمد بلجريف) سكرتيرا والاستاذ (حسن منديل) أمينا للصندوق وعضوية مستر (جيمس هايد) والسيد (سعيد الزيرة) ومستر (لاركنز) والسيد (علي التاجر) وعرضت في ٥ يونيو بعض الآثار في شارع بلجريف (٣٦).

وفي شهر نوفمبر ١٩٤٣م تكونت لجنة (سباق الخيل) واقيم أول سباق للخيول بالبحرين حضره جمهور غفير وكان يقام السباق مرتين في العام وينفق العائد منه من أجل المرضى المصابين بالدرن لعلاجهم بالخارج.

وفي شهر مايو ١٩٤٥م حضر الشيخ سلمان أول مباراة (لكرة القدم) بين فريقي البحرين والمملكة العربية السعودية.

وتقام المباريات الرياضية كل عام تحت اشراف سلطات التربية والتعليم ودائرة الشرطة وبحضور صاحب السمو الذي يقدم الجوائز للفائزين.

واشار الوكيل السياسي في تقرير له الى ان احدى مدارس البنات في البحرين عرضت مسرحية جاء لمشاهدتها أكثر من ٥٠٠ سيدة (٣٧).

ونالت **(الخدمات العامة)** نصيبا كبيرا من ميزانية الدولة فقد خصص لتكملة ميناء سلمان مبلغ وقدره ١,٩٩٣,٠٠٠ روبية وخصص لجسر الشيخ حمد ٩٧١,٠٠٠ روبية ولاسالة المياه خصص ٧٠٠,٠٠٠ روبية منها ٢٤٠,٠٠٠ روبية لتوسعة اسالة مياه المنامة و ٤٠,٠٠٠ روبية لتوسعة اسالة مياه المحرق و ٢٠٠,٠٠٠ لمشروع مياه الرفاع، و ٢٢٠,٠٠٠ روبية للحد وبعض القرى وخصص ٦٠٠,٠٠٠ روبية لتكملة بناء بلدية المنامة ومثل ذلك للتعليم والصحة والبلديات والطرق والكهرباء وغيرها.

وتشكلت لجان في السنوات التى تلت ١٩٥٥م لستة مجالس للبلدية تعالج شئون اربع مدن ومجموعتين

كبيرتين من القرى في البحرين. وتأسس مجلس اداري أعلى برئاسة الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة(٢٨).

وفي السنوات الأربع الأخيرة من حكم الشيخ سلمان تقدمت الخدمات الاجتماعية والمرافق العامة نتيجة الاهتمام بالمياه والطرق والنظافة العامة والتعليم والصحة وصرف من ميزانية الدولة على الشوارع الجديدة ٢,٣٨١,٠٠٠ روبية ثم صرف ٩٨٤,٠٠٠ روبية منها على أعمال الرصف والتبليط فتم تبليط شارع الشيخ سلمان وفتح شارع الحكومة المزدوج المرور. وبلط شارع السلمانية. وفي أواخر عام ١٩٣٠م تم البدء بانشاء جسر الشيخ حمد الذي يربط جزيرة المحرق بالجزيرة الأم وفي عهد الشيخ سلمان تم التعاقد لبناء جسر الشيخ حمد الجديد وتوسعة شارع المحرق. وكان جسر المحرق ضيقا جدا لا يزيد عرضه على ثمانية أقدام وهو صالح لمرور السيارات في اتجاه واحد وكان عدد السيارات قليلا جدا اذ يستخدم الناس العربات التى تجرها الدواب. أما الجسر فكان مركبا فوق محاور تجعله متحركا ليسمح بمرور السفن تحته من طراز الداو(٣٩).

وفي عام ١٩٥٤م افتتح تحت رعاية سمو الشيخ سلمان خط تليفوني بين البحرين والهند قام بافتتاحه سمو ولي العهد الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة في الخامس عشر من شهر مايو ١٩٥٤م وسبق ان تم افتتاح خط تليفون لاسلكي بين البحرين وبريطانيا في يونيه ١٩٤٩م وآخر مع الولايات المتحدة في العام التالي ثم خطين بين البحرين والكويت وقطر(٤٠).

وفي مايو ١٩٥٩م افتتح سموه محطة القوة الكهربائية الحكومية في (الجفير) وهي احدى مشاريع تطور البحرين. وفي الثلاثين من ابريل ١٩٥٩م افتتح سموه المحطة الكهربائية الجديدة التى حلت محل القديمة في منطقة (راس رمان) وكان لها الفضل في تعميم الكهرباء بمناطق البحرين المختلفة مدنا وقرى. وأمر سموه بتخفيض سعر الكهرباء. وخلال أسبوع الانشاء قام سمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة بايصال التيار الكهربائى الى منطقة (البديع) نيابة عن والده وقد لاقي مشروع الكهرباء عناية كبرى في عهد

سموه في المدن الكبرى وحتى في القرى فوصل التيار الكهربائى الى خمس عشرة قرية (٤١).

وخلال عام ١٩٥٧م انشئت دائرة الشئون القروية فقامت باحصاء للمالكين للاراضي في القري وقد وهب الشيخ سلمان لمن كان يسكن أرضا حكومية وهبها له وعين مسئولا لتحقيق ذلك.

ويواكب ذلك انشاء مشاريع كبيرة تكاليفها ٨٨ مليون روبية وبدأ العمل بمشروع اسالة المياه بالمحرق. وحفر الآبار الارتوازية لتوفير المياه للشرب والزراعة. وأناب سموه الشيخ عبدالله بن حمد بن ابراهيم آل خليفة ليقوم بارساء حجر الأساس لمبنى بلدية سترة وجدحفص (٤٢).

وكانت بداية ما عرف فيما بعد بوزارة الاسكان في عهد سمو الشيخ سلمان اذ كان لدى الحكومة ١٩٦ بيتا مؤجرا للعمال المتزوجين ثم أمر بتشييد منازل أخرى. ففي عام ١٩٦٠م تم تشييد ٩١ بيتا منها ٤١ بيتا في المحرق. وبلغ عدد المنازل ٢٨٧ منزلا وتباشر دائرة الشئون الاجتماعية كافة الاصلاحات والترميمات لهذه البيوت (٤٣).

ووضع سمو الشيخ سلمان حجر الأساس لبناية المطار الجديد وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٥٩ (٤٤).

وفي سبتمبر ١٩٥٥م تم اكمال ممر جديد في مطار المحرق وطوله ٢٥٠٠ ياردة (٤٥).

وفي شهر نوفمبر ١٩٥٧م كان أسبوع الانشاء حيث أعلن سمو الشيخ سلمان تدشين العمل في ميناء سلمان مما يسهل عملية التدور والنقل ورسو السفن الكبيرة مما كان له اثر في النشاط التجاري بحكم الموقع الجغرافي الهام للبحرين واصبح يستقبل ست بواخر في آن واحد.

وقال سموه عند تدشين العمل بالميناء العميق (لقد كانت سياستنا دوما وابدا رفع مستوى هذه البلاد ودفعها في طريق التقدم وموكب الحضارة والرقى..).

وخصص مبلغا لتكملة ميناء سلمان قدره ١,٩٩٣,٠٠٠ روبية وفي خلال عام ١٩٦١م تم تحقيق بعض المشاريع الانشائية فانتهي العمل في بناء الميناء العميق (ميناء سلمان) وجسر الشيخ حمد الجديد وقد اقيمت

حفلة افتتاح كبرى للمشروعين الآخرين تحت رعاية صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة حاكم البحرين يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦٢م. أما ميناء سلمان فقد اجل الاحتفال الرسمي بافتتاحه الى وقت آخر لاتمام المرافق والمعدات(٤٦).

تولى الشيخ سلمان الحكم في سني الحرب العالمية الثانية وذلك في فبراير ١٩٤٢م والبلاد تشهد تطورا في جميع المجالات خاصة وقد تم اكتشاف النفط في البحرين منذ ثلاث عشرة سنة وان كانت عائدات النفط قليلة ومحدودة بالنسبة للخدمات العامة كانشاء المدارس والمستشفيات والطرق والكهرباء والماء لكنه استطاع ان يخصص جزءا كبيرا من الدخل لهذه الخدمات وبعد عشر سنوات من توليه الحكم تم تعديل امتياز النفط فزاد الوارد الذي اخذ يحقق المشاريع الكثيرة التى بقيت حتى ذلك الحين قيد التنفيذ كانشاء ميناء سلمان. حيث بدأت التخطيطات التمهيدية لهذا الميناء في عام ١٩٥٥(٤٧).

وكتب المستشار الى الشيخ محمد بن علي بن محمد الخليفة لكي يحضر مجلس بلدية المحرق بصفة نائب رئيس المجلس خلال غياب سمو الشيخ سلمان نجل صاحب السمو الشيخ حمد بن عيسى بن علي وذلك في ٨ ذى الحجة ١٣٥٩هـ الموافق ٨ يناير ١٩٤١(٤٨).

وحين تولى الشيخ سلمان كان دخل البلاد ٣,٧٥٠,٠٠٠ روبية وعند حلول عام ١٩٥٨م اصبح الدخل ٥٢,٩٠٠,٠٠٠ روبية. وفي عام ١٩٦١م وصل دخل البلاد الى ٧٥ مليون روبية وذلك نتيجة لازدهار التجارة وزيادة عوائد النفط فتضاعفت ثروة البحرين في عهده وزادت المشروعات العمرانية بشكل ملموس(٤٩).

وادخل سموه على البلاد فكرة اقامة المعارض الدولية تجارية وزراعية وتجاوب التجار المحليون لهذه الفكرة فاتسعت معاملاتهم التجارية واقبل الزوار من كل مكان وازدهرت التجارة ومن المعارض التى افتتحها سموه المعرض التجاري الزراعي عام ١٩٥٨م ومعرض البحرين الزراعي التجاري عام ١٩٦٠م.

وخصص لتكملة بناء مستودعات الجمارك ١٠٠,٠٠٠ روبية و ٦٥٠

ألف روبية لبناء الرافعات والمعدات الثقيلة في الميناء [٥٠]. كما اقترح سمو الشيخ سلمان اصدار حكم برفع علم دولة البحرين على كافة السفن التى تدخل المياه الاقليمية البحرينية والقوارب واللنشات التى تستخدم ميناء البحرين [٥١]. وفي الثاني من يناير ١٩٥٨م افتتح سموه المنطقة الحرة للتجارة العابرة (الترانزيت) حيث تنقل السلع عبر البحرين الى الدول العربية والاوروبية واصبح بامكان التجار استخدام الميناء كمستودع لبضائعهم ثم تصديرها الى المناطق المجاورة وكان لهذا كبير الاثر في انخفاض تكاليف الشحن وخصص لتكملة بناء مستودعات الجمارك ١٠٠,٠٠٠ روبية و٦٥٠ الف روبية لبناء الرافعات والمعدات الثقيلة في الميناء والهدف من هذا الاجراء هو جعل البحرين المركز التجاري في الخليج العربي وضمان الرخاء الاقتصادي في المستقبل [٥٢].

وفي اكتوبر ١٩٥٥م صدر قانون تسجيل العلامات التجارية.

وارتفعت ايرادات البحرين تدريجا من ٣,٧١٧,٠٠٠ روبية في عام ٣٩/١٩٤٠م الى ٥,٦٣٤,٠٠٠ روبية في عام ٤٥/١٩٤٦م وجدير بالذكر ان فائدة الاحتياطي ومقدارها ٥,٣٦٥,٠٠٠ روبية لم تدرج في دخل عام ١٩٦١م اذ انها اضيفت الى الاحتياطي. اما الزيادة المشار اليها فتعود الى ارتفاع عائدات الجمارك [٥٣].

وفي عام ١٩٤١م فرضت الهند حظرا على استيراد اللؤلؤ الذي يرسله التجار لثقبه وتلميعه مما سبب قلقا لهم فالغت الحظر وفرضت رسوما على اللؤلؤ بنسبة ٢٠٪.

وكان الشيخ سلمان قلقا بسبب الحظر الذي فرضته حكومة الهند على تصدير اللؤلؤ الى الهند [٥٤].

وفي ١٩٤٧م تقرر ان تعود شئون الخليج الى وزارة الخارجية بلندن مباشرة اعتبارا من ابريل ١٩٤٨م وطلبت الهند انشاء قنصلية لها في البحرين فاعترضت بريطانيا ثم طلبت فتح وكالة بدلا من القنصلية فوافق حاكم البحرين في ١٩٥٠م ولكن قيدت بريطانيا تلك الموافقة فالغت الهند اقتراحها واكتفت بزيارة القائم بالسفارة الهندية ببغداد الى البحرين مرة أو مرتين في كل عام للاهتمام بمصالح الرعايا الهنود فقط.

وفي ١٩٤٨م أوفدت حكومة الهند (بعثة حسن النية) لمشاهدة أحوال العمال الهنود العاملين في النفط ووجدوا ظروفهم حسنة وزاروا شيخ البحرين فرحب بهم واكرمهم وقدم لهم الهدايا. وقامت دائرة (الزراعة) باجراء تجارب ناجحة لانتاج الخضراوات والفواكه واستوردت البذور والنباتات لزراعتها في مشتل الزراعة بغية توزيعها على الحقول الزراعية في البلاد التي يربو عددها على خمسمائة بعد ان كانت لا تتعدى المائتي حقل لسد حاجة البحرين من المواد الغذائية(٥٥).

وفي تقرير عن الأمن عام ١٩٥٥م قدم الكرنل هسلي مذكرة رفعها الى الحكومة تحتوى على خلاصة ارائه لاصلاح الأمن ويوصى اللجنة بالأخذ بها أما اللجنة فهي تتكون من الشيخ عبدالله بن عيسى ومبارك بن حمد وابراهيم بن محمد الخليفة وأحمد بن يوسف كانو وقد قدمت لبلجريف وفيها ان مكان السجن في قلعة جزيرة جده بحالة سيئة سواء من حيث السكن أو الطعام والشراب أو حتى المعاملة للمساجين ولابد من تعليمهم المهن المفيدة بأجور بسيطة تقدم لهم حين نهاية محكومياتهم وحتى مساكن الشرطة غير صحية ولابد من ايصال الماء الى قرب بيوتهم بمد الانابيب اليها وكذلك تعليم افراد الشرطة القراءة والكتابة ونوصى بارسال الضباط الى الخارج ليتعلموا في كليات البوليس القوانين الجنائية ولابد من زيادة عدد الشرطة خاصة من المواطنين تحت ادارة ضابط انجليزي يجيد العربية ونوصي بتعيين ضابط لخفر السواحل ونوصي بتغيير عمامة الشرطة الحمراء بغترة وعقال وان يكون السلام الوطني بالعربية وان يكون السير بالجانب الايمن للسيارات أسوة بدول الخليج وان ما يصرف على الأمن نصف ما يصرف على الصحة والتعليم لذا لابد من زيادة رواتب الشرطة والنواطير وزيادة عددهم وتحسين أحوالهم في السكن واللباس والطعام والشراب ونوصي ببناء مسجد في القلعة لعدم وجود مسجد ويوضع له واعظ ليعظ المسجونين وأماكن جديدة للحراسة الساحلية في قلالي ومن ريا والدير وحالة النعيم والجابور والزلاق وراس البر والجسرة وحالة أم البيض ونوصي أن تكون الجوازات تحت سلطة الشرطة. ونوصي ان تكون نقطة

بوليس في مدينة عوالي بقرب مسجد العمال تابعة لشرطة حكومة البحرين ونوصي ان يكون الرئيس الاعلى للأمن العام في قلعة الشرطة/حرر في ٣ ابريل ١٩٥٥م

وتم تعيين سمو الشيخ محمد بن سلمان رئيسا عاما للشرطة والأمن العام في اليوم الثالث من مايو ١٩٦٠م ويشغل سموه منصب رئيس لجنة ميناء سلمان ورئيس مجلس التربية والتعليم.

وصرف على بناء مراكز الشرطة وتوسيع بعض منشآتها ٥٠٠,٠٠٠ روبية(٥٦)

وفي تقرير اعدته وزارة الخارجية البريطانية لاطلاع رئيس وزراء بريطانيا قبل اجتماعه مع سمو الشيخ سلمان في شهر يونيو ١٩٥٣م جاء:

ان جزيرة البحرين دولة تحميها بريطانيا وتقع في الخليج وتتحمل بريطانيا مسئولية تسيير شئونها الخارجية وتتمتع بريطانيا بصلاحيات قانونية على المواطنين البريطانيين والاجانب الساكنين في البحرين مثل الأوروبيين والامريكان وآخرين ولم تقبل بريطانيا قط مطالب أو تدخل أي دولة اذ تعهدت في عام ١٩٥١م بصفة خاصة التزام حماية البحرين ضد أى تدخل أجنبي.

وتعتبر البحرين دولة رائدة في الخليج انها مقر لسرب من البحرية وفيها قاعدة القوات الجوية ومقر المقيم السياسي البريطاني وقد استفادت البحرين من مشورة بلجريف لمدة ٢٦سنة فتطورت ادارتها على اسلوب حديث حتى اصبحت دولة نموذجية في الخليج اذ يبلغ دخل البحرين واكثره من النفط بين ٢-٣ ملايين جنيه استرليني بواسطة شركة بابكو وهي شركة أمريكية ويبدى حاكم البحرين روح الصداقة نحو حكومة بريطانيا ويتعاون معها. لذا نقترح لرئيس الوزراء ان يرحب بحاكم البحرين كصديق قديم ومحترم ويؤكد له دعمنا وحمايتنا(٥٧).

وتوثقت العلاقات الودية مع الدول العربية والأجنبية وحافظ سموه على علاقات الصداقة الممتازة المتميزة مع المعتمدية البريطانية في البحرين.

ونال سمو الشيخ سلمان كثيرا من الأوسمة الرفيعة من حكومة الهند وبريطانيا والعراق ولبنان والدنمرك فقد قدم ملك الدانمرك لسموه (الوشاح الدانمركي) تقديرا وتكريما له ولعهده الزاهر. وطلب سموه من حكومة الدانمرك ان توفد بعثة اثرية

للتنقيب عن اثار البحرين وذلك للكشف عن تاريخها العريق[٥٨].

وقدمت لبنان الى سمو الشيخ سلمان وساما من أعظم أوسمتها وذلك في ديسمبر ١٩٥٧م وهنأه الاستاذ (صالح سليمان المانع) من قطر الشقيقة برسالة جاء فيها: انكم فخر العروبة وانكم فوق الاوسمة والرتب والنياشين الا ان مملوككم جريا على العادة يتشرف برفع التهنئة لعظمتكم والحقيقة هي:

فما أنتم ممن يهنأ بأوسم
ولكن بكم حقا تهنأ المناصب[٥٩]

وفاته:

انتقل الى رحمة ربه في الساعة التاسعة من صباح يوم الخميس الثاني من نوفمبر ١٩٦١م بقصره في (سافره) والذي اتخذه مسكنا له اثر مرضه وذلك قبيل وفاته بعامين وشيع جثمانه في نفس ذلك الصباح كما يقضي بذلك العرف والتقاليد. وكانت وفاته اثر نوبة قلبية حادة كما انتقل الى جوار ربه خلال نفس العام الشيخ خليفة بن محمد بن عيسى آل خليفة مدير الأمن العام والشرطة الذي توفى فجأة حال رجوعه من رحلة الى اليابان ولم تكن حالته الصحية على ما يرام خلال الفترة التى سبقت وفاته[٦٠] رحمه الله واسكنه فسيح جناته.

ولد المغفور له الشيخ سلمان في عام ١٨٩٤هـ ونودى به حاكما للبحرين اثر وفاة والده المغفور له الشيخ حمد عام ١٩٤٢م واحتفل بعيد جلوسه رسميا في ٦ ابريل ١٩٤٢م وقد حصل رحمه الله خلال عهده المكلل بالنجاح على تقدير وتكريم دول كثيرة فنال أوسمة التقدير العالية من حكومة الهند وبريطانيا والعراق ولبنان والدانمرك.

وعلى اثر وفاته نودى بابنه الأكبر صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة حاكما للبحرين باجماع الأسرة الخليفية وقد عين سموه وليا للعهد ١٩٥٨م وبعد انتهاء فترة الحداد التقليدية احتفلت البلاد رسميا يوم ١٦ ديسمبر ١٩٦١م بعيد جلوسه فعمت البلاد الأفراح واقيمت المهرجانات بشكل لم تعرفه البحرين في الماضي تيمنا بعهده السعيد المديد أمد الله في عمره ودام عزه[٦١].



بيروت في ٨ جمادى الاولى ١٣٧٧ هـ ٢/١٢/١٩٥٧م

الشيخ سلمان بن المرحوم حمد آل خليفة المحترم أعزه الله

الى حضرة فريد المعالي بهجة الأيام والليالي سيدي ومولاى صاحب العظمة

بعد السلام اللائق مقام عظمتكم عليكم جزيل الاجلال والاحترام.

مولاى :

بنشوة من السرور والفخار سمعت بأن الحكومة اللبنانية تشرفت بتقديم أعظم أوسمتها لعظمتكم وان كنت يا فخر العروبة فوق الأوسمة والرتب والنياشين. الا أن مملوككم جريا على العادة يتشرف برفع التهنئة لعظمتكم. والحقيقة هي:

فما أنتمُ ممـــن يهُنـــا باوســـم أمد الله في حياتكم وأبقاكم ممتعين بالعز والسعادة فبعظمتكم تعتز العروبة ويزدهر المجد والعز والشرف والسودد. هذى واتشرف برفع تحياتي للانجال الاشبال المشائخ وارجو الله يحفظكم.

مملوككم

صالح سليمان المانع

الهوامش :

١) التقرير السنوى لعام ١٣٨١هـ/١٩٦١م ص ٧٩/و Arnold Wilson,P. Gulf. p.22 وبهجت سنان، البحرين درة الخليج العربي، طبع بغداد، ص١٩٥ و١٩٦ وذكر أن وفاته في ٢٤ جمادى٢ ١٣٨١هـ الموافق ٤-٥ نوفمبر ١٩٦١م. وذكر سنان ان ولادته عام ١٨٩٥م/ص١٩٥ بينما جعلها (ولسن) في ١٣١٢هـ في ١٧ اكتوبر ١٨٩٤م ص٩٢ الموافق في ١٥ ربيع٢ ١٣١٢هـ.
وفي التقرير السنوى ص ٧٩ أن عيد جلوسه في ٦ أبريل ١٩٤٢ الموافق ربيع الآخر ١٣٦١هـ وفي قول أن عيد جلوسه في ٢٣ محرم ١٣٦١هـ الموافق في ٩ فبراير ١٩٤٢م.

٢) محمود بهجت سنان. البحرين درة الخليج العربي ص ١٩٥و
.A. Wilson, P. Gulf.p. 92.1959 Washington,

٣) سي ٢٣٨/١٩٤٢ من المقدم (هاى) المقيم السياسي في الخليج الى سكرتير الحكومة الهندية دائرة الخارجية بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٤٢م/وسي ٣٠٨ من (ويكفيلد) المعتمد السياسي بالبحرين الى المقيم في الخليج في ١٣ مارس ١٩٤٢م/الأسرة الحاكمة ص ٢٤٣ و٤٢٤.

٤) الأسرة الحاكمة ص ٤٢٣ و٤٢٤ وسي ٣٠٨ من (ويكفيلد) المعتمد السياسي في البحرين الى المقيم في الخليج بتاريخ ١٣ مارس ١٩٤٢م.

٥) أخبار الخليج في ٣٠/٩/١٩٩٣م.

٦) الأسرة الحاكمة سى ٢٣٨/١٩٤٢ من مكتب المقيم في الخليج الى الخارجية في دلهي ص ٤٢١-٤٣٢.

٧) الأسرة الحاكمة ص ٤١٥ من مكتب المقيم السياسي في الخليج (هاي) الى سكرتير حكومة الهند (دائرة الخارجية بدلهي سي/٢٣٨/١٩٤٢ في ٢٦ مارس ١٩٤٢م ص ٤٢١-٤٢٢.

٨) من المقيم السياسي في الخليج (هاي) سى/٣٦٩/في ١١ ابريل ١٩٤٢م وسي ٣٦٨/١٩٤٢ ص ٤٣٣-٤٣٤.

٩) النجمة الأسبوعية نوفمبر ١٩٦١م.

١٠) هنا البحرين العدد ١١٩ ص ٣١ ديسمبر ١٩٦١م.

١١) اف/او ٣٧١/٤٤٣.

١٢) اف/او/٣٧١/٧٤٩٣٦/ص ٩ ح.

١٣) سنان، البحرين درة الخليج ص ١٩٧.

١٤) اف/او ٣٧١/٩١٢٥٩/اى ١٠١٣/٥ في ٩ مارس ١٩٥١م تقرير من المقيمية في

البحرين/الفقرة/٢٥.

١٥) النجمة الأسبوعية ١٩٦١م/اف/او/٣٧١/٩٨٣٢٤/اى ٥/١٠١٣/٢٤ في ١٥ ابريل ١٩٥٤م. التقرير السنوى أكتوبر ١٩٥٠م واكتوبر ١٩٥٢م. ص ٤٠.

١٦) من المقيم السياسي (بـاروز) الى (المستر ايدن) سرى رقم ٤٢ في ٢٠/ابـريـل ١٩٥٤م. توضح ثلاث صفحات ونصف تصف الرحلة.

١٧) النجمة الأسبـوعية ١٩٦١. والتقريـر السنوى ١٩٦١ صورة تمثـل اللقاء بين جـلالة الملك عبدالعزيز وسمو الشيخ سلمان محفوظة في مركـز الوثـائق التاريخية.

١٨) اف/او ٣٧١/٤٤٣.

١٩) النجمة الأسبوعية ٣ نوفمبر ١٩٦١م.

٢٠) اف/او ٣٧١/١٢٠٥٤٧/اى ١٠١٦/٩٦ تلغراف ٥٧٨ في ٢١/٦/١٩٥٦م.

٢١) النجمة الأسبوعية ٣ نوفمبر ١٩٦١.

٢٢) التقرير السنوى نوفمبر ١٩٦١م.

٢٣) اف. او ٣٧١/٩٨٣٢٤/ايه اي ١٠١٣/٥

٢٤) النجمة الأسبوعية ٣ نوفمبر ١٩٦١م.

٢٥) النجمة الأسبـوعية ٣ نوفمبر ١٩٦١م/سنـان، البحرين درة الخليـج العربي ص ١٩٦.

٢٦) اف. او ٣٧١/٦٨٣٣١ مـن المقيميـة بـالبحريـن الى الخارجيـة بلنـدن ٤٨/١٣/٢٤٨ في ١٤ مـايـو ١٩٤٨م/اف.او ٣٧١/٧٤٩٣٦/٢٦ ص ٣٣ ح في ١٥/١/١٩٤٩م.

٢٧) اف. او ٣٧١/٧٤٩٣٦ ص ١٩ ح من المقيم بيلى الى (بـروز) في الخارجية بلندن في ٣١ يناير ١٩٤٩م.

٢٨) اف. او ٣٧١/٤٤٣.

٢٩) هنا البحرين ١١٩ ديسمبر ١٩٦١م ص ١٨ و١٩.

٣٠) هنا البحرين ١١٩ ص ١٠ ديسمبر ١٩٦١م.

٣١) النجمة الأسبوعية العدد ٢/ص ١٠ مايو ١٩٥٤م.

٣٢) النجمة الأسبوعية ٣ نوفمبر ١٩٦١م

٣٣) الوثيقة العدد ١٢/ص١٥٨-١٦٤، هنا البحرين ص٤٣.

٣٤) هنا البحريـن. العدد ١١٩ ديسمبر ١٩٦١م ص٦ و١٨ و٣٤ و٣٩ و٤٦ (صورة في المجلـة لأول بعثة بحـرينية الى الخارج ص٦ مـن المجلـة/وأخبار الخليـج ٣٠/٩/١٩٩٣م مهدى عبدالله. الأسرة الحاكمة ص ٤٤٤ في ٩ يناير ١٩٤٣.

٣٥) هنـا البحـرين. العـدد ١١٩ ديسمبر ١٩٦١م ص١٦ وانظـر اف او ٣٧١/٤٤٣ تاسيس اذاعة البحرين في يوليو ١٩٥٥م.

٣٦) النجمة الاسبوعية العدد ٢ ص٧ مايو ١٩٥٤م.

٣٧) أخبار الخليج ٣٠/٩/١٩٩٣م مهدى عبدالله والوثيقة ١٢/١٦٧ و١٦٨.
٣٨) هنا البحرين العدد ١١٩ ص٣٩ و٤٦.
٣٩) هنا البحرين٤٤/ والوثيقة ١٢/١٦٠.
٤٠) النجمة ٢/ص ١٤ مايو ١٩٥٤.
٤١) هنا البحرين/ ١١٩/ديسمبر ص١٨ و١٩ و٢٤/النجمة الاسبوعية ١٩٦١م.
٤٢) النجمة ٣ نوفمبر ١٩٦١/وهنا البحرين العدد ١١٩/ص١٨/ ديسمبر ١٩٦١م.
٤٣) هنا البحرين العدد ٤١.
٤٤) هنا البحرين ١١٩/ديسمبر ١٩٦١م.
٤٥) اف/او ٣٧١/٤٤٣.
٤٦) التقرير السنوى لعام ١٩٦١م. ص١ والنجمة الأسبوعية ٣ نوفمبر ١٩٦١م وهنا البحرين ص٣٩.
٤٧) هنا البحرين ١١٩ ديسمبر ١٩٦١م/ص٣١ و٤٦.
٤٨) العدد ١١/١٧٠٣/ من المستشار ٨ يناير ١٩٤١م.
٤٩) سنان ص ١٩٦ والنجمة الأسبوعية ٣ نوفمبر ١٩٦١م.
٥٠) هنا البحرين العدد ١١٩ ص١٨ و٢٩ و٣٩/ديسمبر ١٩٦١م.
٥١) اف. او ٣٧١/٧٤٩٣٦ ص ٣٢ ح في ١-١٥ فبراير ١٩٤٩م.
٥٢) اف/او ٣٧١/٤٤٣ والنجمة الأسبوعية نوفمبر ١٩٦١م.
٥٣) أخبار الخليج ٣٠/٩/٩٣ والتقرير السنوي لعام ١٣٨١هـ/١٩٦١م.
٥٤) ١٢ ب ر ١/اف/ او ٣٧١ ١٩٤٧م.
٥٥) هنا البحرين ١١٩/في ديسمبر ١٩٦١م.
٥٦) هنا البحرين العدد ١١٩ ص ٣٩ و٤٠.
٥٧) اف او ٣٧١/١٠٤٢٧٣/يونيو ١٩٥٣م.
٥٨) هنا البحرين العدد ١١٩ ديسمبر ١٩٦١م ص ١٤. وسنان/ص ١٩٦.
٥٩) رسالة مؤرخة في ٨ جمادى الأولى ١٣٧٧ هـ الموافق في ١ ديسمبر ١٩٥٧م.
٦٠) انظر النجمة الأسبوعية عدد خاص بتاريخ الثالث من نوفمبر ١٩٦١م سنان ١٩٧/والتقرير السنوى لعام ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص ٧٩.
٦١) التقرير الاداري لعام ١٩٦١م/ ص ٧٩.

البحرين

وتجارة الدولة العباسية

بقلم : أ.د. عطية القوصي

نشطت التجارة والملاحة في الخليج العربي منذ وقت موغل في القدم، وكان لعرب الخليج عامة، وعرب البحرين خاصة، نشاطهم التجاري والملاحي قبل ظهور الاسلام بقرون عديدة. فقد قام عرب البحرين، قبل الاسلام، بالابحار الى بلاد الهند والاتجار معها، وقد عرفوا سر الرياح الموسمية المسيرة لسفن المحيط الهندي[1]. وكانت سفنهم تنقل البضائع الغالية الثمن والخفيفة الحمل من الهند الى موانىء الخليج والجزيرة العربية، ومنها الى مكة على وجه الخصوص، عاصمة بلاد العرب التجارية والدينية وأهم أسواقها[2]. وكانت مكة تقوم بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب بحكم موقعها في ملتقى طريقين تجاريين عالميين قديمين، وهما طريق اليمن والشام، وطريق اليمن والعراق وفارس، وبحكم إنها نقطة بداية سير القوافل التجارية الى مختلف أرجاء الجزيرة العربية.

ولقد كان الخليج العربي والبحر الأحمر، منذ القدم، طريقي التجارة العالمية البحرية بين الشرق والغرب، وتناوب كل منهما السيادة على هذه التجارة. واذا كان فراعنة مصر، ومن بعدهم حكام البطالمة في مصر قد عملوا على ازدهار تجارة البحر الأحمر دون الخليج، فان الرومان، الذين ورثوا عن حكام البطالمة سياسةالاهتمام بتجارة الشرق الغنية، قد واصلوا سياستهم في ازدهار تجارة هذا البحر، وفي ذات الوقت اهتموا بالتجارة عبر الخليج وعملوا على ازدهار مركزها في البحرين وفي ميناء الأُبلة.

وفي القرن الثالث الميلادي، صار الخليج العربي صاحب السيادة الكاملة والسيطرة المطلقة على تجارة المرور بين الشرق والغرب العالمية، بسبب جهود الدولة الساسانية الفارسية، التى كانت لها السيطرة السياسية على معظم قارة آسيا آنذاك، في العمل على ازدهار تجارة الخليج بعد أن صارت تقوم بدور الوسيط التجاري بين بلاد الهند والصين وجنوب شرق آسيا وبلاد الغرب. وصارت بلاد البحرين المحطة الرئيسية لوصول تجارة الهند والصين ولرسو سفنهم فيها، ونقل التجارة منها الى سائر موانىء الخليج، التى كانت تنتقل بالتالى منها الى الجزيرة العربية والعالم الخارجي.

ولقد نبغ أهل البحرين في الملاحة ونقل التجارة والعمل فيها منذ القدم، وذلك بحكم موقعها المتميز في الخليج وكونها المحطة الأولى فيه للسفن التى تمخر عبابه قادمة من الهند والصين أو مقلعة اليهما.

وقد ذكر أهل الأخبار أن سكان البحرين قد نبغوا في هذا المجال منذ عهد الأقوام البائدة الذين سكنوا البحرين(٣)، ومن سكنها، بعدذلك، من العرب العدنانية المستعربة من بنى عبدالقيس ووائل(٤).

ولقد خضعت بلاد البحرين لحكم دولة الفرس الساسانيين، الذين دخلوا في صراع من أجل فرض السيادة على التجارة العالمية بين الشرق والغرب مع الروم والبيزنطيين. ومنحت الدولة الساسانية عرب البحرين حرية حماية شطآن بلادهم، وشجعت جهودهم في العمل على استمرار وصول سفن الهند والصين التجارية الى بلادهم، كذلك لم تتدخل في شئونهم الداخلية وسمحت لهم بتكوين الثروات من عائد التجارة والملاحة العالمية ومن العمل على تطهير مياههم من خطر قراصنة البيزنطيين والأحباش. وكانت بيزنطة، آنذاك، قد قامت بمقاومة احتكار الفرس لتجارة الهند عبر الخليج، واعتمدت في خرق هذا الاتفاق على حليفتها الحبشة، لكن محاولتها بصدد ذلك باءت بالفشل(٥).

وظلت الحرب سجالاً، ولمدة طويلة، بين حلف بيزنطة والحبشة من جهة وحلف فارس وعرب الخليج من جهة أخرى للسيطرة على تجارة الهند والصين، وحاول كل منهما أن يجعل كفة هذه التجارة تميل لصالحه، واستمر الحال على ذلك، دون حسم، حتى ظهور الاسلام وقيام دولته، ولما كانت هذه الدولة الاسلامية الوليدة قد

نجحت، في حركة فتوحها، في ضم كل دولة فارس إليها وضم كثير من مستعمرات الروم، فقد ضمت اليها بالتالي البحر الأحمر والخليج العربي وصارت لها السيادة عليهما بمفردها وبالتالى صار لها التحكم المطلق في طريق التجارة العالمي بين الشرق والغرب. ولقد شجعت الدولة الاسلامية التجارة العالمية واعتبرتها مصدراً هاماً من مصادر دخلها. وعملت قدر جهدها، على الارتقاء بها والمحافظة عليها وتأمين طريقها، وتقديم التسهيلات للسفن وللتجار في كل موانيها. فازدهرت التجارة الاسلامية في الخليج والبحر الأحمر، واستقبلت موانيهما ومراكزهما التجارية البحرية بضائع الصين والهند وحاصلات تجارة الشرق الغالية الثمن والمرتفعة القيمة من توابل وعطور وبخور وجلود وحرير وأحجار كريمة ومشغولات ذهبية وفضية وعقاقير طبية ومنسوجات فاخرة.

ومخرت آنذاك، سفن المسلمين عباب مياه المحيط الهندي الذي دانت شطآنه لسيطرتهم بعد أن فتحوا أقليم السند، في شمال الهند، مع مطلع القرن الثاني الهجري، وكانت بلاد البحرين أهم مراكز أسطولهم التجارى والحربي للوصول الى مياه هذا المحيط.

ولقد عرفت الدولة الاسلامية، منذ قيامها، أهمية بلاد البحرين الاستراتيجية والاقتصادية، ولذلك حرصت منذ بدء الدعوة الاسلامية، على ضمها اليها ونشر الاسلام بين أهلها، والاستفادة من مهارة أهلها وشجاعتهم في الفتوح والحملات البحرية، على وجه الخصوص، لتوصيل رسالة الاسلام الى أقصى نطاق القارة الآسيوية.

وقد بعث رسول الله ﷺ، قبل فتح مكة سنة ٨ هـ، برسول وكتاب من عنده الى حكام البحرين ضمن من راسلهم رسول الله عليه السلام يدعوهم الى الاسلام(٦). فبعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى العبدى، أخى بنى عبدالقيس وملك البحرين(٧)، والى سيبخت الفارسي مهرزبان هجر يدعوهما الى الاسلام أو دفع الجزية. فأسلم المنذر وحسن اسلامه(٨). وذكرت المصادر أن بني عبدالقيس ابن افصى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار كانوا آنذاك على النصرانية وان غيرهم كان من المجوسية (الزرادشتية)، فقدم بشر بن عمرو سنة تسع للهجرة على رأس وفد من بنى عبدالقيس على الرسول ﷺ وأعلنوا دخولهم في الاسلام(٩).

وحُسن اسلام أهل البحرين وأرسل لهم رسول الله من يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وشارك بعض رجالهم في غزوات الرسول وسراياه وضربوا المثل في الشجاعة والاقدام. وجعل رسول الله العلاء بن الحضرمي أميراً له على البحرين، وقد صالح العلاء سكان البحرين من المجوس واليهود والنصاري، الذين ظلوا عل دينهم ولم يعتنقوا الاسلام، وكتب لهم كتاباً بعد أن تعهدوا بدفع الجزية. وقد قال سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر كما اخذها من النصارى واليهود.

وقد بعث العلاء بن الحضرمي الى رسول الله مالا من البحرين قدره حوالي ثمانين ألف دينار، ما أتاه أكثر منه قبله ولا بعده، وقد أعطى منه عمه العباس[١٠].

ولما حدثت حركة الردة في عهد خلافة الصديق أبى بكر، ارتد فريق من أهل البحرين عن الاسلام، لكنهم لم ينضموا الى واحد ممن ادعوا النبوة، وذلك بعد وفاة مليكهم المنذر بن ساوى. فقام الجارود بن المعلى العبدى ونصحهم حتى ثابوا الى الاسلام، وقد ورد ان الجارود، حين ارتد أهل البحرين عن الاسلام، قام في قومه فقال لهم: «ألستم تعلمون ما كنت عليه من النصرانية وانى لم أتكم قط الا بخير، وان الله تعالى بعث نبيه ونعى له نفسه فقال: (إنك ميت وانهم ميتون)، وقال: ﴿وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾. وفي رواية أخرى انه قال لهم: (ما شهادتكم على موسى؟) قالوا: (نشهد انه رسول الله)، فقال: (ما شهادتكم على عيسى؟) قالوا: (نشهد انه رسول الله) قال: (وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله عاش كما عاشوا ومات كما ماتوا وأتحمل شهادة من أبي أن يشهد على ذلك منكم)، فلم يرتد من عبدالقيس أحد. ويذكر الطبرى[١١]، أن رجلاً يدعى الحطم بن ضبيعة استمر في ردته وتبعه جماعة من بنى بكر بن وائل، أحاطوا بالمسلمين وحاصروهم حتى بعث اليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمي فحارب الحطم ومن معه ولم يستطع أن يقهره حتى بدت له فرصة فانتهزها. وكان المرتدون قد حاصروا المسلمين في حصن يقال له (جواثا) بالبحرين، وأصاب المسلمين جهد شديد من الجوع حتى كادوا أن يهلكوا فخرج عبدالله بن حذافة ليلة من الليالي ليتجسس أخبار العدو فوجدهم سكارى فأخبر المسلمين بذلك فبيَّتهم العلاء ومن معه من

المسلمين فقتل من قتل وأصبح ما أفاء الله على المسلمين من خيولهم عند العلاء في جواثا. ثم سار العلاء الى المدينة (هجر) فقاتلهم قتالا شديدا وهزمهم حتى لحقوا باب المدينة فتحصنوا بها فضيق العلاء عليهم حتى طلبوا الصلح فصالحوهم على ثلث ما بالمدينة من مال في أيديهم وما كان من شيء خارج عنها فهو له. فبعث العلاء بمال كثير الى المدينة. فلما ظهر العلاء على أهل الردة من أهل البحرين بعث أربعة عشر رجلا من رؤساء عبدالقيس وفدا الى أبي بكر يعلنون ولاءهم وطاعتهم وانتقاضهم لردتهم وتعهدهم بالامتثال هم وبلادهم لطاعة الدولة فقبل منهم الخليفة ذلك(١٢).

وبعد أن أخمد أبو بكر حركة الردة قسّم الدولة الى عدة ولايات كانت البحرين احداها، وهي ولايات: مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضر موت وخولان وزبيد والجند ونجران وجرش والبحرين(١٣)، وكان رسول الله ﷺ قد عزل، قبل وفاته، العلاء عن البحرين، وجعل ولايتها لأبان بن سعيد بن العاص بن أمية، ولما توفى رسول الله أخرج أبان من البحرين فأتى المدينة، فسأل أهل البحرين أبا بكر، وقد صار خليفة، أن يرد العلاء عليهم، فرده فلم يزل والياً عليهم حتى وفاته سنة ٢٠هـ.

ولما اتسعت الدولة في عهد خلافة عمر بن الخطاب، قام عمر بتقسيمها الى أقسام ادارية كبرى ليسهل عليه حكمها والاشراف على موارد ثروتها والسيطرة على ارجائها، وذلك بضم الولايات الصغرى بعضها الى بعض في ولايات كبرى، فجعل ضمن هذه الولايات الكبرى ولاية ضمت الاهواز والبحرين في ولاية واحدة عرفت بهذا الاسم، وعينَّ عمر ولاة على هذه الولايات الكبرى وجعل سلطتهم مستمدة من سلطته، وقد عرفوا بالعمال، وجعل الى جوارهم عمالا للخراج. ويقول البلاذري: أن عمراً بن الخطاب ولي على البحرين والأهواز الصحابي الجليل أبا هريرة الدوسي، ولاة الصلاة والأحداث، وولى قدامة بن مظعون الجمحي جباية البحرين، ثم عزل قدامة وولى أبا هريرة الجباية مع الأحداث(١٤)، ثم عزله وولى سنة ١٥هـ عامله عثمان بن أبي العاص الثقفي، فوجه عثمان أخاه الحكم بن أبي العاص، نيابة عنه، الى البحرين، ومضى هو الى عُمان(١٥). وظل الحكم واليا على البحرين في عهد عمر حتى وفاته، وقد استبدل الخليفة عثمان بن عفان مكانه عبدالله بن قيس الفزاري

وجعله واليا عليها.

وفي عهد الدولة الأموية قسمت الدولة الاسلامية الى خمس ولايات كبرى، كانت احداها ولاية البحرين مضافا اليها عمان وكرمان وسجستان، وكان يشرف على هذه الولاية عامل البصرة من قبل والى العراق. وفي خلافة معاوية بن أبى سفيان صار زياد بن أبى سفيان من رجال معاوية واحد سواعده، فولاه البصرة وخراسان وسجستان، وأضاف اليه البحرين وعمان والهند(١٦). وفي العهد العباسي الأول ظل هذا التقسيم الاداري على ما هو عليه دون تغيير الا في منطقة الثغور.

ولقد اهتم حكام الدولة الاسلامية في صدر الاسلام ببلاد البحرين لكونها أكبر محطات الخليج البحرية وأهميتها في الفتوح البحرية. وقد كان العرب، في أول أمرهم، لا يعنون بالبحر والحروب البحرية لبداوتهم وعدم تعودهم ركوب البحر وممارسة أحواله، ولكنهم عرفوا أهمية البحر وتغيرت سياستهم تجاهه حين توجهوا للفتح منذ عهد خلافة عمر.

وكان العلاء بن الحضرمي، والى البحرين في عهد عمر، أول من ركب البحر وغزا فيه، فقد توجه لغزو بلاد فارس في اثنى عشر ألفاً من المسلمين من أهل البحرين بحراً، ونجحت حملته وعاد الى البصرة محملا بالغنائم(١٧)، وبعد هذه الحملة صارت بلاد البحرين قاعدة الانطلاق للفتح البحرى لبلاد فارس وبلاد الهند والصين. وبسبب حاجة الدولة الى صناعة السفن لاعداد الاسطول الاسلامي الحربي والتجاري، اتخذت الدولة الاسلامية، منذ العهد الأموى، قرية عدولى بالبحرين لتصنيع سفن كبيرة عرفت في الجزيرة العربية باسم «العدولية» نسبة الى هذه القرية(١٨).

ولقد كان اتخاذ العباسيين العراق مركزاً لخلافتهم وبغداد عاصمة لدولتهم الواسعة، الأثر الكبير في ازدهار تجارة الخليج في عصر حكمهم الأول، وازدياد أهمية بلاد البحرين كقاعدة بحرية وتجارية لهذه الدولة ولتجارتها الواسعة وللعائد المادى الكبير الذي عاد عليها من وراء هذه التجارة. وقد أشادت المصادر العربية التاريخية والجغرافية جميعها وكتب الرحالة المسلمين بهذا الازدهار الملاحي والرواج التجارى في الخليج خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين. كما تحدثت عن أنواع السلع الفاخرة المختلفة التى كانت تفرغ حمولتها في البحرين وسائر موانىء الخليج والتى كانت مصدر ثراء التجار ويسر حالهم واكتمال

ترفههم وسبب انتعاش اقتصاد العالم الاسلامي جميعه في ذلك الوقت. وقد كانت بعض المدن الاسلامية تعرض، مع هذه التجارة العالمية ما تنتجه من سلع وما تشتهر به من صناعات وحاصلات ومواد خام. كذلك كانت هذه البضائع تعرض في الأسواق الموسمية التي اشتهرت بها البلاد العربية. من هذه الأسواق: سوق دومة الجندل، على حدود الشام، والذي كان ينعقد أوائل شهر ربيع الأول من كل عام ويستمر انعقاده حتى نهاية الشهر. وقد كان رواد سوق دومة الجندل ينتقلون منه، بعد انفضاضه، الى سوق هجر بالبحرين، الذي كان ينعقد بمدينة هجر طوال ربيع الآخر كل عام، ومنه ينتقلون الى سوق بالبحرين يعرف بسوق المشقر[١٩]، ويبدأ انعقاد هذا السوق الموسمي بالبحرين في أواخر شهر ربيع الآخر وحتى أوائل شهر جمادى الأولى. وقد اشتهر هذا السوق بعرض سلع الشرق الغنية خاصة تلك المجلوبة من بلاد فارس. وقد كان اهل البحرين يعرضون في هذه الأسواق ما اشتهرت به بلادهم من أجود أنواع اللؤلؤ، وما اشتهرت به مدينة هجر من أجود أنواع التمور[٢٠]. ولقد عادت التجارة بالثروة والجاه على أهل البحرين، فظهر ذلك عليهم، وانعكست آثاره الطيبة على المجتمع البحريني اجتماعيا وثقافيا. ولقد كان تجار البحرين من العلماء، ولقد اشتهر من بينهم عدد من هؤلاء العلماء الذين تفقهوا في الدين واللغة والأدب والتشريع منذ القرن الهجرى الأول. وقد ذكر ياقوت الحموى[٢١] انه يُنسب الى البحرين قوم من أهل العلم منهم: محمد بن معمر البحراني، حدث عنه البخاري، والعباس بن يزيد بن حبيب، ويعرف بعباسويه، حدث عن خالد بن الحارث وابن عيينه، ويزيد بن زريع، روى عنه الباغندى وابن صاعد وابن مخلد، وهو من الثقاة توفى سنة ٤٥٨ هـ، وزكريا بن عطية ، وغيرهم.

ولقد أشارت المصادر أيضا الى الدور الهام الذي وقع على عاتق أهل البحرين لحماية تجارة الدولة العباسية عبر الخليج، وهو دور مقاومة القرصنة البحرية التى انتشرت في البحار آنذاك. وقد قامت بالقرصنة جماعات أشارت اليهم المصادر الاسلامية باسم «متجرمة البحر». الذين قاموا بتهديد حرية المسافرين والتجار والاستيلاء على بضائعهم وأموالهم واغراق سفنهم والاعتداء عليهم بالضرب والتعذيب والقتل واسترقاقهم وبيعهم في أسواق

النخاسة واشاعة الرعب والفوضى في كل مياه الخليج. وقد عرفت أهم جماعات القراصنة في الخليج في العصر العباسي الأول بجماعات الميذ أو الميد، الذين ازداد تجرمهم واتسع عدوانهم في الفترة ما بين سنوات ١٤٠ و ١٥٣هـ، أيام خلافة الخليفة العباسي الثاني أبى جعفر المنصور. وقد شملت ضربات الميذ وهجماتهم موانىء الخليج كله وجاوزته الى ميناء البصرة، وعطلت الملاحة في الخليج وحدت من حركة الاتجار في موانيه. وقد أصبح على أهل موانى الخليج وأهل البحرين، على وجه الخصوص، دور أساسي في مقاومة هذا الخطر المدمر، وبخاصة بعد أن اثبت الاسطول العباسي عجزه عن التصدى له وظهر ضعفه وقلة استعداده وعدم مقدرته على التصدى لهؤلاء المتجرمة.

ولقد تحدثت المصادر الاسلامية عن هذا الخطر وعن ازدياد حجمه في مياه الخليج، وعن المساهمات التى قدمها أهل الخليج لدفع هذا الخطر حماية لمصالحهم الخاصة ومصالح الدولة العامة في وقت واحد.

وقد وردت الاخبار عن ذلك على لسان البلاذرى (ت ٢٧٩هـ)، وابن خرداذبة (ت ٣٠٠ هـ) والمسعودي (ت ٣٤٦ هـ). لكن أكثر ما ورد عنه نجده واردا على لسان المؤرخ البصرى المعاصر للعصر العباسي الأول، وهو خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ).

يقول البلاذري: (الميذ الذين يقطعون البحر، ويبدو انهم اشتهروا بذلك واتخذوه عملا دائما خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين حتى أضحت مغزى أهل البصرة وموضع عدائها وهجومها الدائم [٢٢] ويقول ابن خرداذبة ان الميد هؤلاء لصوص، يسرقون ما على سفن الخليج من تجارة ومتاع [٢٣]. ويقول المسعودي عنهم انهم (جنس من السند، وهم خلق عظيم ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها [٢٤]، أما خليفة بن خياط فانه يورد تفاصيل هجماتهم المتكررة على موانىء الخليج والبصرة سنوات ١٤١هـ، و ١٤٨هـ، و١٥١هـ، و١٥٣هـ [٢٥] وقد بلغ اكثر توغل للميذ في أرض الخلافة العباسية سنة ١٥٣هـ حين توغلوا في نهر دجلة وكادوا يصلون الى العاصمة بغداد.

ويبدو من انقطاع أخبار هؤلاء المتجرمة بعد سنة ١٥٣هـ مدى اهتمام الخلفاء العباسيين بالقضاء على هذا الخطر، وبذلهم الجهد الضخم لتنقية الخليج من سفن هؤلاء القراصنة، بداية من أبى جعفر

المنصور حتى الخليفة الواثق بالله[٢٦] واجبارهم على ترك الخليج ومطاردتهم في عقر ديارهم[٢٧].

وما كادت مياه الخليج تتطهر من متجرمة البحر، وما كادت التجارة العالمية تتنفس الصعداء وتعود الى الخليج وتعاود نشاطها الأول وتعود ثغوره ومراكزه الى ازدهارها، حتى تصاب هذه التجارة بخطر أشد وأنكى استهدف القضاء نهائيا على هذه التجارة في الخليج وفي كل موانىء الدولة العباسية.

وقد تمثل هذا الخطر في قيام ثورة الزنج في جنوب العراق، وقيام دولة القرامطة في البحرين. ولقد اتحدت أهداف هاتين الحركتين وجرى التنظيم بينهما في وقت واحد، وخططتا لاحتلال مراكز تجارة العباسيين العالمية واقامة حكم فيهما خارج عن حكمهم لحرمان الدولة العباسية من مصدر ثروتها الرئيسي، وهو التجارة الخارجية، ومساعدة العدو الرئيسي للعباسيين وهم الشيعة الاسماعيلية العلويين في القضاء على الخلافة العباسية وجعل الخلافة الاسلامية لهم دون بنى العباس.

وثورة الزنج، هي حركة تمرد عمت جنوب العراق والخليج قام بها رجل من رجال الشيعة يدعى على بن محمد بن أحمد، من بلدة الطالعان. ادعى أنه من آل بيت الرسول وان نسبه يرجع الى الامام الحسين بن على. وقد سميت هذه الحركة بهذا الاسم لأن مدبرها جمع اليه الزنوج السودان الذين كانوا قد جلبوا الى العراق من شرق افريقيا ضمن تجارة الرقيق، وكانوا يعيشون عيشة بائسة في منطقة البصرة اذ كان عملهم الرئيسي هو كسح السباخ والملح عن الأرض الزراعية سخرة، وقادهم الى الثورة ضد دولة الخلافة لتحسين أوضاعهم الاجتماعية ورفع المعاناة عنهم[٢٨].

وبدأت أحداث هذه الثورة سنة ٢٥٥هـ، في عهد الخليفة المهتدى العباسي وانتهت سنة ٢٧٠هـ، في عهد الخليفة المعتمد على الله العباسى، أى انها استمرت قرابة الخمس عشرة سنة، عانت فيها البلاد الكثير من الحروب والخراب والدمار، وتوقفت التجارة وهجرت الموانىء وأقفرت الاسواق، وعاث الزنوج فساداً في غالبية بلاد العراق والبحرين وهجر بعد أن امتد خطر الثورة الى المنطقة ما بين البحرين والبصرة وواسط، واستولى الزنج خلال هذه الثورة على معظم مدن جنوب العراق وموانىء الخليج. وبنى صاحب الزنج له عاصمة سماها «المختارة». وقد ظلت

الحرب سجالاً بين الزنج وقوات الخليفة المعتمد التى كان يقودها أخوه الموفق طلحة، الى أن انتهت سنة ٢٧٠ هـ بهزيمة الزنج وابادتهم وقتل رئيسهم وهدم عاصمتهم (٢٩) وبمقتل صاحب الزنج انتهت هذه الثورة التى عطلت الحياة في العراق ومدن الخليج وسببت الخراب والدمار في البلاد وقلبت موازين الحياة الاجتماعية والاقتصادية رأسا على عقب في الدولة العباسية (٣٠).

وما كات الخلافة العباسية تلتقط أنفاسها وتستعيد توازنها الاجتماعي والاقتصادي بعد القضاء على ثورة الزنج، وتشرع سفنها التجارية في الابحار في مياه الخليج والمحيط الهندي، الا وتعرضت الدولة عامة وبلاد البحرين خاصة لخطر أشد وأقوى من خطر الزنج، وهو خطر القرامطة الشيعة الاسماعيلية. ولقد عُنيت واختصت البحرين بالذات لهذا الخطر لكونها المركز الذي اختاره هؤلاء الثوار القرامطة لاتخاذه قاعدة لهم يقيمون فيه دولة لهم ينطلقون منها لمحاربة العباسيين اقتصاديا، ويحققون من وراء ذلك أهدافا سياسية تخدم سادتهم العلويين أعداء العباسيين في صراعهم معهم (٣١).

ومن المفيد هنا ابراز مدى الترابط بين الحركتين: حركة الزنج وحركة القرامطة، وابراز أن المحرك فيهما واحد والهدف لكل منهما واحد، وهو العمل لصالح الشيعة الاسماعيلية العلويين. ورغم أن أحداث ثورة الزنج انتهت سنة ٢٧٠هـ بالقضاء على صاحبها وتدمير عاصمته في ذلك العام وأن أحداث حركة القرامطة بدأت سنة ٢٨٨هـ الا أن الاتصال بين الحركتين كان قائما، وان القراطمة قبل ان يبدأوا في التحرك والعمل كانوا على اتصال بصاحب الزنج. وان صاحب حركة القرامطة حاول أن يتفق مع صاحب ثورة الزنج على توحيد ثورتيهما في ثورة واحدة وتنسيق العمل بينهما، قبل ان يجاهر بثورته، الا أن صاحب الزنج لم يرض بشروط صاحبه وطمع في أن يكون الوارث الوحيد للدولة العباسية بعد أمله في القضاء عليها (٣٢). وذكر ابن الأثير(٣٣) ان قرمط صار الى سواد الكوفة قبل قتل صاحب الزنج، فسار قرمط اليه، وقال له: (انى على مذهب ورأى ومعى مائة ألف ضارب سيف فناظرنى، فان اتفقنا على المذهب ملت اليك بمن معى وان تكون الأخرى انصرفت عنك)، فتناظرا، فاختلفت آراؤهما، فانصرف قرمط عنه.

ولنا ان نتصور حال الدولة العباسية لو نجح قواد الحركتين في

الاتحاد ضدها، بالقطع كانت النتائج ستكون أسوأ بالنسبة لدولة الخلافة ويكون الخطر أشد. وكان من الممكن في حالة الاتفاق، لصاحب حركة القرامطة أن يسارع باعلان ثورته عام ٢٨٨هـ واقتطاع بلاد البحرين عن جسم دولة الخلافة واقامة دولته فيها، لكن عدم الاتفاق أخر اعلان ثورة القرامطة الى الوقت الذي عادت فيه دولة الخلافة الى الضعف بعد فترة الانتعاش التى كانت قد عاشتها في عهد الخليفتين المعتمد والمعتضد. وكانت دولة الخلافة قد اشتد ساعدها وتقوت واستطاعت أن تتحلل من نفوذ القواد الاتراك عليها في عهد هذين الخليفتين القويين. لكن بموت الخليفة المعتضد وتولى الخليفة المكتفى بالله الضعيف أمر الخلافة (٢٨٩-٢٩٥هـ) ثم الخليفة المقتدر الأضعف من بعده (٢٩٥-٣٢٠هـ) عادت دولة الخلافة الى ضعفها وعاد استبداد قواد الاتراك بالحكم في الدولة، مما اعطي الفرصة للقرامطة لاعلان ثورتهم من البحرين واقامة دولة لهم هناك استمرت في قوتها ومناوأتها لدولة الخلافة حتى نهاية القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى، أى قرابة قرنين من الزمان. ومن الغريب أن نفس هذا القدر من السنين الذي عاشته دولة الشيعة العلوية الاسماعيلية في البحرين عاشت دولة الشيعة العلوية الاسماعيلية التى قامت في المغرب وقدر لها ان تحكم مصر والشام باسم الدولة الفاطمية.

والقرامطة شيعة على المذهب الاسماعيلي الشيعي، المنشق عن المذهب الشيعي الامامي الاثنا عشري. وقد عرف أصحاب هذه الحركة بذلك الاسم بسبب انتسابهم الى كبير دعاتهم في جنوب العراق: حمدان بن الأشعث، الذي كان يلقب بقرمط. ولقد اتخذت هذه الحركة سبيل الدعوة الى امامة اسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة للوصول الى الحكم ومحاربة الخلافة العباسية.

ولقد بدأت ثورة القرامطة ضد الدولة العباسية من بلدة واسط بالعراق وضمت اليها عامة الناس هناك وفلول منهزمى ثورة الزنج، وكان خروجهم في عهد الخليفة المعتضد بالله في السنوات الاخيرة من حكمه، ونجح القرامطة في الاستيلاء على بلاد البحرين واقتطاعها عن جسد دولة الخلافة واتخاذها لمكانها الاستراتيجي الحيوى، قاعدة لحكمهم، وكان ابو سعيد ابن بهرام الجنابي اكبر قواد القرامطة يعمل في السر في البحرين على نشر مذهب الشيعة الاسماعيلية هناك منذ عام

٢٨٦هـ.

وقد وجدت تعاليمه صدى لها عند العامة والفقراء من الاعراب[٣٤]. وبفضل القوة التى كونها ابو سعيد من أتباع دعوته نجح في الاستيلاء على هجر، عاصمة البحرين بعد محاصرتها لمدة عامين[٣٥]، كما نجح في سنة ٢٨٧هـ في الاستيلاء على مدينة الحسا (الاحساء) واتخاذها عاصمة للدولة الجديدة[٣٦].

ولم تقف الدولة العباسية، في أول الامر، عاجزة أمام خطر القرامطة، بل تحرك الخليفة المعتضد في آخر سنى حياته، سنة ٢٨٩هـ، وأرسل جيشا الى البحرين لمحاربة أبى سعيد الجنابى واستخلاص البحرين من قبضته، بقيادة قائده العباس بن عمرو الغنوى، بعد أن ولاه اليمامة والبحرين، وضم اليه زهاء ألفى رجل واجتمع اليه كثير من المتطوعة والجند والخدم. الا أن هذ الجيش لقى هزيمة ثقيلة، ووقع قائده في أسر القرامطة، الا أن الجنابي قام باطلاق سراحه بعد أن حمله رسالة أراد تبليغها الى الخليفة[٣٧]. وواصل المعتضد سياسته لاستعادة البحرين من يد القرامطة، وظل مصراً على ذلك حتى وفاته. وقد بلغ من رغبته في القضاء على أبي سعيد انه كان يذكره خلال مرض موته ويقول: (حسرة في نفسي، كنت أحب أن ادركها قبل موتى. والله لقد كنت وضعت عند نفسي أن اركب ثم اخرج نحو البحرين ثم لا ألقى أحدا اطول من سيفى الا ضربت عنقه)[٣٨].

وقد تثبتت اقدام أبي سعيد في حكم البحرين بعد هذا النصر، ونجح في اقامة حكومة ملكية وراثية في بيته تعمل على نشر المذهب الشيعى الاسماعيلي في البحرين وما حولها، مثلما فعل الاسماعيلية الفاطميون حين اقاموا حكومتهم في مصر والشام عند منتصف القرن الرابع الهجرى. وقد عملت كلتا الحكومتين على مناوأة الخلافة العباسية ورغبت في القضاء عليها وانتزاع السيادة الدينية على العالم الاسلامي منها. وقد جمع القرامطة والفاطميين وحدة المذهب الشيعي والانتماء الى طائفة الاسماعيلية العلوية، ولذلك توطدت العلائق الطيبة بين قرامطة البحرين والفاطميين في بلاد المغرب، قبل ان ينتقلوا الى مصر، وعمل كل من جانبه على اضعاف الدولة العباسية وتسديد الضربات لها وزيادة التقارب بينهما. ولقد كان الفاطميون في المغرب يعتبرون قرامطة البحرين أتباعا لهم وعمالا لهم يعملون على نشر مذهبهم ويستمدون شرعية الحكم منهم. ولذلك ارسل عبيد الله المهدى الى أبى

طاهر سليمان، الذي تولى رياسة دولة القرامطة بعد وفاة والده أبى سعيد الجنابي [٢٩] (٣٠٢-٣٣٢هـ)، كتابا بتوليته حكم ما تحت يده. وكان أبو سعيد، قبل قتله، قد استولى على هجر والاحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين[٤٠].

ومما لا شك فيه ان قيام دولة القرامطة في البحرين كان قد أثار في وجه الخلافة العباسية المشاكل والمتاعب الكثيرة، ففضلا عما كانت تعانيه هذه الدولة آنذاك من اضطرابات داخلية بسبب ازدياد نفوذ الاتراك والصراع بينهم على الحكم واستبداد حكام بنى بويه بالسلطة في بغداد. حاولت الدولة العباسية يائسة اقتلاع حكم القرامطة من البحرين ووقف هجماتهم على اراضيها دون جدوى، الامر الذي أدى الى ازدياد اسهم الفاطميين في بلاد المغرب مما أغراهم بفتح مصر وسهل لهم هذا الأمر وأظهر ضعف دفاعات الدولة العباسية في القلب والأطراف. وقد اتفقت غارات قرامطة البحرين على اراضى الدولة العباسية بالمشرق مع نفس توقيت الحملات التى وجهها عبيد الله المهدى الى مصر، والتى انتهت باستيلاء جوهر الصقلي، قائد المعز لدين الله الفاطمي على مصر واقامة الدولة الفاطمية على أرضها، وضم الشام اليهم مع المغرب، وقد كانت كل هذه البلاد تدين بالتبعية والخضوع للدولة العباسية[٤١].

ولقد سعى أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنابي في سياسته الى توسيع سلطانه خارج بلاد البحرين وبسط سيادته على كل جزيرة العرب واقتطاعها من الدولة العباسية، وزيادة على ذلك، امتدت أطماعه الى اسقاط دولة الخلافة نفسها والاستيلاء على بغداد عاصمة خلافة العباسيين[٤٢]. وقد رمى أبو طاهر، بسياسته هذه الى هدفين، أولهما: اشغال الدولة العباسية بهذا الخطر الجديد القادم من البحرين، وتوجيه كل همها لمواجهته وصرف نظرها عن محاولة الشيعة الاسماعيلية الجادة في اقامة دولة شيعية لهم بالمغرب. والثانية: هي اضعاف الدولة العباسية وانهاكها اقتصاديا، وبالتالي عسكريا، مما يتيح له الفرصة لغزوها في عقر دارها واسقاط عاصمتها بغداد في يد قادته.

وقد قضى أبو طاهر السنوات الاولى من حكمه في البحرين في تنظيم شئون دولته ومحاولة التودد لأهل البلاد واقناعهم باعتناق مذهبه، واعلان تبعيته لعبيد الله المهدى[٤٣]،

ثم عمل على تقوية جيشه واعداده اعدادا طيبا وقيادته والتوجه به لفتح بلاد العراق واستهداف بغداد بالذات. فزحف أبو طاهر بجيشه سنة ٣١١هـ واستولى على البصرة والكوفة، فهرب أهلهما الى بغداد، وغنم أبو طاهر مغانم كثيرة عاد بها الى هجر[٤٤]. وقد أورد ابن الأثير أن أبا طاهر أقام سبعة عشر يوما يحمل من البصرة ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان[٤٥]. ولقد أشاد أبو طاهر بانتصاره هذا في قصيدة شعرية له أورد أبو المحاسن صاحب النجوم الزاهرة، أبياتا منها[٤٦].

وفي سنة ٣١٦هـ تقدم أبو طاهر بقواته من البحرين الى بغداد، وكادت بغداد تسقط في يده لولا دهاء مؤنس الخادم، قائد الخليفة العباسي المقتدر بالله، الذي بعث بزواريق ملأى بفاكهة مسمومة فلما أكل منها جند القرامطة تسمموا ومات منهم عدد كبير من جراء ذلك، فأثر ذلك في جيش أبي طاهر المهاجم، مما اضطره الى الارتداد عن بغداد عائدا الى البحرين بمن تبقى من رجاله[٤٧]. لكن هذه الهزيمة لم تمنع أبا طاهر من معاودة الهجوم على أملاك الدولة العباسية، ففي سنة ٣١٧هـ هاجم الحجاز واستولى على مكة،، واقام الخطبة والدعاء فيها لعبيدالله المهدي بدلا من الخليفة العباسي المقتدر. وعاد الى الاحساء بعد ان اصطحب معه الحجر الأسود بعد ان اقتلعه من مكانه على الكعبة واقامه عنده وجعله مزارا للناس هناك. وقد دام الحجر الاسود هناك مدة اثنين وعشرين سنة[٤٨]، الى أن رد الى مكانه بالكعبة، بعد موت أبي طاهر في خلافة المطيع لله العباسي سنة ٣٣٩هـ[٤٩].

ولقد ازداد خطر القرامطة على الدولة العباسية بعد ضمهم الحجاز الى تبعيتهم، وتحكمهم في الحج وفرضهم أتاوة على الحجاج يؤدونها لهم مقابل حمايتهم والحفاظ على أرواحهم. وبذلك جرد القرامطة دولة الخلافة العباسية من أهم واجباتها المقدسة واظهروها عاجزة عن حماية رعاياها من الحجيج وتأمين طريقهم الى الديار المقدسة، الأمر الذي اذهب هيبتها أمام العالم الاسلامي، وهو هدف سعى اليه القرامطة ليمهدوا السبيل أمام خلافة الفاطميين ليقوموا بهذا الدور عن العباسيين.

ولقد ظلت العلاقات طيبة بين قرامطة البحرين و الفاطميين ببلاد المغرب طوال النصف الاول من القرن الرابع الهجري، وحرص حكام القرامطة على استمرار هذه العلاقات

الطيبة بينهما، بل على اظهار الولاء والتبعية للفاطميين والسماح لهم بالتدخل في تعيين امرائهم وحكامهم. ذلك انه لما توفى أبو طاهر سنة ٣٣٢هـ اعترض بعض رجال دولته على تولية أخيه الأكبر أحمد بن أبي سعيد الحكم بعده، وكان أبو طاهر قد أوصى بأن يخلفه في الحكم، ومالوا الى تولية سابور بن أبى طاهر الحكم مكان أبيه، وكاتبوا الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله في المغرب في ذلك. فجاءهم كتاب القائم بولاية أحمد، على أن يكون سابور ولي عهده. فنفذت رغبته، وتقلد أحمد حكم دولة القرامطة، وتلقب بلقب أبى منصور، وكان من الطبيعي أن يعترف أبو منصور للخليفة الفاطمي بالجميل وان يحذو حذو أخيه في التبعية والولاء للفاطميين. وقد استجاب أبو منصور لطلب الخليفة الفاطمي المنصور بن القائم بأن يعيد الى مكة الحجر الاسود، فأعاده سنة ٣٣٩هـ اليها(٥٠).

وفي سنة ٣٥٣هـ أغار القرامطة على بلاد الشام، وكانت خاضعة لحكم الاخشيديين(٥١). وتمكنوا بمعاونة الحمدانيين، من احراز النصر على الحسن بن عبيدالله بن طغج الاخشيد، الذي كان يلى هذه البلاد من قبل الاخشيديين حكام مصر. وقد نجحت هذه الحملة في الوصول الى طبرية والاستيلاء عليها، لذا عرفت بحملة طبرية. وفي سنة ٣٥٧هـ عاود القرامطة هجومهم على الشام، وعجز الاخشيديون عن صدهم، فسقطت مدينة الرملة بفلسطين في أيديهم، واضطر الحسن الاخشيدي الى التصالح معهم على ان يدفع لهم ثلاثمائة الف دينار كل عام، وبذلك امتد نفوذ دولة قرامطة البحرين الى بلاد الشام في أواخر عهد الاخشيديين(٥٢). ولقد شجعت انتصارات القرامطة على الاخشيديين في الشام الفاطميين في مصر على فتح هذه البلاد وضمها الى دولتهم. فلما أتم جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، فتح مصر وأيقن ان النفوذ الفاطمي قد توطد فيها أرسل حملة الى الشام جعل قيادتها لجعفر بن فلاح الكتامى أواخر سنة ٣٥٩هـ نجحت هذه الحملة في هزيمة الاخشيديين عند الرملة وطبرية واستولت على دمشق، وخطب من على منابرها للخليفة الفاطمي المعز لدين الله وحذف من الخطبة اسم الخليفة العباسي المطيع، وكان ذلك في أول المحرم سنة ٣٦٠هـ.

هذا ولقد تعرضت دولة القرامطة بالبحرين للعنف في النصف الثاني من

القرن الرابع الهجرى، وذلك بسبب النزاع الذي نشب بين أبناء الاسرة الحاكمة على الحكم. فلقد ثار الأمير سابور بن أبى طاهر على حكم عمه أحمد بن أبى سعيد الجنابي (أبى منصور) سنة ٣٥٨هـ. ونجح سابور في القبض على عمه واعتقاله واعتلاء الحكم مكانه. غير أن أتباع أبى منصور نجحوا في تخليصه من السجن واخراجه من معتقله وقيامهم بمحاربة سابور. وانتهى الصراع بين العم وابن أخيه بمقتل ابن الأخ بعد هزيمة قواته، ونفى اخوته وأشياعه الى جزيرة نائية بالبحرين تعرف بجزيرة أوال. وبذلك انقسم البيت القرمطي الحاكم في البحرين الى معسكرين، كل يؤيد حزبه: بيت أبى طاهر، وبيت أبى منصور. ولقد استعاد أبو منصور الحكم في البحرين. وظل يحكم حتى وفاته سنة ٣٥٩هـ فخلفه في الحكم ابنه الحسن بن أحمد، الملقب بالأعصم (٥٣).

ولقد بدأت العلاقة بين قرامطة البحرين والفاطميين تتغير في عهد حكم الاعصم، الذي عرف بعدائه للفاطميين وولائه للعباسيين. ولقد تمثل هذا التغيير في سياسة الولاء للفاطميين بقيام الحسن الاعصم بابعاد ونفى اخوة سابور بن أبى طاهر وأشياعهم من الموالين للفاطميين، وعددهم حوالى ثلثمائة رجل الى جزيرة أوال. كذلك عدم اعتراضه، أثناء تواجده بمكة، على الدعاء في الخطبة للخليفة العباسي المطيع لله من فوق منبر الحرم الشريف، وسرعان ما أعلن سياسته العدائية للفاطميين صراحة حين طالب الفاطميين، حين نجحوا في ضم الشام اليهم، بدفع الاتاوة التى كان يدفعها الاخشيديون لهم حين كانوا يحكمون الشام. ولقد رفض القائد الفاطمي على الشام جعفر بن فلاح الكتامى دفع هذه الاتاوة للقرامطة، مما أدى الى زيادة العداء بين قرامطة البحرين والفاطميين، وزيادة تقرب القرامطة لدولة الخلافة العباسية.

ولقد لعبت سياسة المصالح دورا هاما في وضع العلاقة بين قرامطة البحرين والفاطميين، الامر الذي جعل القرامطة يغيرون سياستهم الاستراتيجية تغييرا كاملا تبعا لمصالحهم بغض النظر عن انتمائهم المذهبي للمذهب الشيعي الاسماعيلي مذهب الفاطميين. فتخلى قرامطة البحرين عن التبعية للفاطميين وعن المذهب الشيعي واعلنوا الولاء للخليفة العباسي وحذف اسم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله من الخطبة ببلاد البحرين والدعاء للخليفة العباسي المطيع لله، وقد قام قرامطة البحرين

بهذا العمل على أثر ما قام به الفاطميون من سحب اعترافهم بشرعية حكم الاعصم واعترافهم بأحقية ولد أبي طاهر، أشياعهم في حكم دولة القرامطة. وقد تمادى الاعصم في عدائه للفاطميين وازداد تقربا للعباسيين حين طلب المعونة من الخليفة العباسي المطيع ومن عز الدولة بختيار أمير بني بويه على العراق سنة ٣٦٠هـ، يطلب منهما أن يمداه بالرجال والمال ليستعيد بلاد الشام من يد الفاطميين ويحكمها نيابة عنهم[٥٤] ولم تتوان دولة الخلافة وحكام بني بويه في بغداد من ارسال ما طلبه من مدد اليه، فأرسلوا اليه مالا قدره مليون درهم وسلاحا كثيرا. ولما اكتمل اعداد جيش الحسن الاعصم توجه لفتح دمشق سنة ٣٦٠هـ[٥٥]. وقد حمل جنوده أعلام الدولة العباسية السوداء التى كتب عليها اسم الخليفة العباسي المطيع عبدالكريم، وتحت الاسم كتب (السادة الراجعون الى الحق)، مما يؤكد انصراف قرامطة البحرين عن الدعوة الشيعية الاسماعيلية التى كانت أساس دعوتهم ودولتهم في بلاد البحرين[٥٦]. ولقد استطاعت قوات القرامطة الكبيرة العدد، بمن انضم اليها من الحمدانيين والعقيليين بالشام، من هزيمة قوات جعفر بن فلاح الفاطمية وقتله مع عدد كبير من اتباعه والاستيلاء على مدينة دمشق.

ونهج الحسن الاعصم في بلاد الشام سياسة التودد الى أهلها وقام بتأمينهم.، وأقام الخطبة في مساجدها للخليفة العباسي مما كان له عظيم الاثر على قلوبهم بسبب سنيتهم الشديدة وعدائهم للشيعة. وواصل الحسن فتوحه في بلاد الشام فاستولى على معظم مدنها، وأقاموا الدعوة للمطيع العباسي في كل بلد فتحوه وسودوا أعلامهم، وأظهروا انهم عمال على هذه البلاد من قبل الخليفة العباسي[٥٧].

ولما تم للحسن الاعصم فتح غالبية مدن الشام زحفت جيوشه الى مصر وهاجمتها مرتين ليقضى على دولة الفاطميين في عقر دارها، مرة سنة ٣٦١هـ، والمرة الثانية سنة ٣٦٣هـ لكن محاولته في كلتا المرتين باءت بالفشل بسبب تصدى المعز لدين الله الفاطمي لهذه القوات[٥٨] ونجاحه في استمالة بعض عناصر جيش القرامطة بالمال وانسحابهم من مواجهة جيش الفاطميين عند اللقاء[٥٩]. كذلك استبسال الجنود المصريين في الدفاع عن بلادهم ضد هذا الغزو فتقهقر الحسن الاعصم بجنده عائدا الى

الاحساء. وكان المعز لدين الله الفاطمي قد أرسل كتابا الى الحسن، حين قدم المعز من المغرب الى مصر سنة ٣٦٢هـ قبل ان يشتبك معه في الحرب يدعوه الى العدول عن موقفه العدائي للفاطميين ويذكره بعلاقة أسلافه الطيبة من أمراء القرامطة بالبحرين معهم[٦٠].

ولقد قامت الخلافات ثانية من جديد في بيت القرامطة الحاكم في البحرين وتجدد الصراع والنزاع بين افراد الأسرة الحاكمة على الحكم عقب وفاة الحسن الاعصم سنة ٣٦٧هـ.

وقد عمل أتباع بيت أبي طاهر آنذاك على اقصاء ولد أبي سعيد عن الحكم، ثم استقر الرأي أخيرا بين أمراء البيت القرمطي الحاكم على أن يتولى الحكم في البحرين اثنان من رجالهم، وهما: جعفر واسحق. لكن النزاع سرعان ما وقع بين هذين الأميرين بسبب رغبة كل منهما في الانفراد بالحكم والسلطة في البلاد دون الآخر. ولقد انتهى الصراع بين الأميرين بالحرب التي عجلت بنهاية دولتهم وزوالها عند نهاية القرن الرابع الهجري.

ولقد كانت بطون القبائل العربية بالبحرين ترقب الموقف عن كثب وتنتظر نتيجة الصراع على الحكم وتستفيد من هذه النتيجة. ولقد استفاد بنو تغلب من ذلك الموقف ونجح زعيمهم الاصغر بن أبي الحسن التغلبي سنة ٣٩٨هـ في الاستيلاء على الحكم في البحرين واقصاء جعفر واسحق عنه، واعادة تبعية تلك البلاد الى الدولة العباسية والمذهب السني والخطبة فيها للخليفة العباسي الطائع لله. هذا وقد كان بنو تغلب أكثر العرب المقيمين في البحرين عددا وأظهرهم مكانة، وكان يليهم في ذلك الأمر عرب بني عقيل وعرب بني سليم.

لكن الأمور، لم تستقر، بعد ذلك، في البحرين بسبب استمرار النزاع بين بطون القبائل العربية هناك ورغبة كل بطن منها في الوصول الى حكم البلاد والسيطرة على مقاليد الأمور فيها. وقد استعان بنو تغلب لتحقيق ذلك ببني عقيل على بني سليم، ونجحوا في طرد بني سليم من البحرين، فساروا الى مصر ومنها الى المغرب. ثم وقع الخلاف والحرب بين بني تغلب وبني عقيل، وانتهى الأمر بخروج بني عقيل الى اقليم الجزيرة بشمال العراق، واقامة دولة لهم هناك. وانفرد بنو تغلب بحكم البحرين، ونجح زعيمهم الاصغر في جعل الحكم وراثيا في بنيه من بعده ببلاد البحرين. فظلوا يلون الأمر ويحكمون في هذه البلاد حتى ضعف أمرهم بسبب صراع البيت

الحاكم على السلطة وانتهز بنو عقيل فرصة ضعف البيت التغلبى فأقصوهم عن الحكم وتولوه مكانهم. وكان بنو عقيل قد عادوا الى ديارهم بالبحرين بعد أن تغلب عليهم السلاجقة في الجزيرة وطردوهم منها. فصار الملك في البحرين لبنى عقيل، وصار بنو تغلب من جملة رعاياهم[٦١]. ولقد استمر وضع الحكم في البحرين على هذا النحو تحكمه بطون قبيلة عبدالقيس حتى القرن الثامن الهجرى. وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة ذلك عند مروره عليها أثناء رحلته الاولى سنة ٧٣٢هـ.

يقول ابن بطوطة ما نصه[٦٢]: «ثم سافرنا من سيراف الى مدينة البحرين، وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قرب المؤنة يحفر عليه بالايدى فيوجد. وبها حدائق النخل والرمان والاترج والليمون ويزرع بها القطن. ثم سافرنا الى مدينة هجر، وتسمى الآن بالحسا، وهي التى يضرب بها المثل فيقال «كجالب التمر الى هجر» وبها من النخل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم، وأهلها عرب واكثرهم من قبيلة عبدالقيس بن أفصى».

أ.د. عطية القوصي
أستاذ التاريخ الاسلامي
بكلية الأداب – جامعة القاهرة

تجارة السلاح في الخليـ
النصف الثاني من القـ

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نشاطا بريطانيا محموما في منطقة الخليج العربي. وقد حاولت بريطانيا بكل الوسائل ان تثبت وجودها في المنطقة، متذرعة باسباب ومبررات مختلفة، كان ابرزها الموقع التجاري الذي يهيء للبريطانيين نقطة وثوب الى الهند «درة التاج البريطاني» لكن هذا الامر سرعان ما تدرج الى ان بلغ افصاحا عن نزوع عسكرى، تمثل في اعتبار المنطقة نقطة دفاع متقدمة عن الهند. وتحت سياسة الذرائع هذه والاغطية المختلفة التي حاولت بريطانيا أن تغلف بها اجراءاتها ومواقعها ازاء الخليج العربي. تركزت الاطماع الاستعمارية نتيجة لسيادة روح التنافس بين القوى الكبرى التي نشطت في تلك الحقبة للحصول على النصيب الاكبر من

ح العربي خلال
ن التاسع عشر

بقلـم : د. اسماعيل نورى الربيعي

المغانم. وكانت الحال تفصح عن تصاعـد حمى المنافسة لبلوغ الأهداف والمرامي. حتى راحت بريطـانيا تـزج باسطـولها البحرى لا ستعـراض قوتها، فيما جهـدت فرنسـا بتوطيـد علاقـاتها السياسيـة والتجارية مع القـوى المحلية، ساحمة لاصحاب السفـن التجارية من سكـان الخليج العربي ان يرفعوا العلم الفرنسى.

نشطت القوى الاجنبية في تعزيز مكانتها في المنطقة عبر فعاليات متنوعة لم تكن تخرج ابدا عن الطـابع المريـب الذي كـان يميز اغلبهـا، حيث ان هـذه الفعاليـات بقيت في اطـار الحدود غير الشرعية واتخذت اشكـالا غير قانـونية. فراجـت عمليات التهريـب وازدهرت تجارتي الـرقيق والسلاح، ولكن بعيدا عن الجهات الرسمية وخفية عن أعين السلطات.

الـولايـة، وقـد هيـأت لهم هـذه المساعدات نفوذا كبيرا، حتى انتقل من المدن الى القـرى وللقبـائل. وكـانـت المنافسة والاقتتال على المناصب قـد اعمت أعين الولاة عن هذا التغلغل الذي مثـل اخـلالا بـالسيـادة ومخالفـة صريحة للاعـراف الدبلومـاسية [٢]. وانتقـل هـذا المفهـوم الى المنـاطـق المجاورة للولايات العثمانية او المناطق التي كانت تخضع بصورة اسمية لها. حتى كان هذا الاسلوب هو الميزة التي طبعت السياسة الاستعمارية للتدخل في شـؤون منطقـة الخليـج العـربي وتحت مبررات واعتبـارات متبـاينـة، فكـانت تـدخـلاتها تتم تحت دعـوى محاربة القرصنة وفى احايين لتقويض تهريب السـلاح او القضاء على تجارة الرقيق، وقد تشمـل ايضا الارتباكات التـي كـانـت تحدث في دوائر الحجـر الصحـي[٣]. والـواقـع ان مـركـز بـريطانيـا المتنفـذ في الخليج العـربي والذى برز على حساب النفوذ الفرنسي قد ظهـر بعد الخسـارة التي منـى بها الفرنسيـون في معركـة الطرف الأغـر وعلى هـذا اضحـى المحيـط الهنـدى والخليج العربي ومنطقة رأس الرجاء الـصالح، مـا يمكن ان يطلـق عليـه بحيرة بريطانية [٤].

بقي الجانب البريطـاني ينظر بعين الـريبة والشـك الى النشاط الفـرنسي حيث جعلـوا مـن «بـورت لـويـس» عـاصمة «ايـل دي فـرانس» ، محطـة لشراء الاسلاب البريطانيـة في المنطقة. فكـانت التقـارير الاخبـارية السريـة تصل تباعا وبدون انقطاع عن الوكلاء التـابعين لتجار مسقـط في ذلك الميناء ودأب السفـن العمانيـة في بيـع تلـك المغانـم في مدينة «كلكتـا» ذاتها. ومما اثـار ذعر البريطـانيين، ان الاسطـول العماني بدأ بشراء السفـن البريطانيـة المأسـورة واضافتهـا في عـداد قوتـه البحـريـة [٥]. ومـن دون ان تـدرى اوقعت بريطانيا نفسها في مأزق حرج، فبعـد ان وقعـت معاهـدة ١٨٢٢ مـع سلطـان عمان حـول تحريـم تجارة الرقيـق، استفاد الفـرنسيون مـن هذا الجانب ايما فـائدة، حتى انهم راحـوا يوزعون الاعلام الفرنسية على السفن العمانيـة بغيـة حـرمـان السفـن البريطـانيـة مـن تفتيشهـا اوحتـى ايقـافهـا. وكـان هذا الامـر فـرصـة سانحـة لهم لتقوية نفوذهـم واسباغ حمايتهم على المنطقـة [٦]. وصار مـن المشـاهد المألـو فـة في المحيط الهنـدى والخليـج العـربي، اقـدام السفـن المتورطة بتجارة الرقيق على رفع العلم الفـرنسي، تجنبـا لتفتيـش الاسطـول البريطـاني او الاسطـول العماني.

أن الظرف التاريخي الذى كان يميز تلك الحقبة الزمنية في منطقة الخليج العربي. ووجهة النظر الاجتماعية السائدة، كانت تضفي شيئا من القبول وبعضا من الرضى حول تجارة الرقيق. الا أن العمليات الاخرى، والتي كانت تأخذ معنى سريا وكتوما الى درجة مبالغ فيها، انما عبرت عن اثر مبيت من قبل تلك القوى نحو البنية الاقتصادية والسياسية للمنطقة. وتهديدا مباشرا لمصالحها الاساسية واضرارا متعمدا باستقرار وأمن المنطقة. فهذا «بلي» المقيم البريطاني في الخليج العربي، يستحث الجهود ويقوى الهمم لتوسيع نفوذ التجار البريطانيين، حتى انه لم يأل جهدا في استخدام «دبلوماسية القوارب المسلحة» عام ١٨٦٦ كما يصفها لاندن [١]. ولم يثنه عن عزمه وخطته التي وضعها الرفض المستمر من ابناء المنطقة، والمقاومة التي كانوا يبدونها ازاء النفوذ السياسي والاقتصادى البريطاني المتعاظم، وتحت ستار سياسة التحديث ونقل التقنية الحديثة الى المنطقة، مارست الادارة البريطانية ضغوطها لتدمير العلاقات الانتاجية السائدة، من خلال تنشيط الملاحة البخارية على حساب صناعة السفن المحلية.

لقد كانت المؤشرات كلها، توضح وبشكل جلي الرفض القاطع لابناء المنطقة للوجود الاجنبي. وعلى هذا نشطت في تلك الحقبة عملية الحصول على الاسلحة النارية. التي تهيء للمقاومين وسيلة متكافئة للدفاع عن الامن والسيادة. وعلى هذا قامت تجارة السلاح وتهريبه على هذا الاساس وبنشاط فردى من قبل بعض التجار الاوربيين الذين وجدوا في هذه التجارة مصدرا كبيرا للربح. الا ان هذا النشاط اتخذ اشكالا وانماطا مختلفة، مما جعله ينأى عن الهدف الذى ظهر من اجله، حتى انه وسم بالطبيعة التجارية غير القانونية، مما ادى الى اتخاذ موقف المتشكك من قبل ابناء المنطقة ذاتهم، وجعل السلطات المحلية تتخذ موقفا حازما لا يقاف سبيل هذه التجارة والتي التصقت باهداف ومرام مريبة.

أهتبل وكلاء شركة الهند الشرقية البريطانية كل الفرص للتقرب من الولاة العثمانيين المنصبين في المنطقة وتوطيد علاقاتهم معهم. ونتيجة لهشاشة العلاقة القائمة بين اولئك الولاة والسلطة المركزية في الاستانة، ونزوعهم نحو البقاء في منصب الولاية اطول مدة ممكنة، فقد سعى اولئك الوكلاء لتقديم كل العون والمساعدة لمقاومة منافسيهم على

ويشير الدكتور محمود علي الداود، الى ان اقدام السلطات الفرنسية على هذا العمل قد اضر بسيادة السلطان العماني، فقد وهن ارتباط الرعايا بسلطانهم، ثم ان هذا الامر يعد اخلالا بالاستقلال السياسي للسلطنة (٧).

على الرغم من كل الضجة التي اثارتها بريطانيا حول تجارة وتهريب الاسلحة النارية ، الا أن مفارقة طريفة تعترض القضية برمتها، تتلخص في كون هذه التجارة الشاذة كما يصفها البريطانيون انفسهم ماهي الاذات مصدر بريطاني محض ـ فالبنادق التي انتشرت في الخليج العربي، كانت انكليزية المنشأ، كما ان الشركات المسئولة عن تصدير الاسلحة والشركات الملاحية المسئولة عن شحن هذه البضاعة الى المنطقة، اضافة الى الشركات المسئولة عن توزيع الاسلحة في بلاد فارس، كانت جميعا بريطانية. ومصدر القلق والريبة الذى انتشر في دائرة المقيم البريطاني في الخليج العربي كان نابعا من انتشار ظاهرة بيع الاسلحة بالجملة وبكميات وافره. حتى انها انتشرت بين سكان المنطقة المحليين انتشار النار في الحطب الهشيم. ومن المفيد هنا الاشارة الى ان هذه التجارة بدأت متواضعة محدودة. الا انها سرعان ما اضحت مصدر قلق ورعب في اوساط الادارة البريطانية. حتى ان ارنولد ولسن، يعلق عليها قائلا بانها ظلت لفترة من الزمن تغطي على كل المسائل الاخرى في الخليج العربي (٨).

واجهت السلطات البريطانية متاعب جمة جراء تجارة السلاح وتهريبه، لاسيما خلال السنوات الخمس التي سبقت الحرب العالمية الاولى. فقد نشطت القوى الاوربية في عمليات التصدير، والتي عدتها من مسائل التنافس الاساسية في المنطقة. فمن خلالها يمكن تعزيز العلاقات مع القوى المحلية، وعن طريقها يمكن التوغل والحصول على موطيء قدم. حتى انها بلغت مناطق مختلفة وبكميات كبيرة، حيث ظهرت في ساحل بلوجستان وبلاد فارس، كما انها بلغت افغانستان وأواسط اسيا. وكان من المشاكل التي خلقتها تلك العمليات، ان التقارير التي رفعها الضباط البريطانيون حول اضطراب الاوضاع في الحدود الشمالية الغربية للهند، كانت من جراء نشاط هذه التجارة. والواقع ان هذه العمليات قد بدأت منذ العام ١٨٤٤ الا ان خطرها توضح بشكل جلي خلال الحرب الافغانية الثالثة. حيث اشار المسئولون البريطانيون الى ان من العوامل الاساسية المحرضة على الثورة ومقارعة الوجود البريطاني،

توفر الاسلحة النارية وسهولة الحصول عليها سيما في حدود الهند الغربية [٩]. ونظرا لجدية الخطر الذى احدثته هذه التجارة، فإن المساعي البريطانية قد اثمرت عن منع التجار البريطانيين من المساهمة فيها. الا أن اطرافا اوربية اخرى وجدت فيها ضالتها المنشودة لتقويض الوجود البريطاني، وعليه دأبت فرنسا بكل ما تملك من وسائل وجهود لتنشيط هذه الفعالية، مع دور الماني محدود الأثر [١٠].

على الرغم من الحظر المفروض على السلاح، الا أن نشاط التجار كان واسعا، الى الحد الذى جعل منه احد الظواهر البارزة في تلك الحقبة حتى ان اقليم عربستان، كان يعج بسلاح «المارتيني ـ هنرى» الذى كان يصله عن طريق ميناء بوشهر. كما ان البصرة كانت تحظى بذات النوعية من السلاح عن طريق الكويت والمحمرة من خلال النشاط الدائب الذي كان يبذله المهربون. ولابد من الاشارة الى ان ميناء بوشهر قد غدا الممون الرئيسي لموانيء الخليج العربي المختلفة، على الرغم من القرار الرسمي الصادر عام ١٨٨١، والقاضي بحظر استيراد السلاح من قبل بلاد فارس [١١].

شهد الخليج العربي نشاطا ملحوظا لافراد القبائل الافغانية والمناطق الشمالية الغربية من الحدود الهندية، الذين اضحوا زبائن دائمي التردد الى المنطقة، جاعلين منها سوقا رائجة لهذه التجارة، من خلال اقبالهم على شراء حاجتهم من السلاح، المستخدم وبشكل واسع في الحروب القبلية الداخلية ومقاومة السلطة الموالية للنفوذ البريطاني. وقد برزت هذه الحالة وبشكل واضح منذ العام ١٨٩١ [١٢]. وقد لعبت بيوت التجارة الوطنية الفارسية دورا نشيطا في تجارة الاسلحة والذخيرة، مما شجع مجموعة من الرأسماليين البريطانيين لتأسيس شركة بريطانية ـ فارسية، وأفتتاح فرع لها في ميناء بوشهر عام ١٨٨٧ [١٣].

كان للنتائج التي تمخض عنها مؤتمر برلين والذى اكد على منع هذه التجارة في شرق افريقيا، ان غمرت اسواق الخليج العربي وموانئه بكميات كبيرة من الأسلحة والذخائر عام ١٨٩٠، كان مصدرها زنجبار. فكان هذا تمهيدا للجزء الاسيوى من سلطنة عمان ممثلة بمسقط من لعب دور واسع في هذه التجارة. حتى ان التجار افتتحوا خطوطا مباشرة معها، مما جعل منها اكبر سوق لتجارة

السلاح في الخليج العربي بل تعدى ذلك الى ان تكون اكبر اسواق الشرق الاوسط قاطبة. وعلى الرغم من عدم وضوح الاثر السياسي بصورة مباشرة لهذه التجارة الا ان الادارة البريطانية كثفت اتصالاتها مع السلطان لمنع وصول شحنات الاسلحة الى ميناء جوادر في الهند، ضامنة ذلك بوعد مكتوب عام ١٨٩١، كما ان الشاه الفارسي شدد على اوامره السابقة والقاضية بحظر دخول الاسلحة والذخيرة عن طريق التهريب(١٤). ان التأكيدات الفارسية والبريطانية حول منع هذه التجارة، تفصح عن القلق القوى الذى اعتمل في صدر السلطات، لاسيما وان اعداد البنادق المشحونة الى موانيء المنطقة قد بلغت الاضعاف، فعلى سبيل المثال، استقبلت مسقط احد عشر الفا وخمسمائة بندقية خلال العام ١٨٩٢. وقد وجدت السلطات الفارسية أن من الخطأ بمكان ان تترك هذه التجارة تمارس بصورة علنية، وعليه اقدمت على مصادرة مخازن الاسلحة في بوشهر. الا ان اجراءات الحكومة الفارسية لم تكن تجدى نفعا ازاء هذه التجارة المتعاظمة وعليه ابرمت اتفاقا مع السلطات البريطانية عام ١٨٩٧، اتاحت فيه للسفن البريطانية المدرعة حق مصادرة الاسلحة في الموانيء الفارسية(١٥).

ثمه امر ينبغي الاشارة اليه يتلخص في الزيادة الملحوظة في اعداد البنادق الواصلة الى موانيء المنطقة فقد د دخل ميناءمسقط عام ١٨٩٦ - ١٨٩٧ ما يزيد على عشرين الف بندقية، كما ان ميناء بوشهر استقبل خلال العام ١٨٩٧ مايزيد على الثلاثين الف بندقية. ألا ان المدهش في كل هذا يتلخص في ان اغلب هذه البنادق كانت صادرة عن المصانع البريطانية(١٦). وقد بقى التنافس قائما بين مينائي بوشهر ومسقط حول هذه التجارة خصوصا بعد عام ١٨٩٥، الذى شهد نشاطا واضحا من قبل الشركات الاوربية لايصال هذه البضاعة الى ميناء مسقط، الا ان الارقام الهائلة، التي بلغتها تلك التجارة لاسيما عام ١٨٩٧، جعل الحكومة الفارسية تنظر اليها بقلق شديد، حتى انها جددت اتفاقيتها مع الحكومة البريطانية وعقدت اتفاقية جديدة مع سلطنة عمان(١٧). عام ١٨٩٨. وقد اضطر سلطان عمان لتوقيع هذه المعاهدة، بعد ان وجد الطرفين البريطاني والفارسي جادين في مسعاهما لايقاف التجارة. الا انه من جانب آخر اشترط عدم جواز تفتيش السفن العمانية. وعلى هذا

استطاع ان يكسب شوطا واسعا في تلك العملية، وأضحى ميناء مسقط، صاحب قصب السبق في توريد الاسلحة حتى امتلأت موانىء الساحل العماني المتهادن والبحرين وقطر والكويت بكميات هائلة من الاسلحة المهربة. كما ان مناطق ساحل مكران الفارسي وافغانستان، قد حصلت على بضاعتها تلك عن طريق ميناء مسقط (١٨). وبهذا يمكن القول ان موقف السلطات الرسمية العمانية، قد احتوى موقفين الاول، تمثل بالرضوخ لمطالب السلطات البريطانية التي برمت بهذه الفعالية التي هددت نفوذها بشكل جدّي ومباشر. أما الثاني فقد تمثل باحساس السلطان التجاري الذي وجد في هذه العملية منفذاً لجني الأرباح، ولعب دور مؤثر في المنطقة، إضافة إلى الرغبة الحميمه، التي كانت تعتمل في نفس السلطان ذاته، والذي وجد في تكدّس الأسلحة النارية والذخائر، مدخلاً لتعزيز القدرة الذاتية العسكرية، وتقوية، وترصيناً للقوى المحلية في المنطقة.

أفصحت السلطات البريطانية عن الأخطار الجسيمة التي باتت تلحقها هذه التجارة بالوجود العسكري لها في المنطقة. حتى أنها لم تتورع عن اصدار مرسوم برلماني يؤكد ليس على المنع فقط، إنما غلفته بإسلوب اللاشرعية، خصوصاً إذا كانت الغاية منها الإستخدام ضد الوجود العسكري البريطاني. وقد حرصت بشكل جدي على منع وصول الأسلحة إلى الموانيء الهندية على وجه الخصوص. ولم تكتف باسلوب القرارات والحراسات والتفتيش، انما واصلت فعالياتها بإجراءات عملية، حيث بدأت بعقد معاهدات لتحريم تجارة الأسلحة مع إمارات الخليج العربي. فكانت معاهدة ١٨٩٨ مع البحرين، ومعاهدة ١٩٠٠ مع الكويت وشيوخ الساحل المتهادن عام ١٩٠٢، والواقع أن هذا النهج، قد بلغ نتائج إيجابية بالنسبة للجانب البريطاني. إلا أن سلطنة عمان بقيت البؤرة الأساسية لاستقبال وتصدير الأسلحة في المنطقة. حتى أن ميناء مسقط قد شهد حركة ناشطة من لدن البواخر الاوربية التي كانت تقوم بجلب الأسلحة والذخائر البلجيكية والألمانية والفرنسية والإنجليزية(١٩)

على الرغم من تغلغل النفوذ البريطاني في منطقة الخليج العربي الا ان الادارة البريطانية وخلال عقد معاهداتها مع السلطات المحلية في المنطقة. وضعت شروطا واتفاقيات تنسجم مع قوة ونفوذ تلك السلطنة. فعلى سبيل المثال، تعهد الجانب البريطاني مع السلطات العمانية انه في

حالة القاء القبض على سفينة متورطة بتهريب الاسلحة تابعة لمسقط فأن الحكومتين البريطانية والعمانية تقتسمان الشحنه. في حين ان منطوق المعاهدة البريطانية مع الساحل المتهادن كان ينص على ان الشحنة تكون من صالح الجانب البريطاني، لكنهم حين وجدوا شيوخ الساحل ناشطين في متابعة هذه العملية، فانهم تركوا السفن التي اوقفوها لصالحهم، تثمينا لجهود هم التي بذلوها في هذا الجانب، وكدافع لبذل مزيد من النشاط وحافز لهم. وحين وجدت بريطانيا ان عمليات المتابعة والايقاف والسيطرة والتفتيش تتطلب المزيد من الجهود والاموال والوقت، فانها سرعان ماضربت بتعهد اتها ازاء الجانب العماني عرض الحائط، وبدأت بالاستيلاء على شحنات السفن لصالحها فقط [٢٠].

وقفت السلطات العثمانية بحزم ازاء تهريب الاسلحة النارية لاسيما وأن القبائل العربية، قد احرجت السلطات العسكرية في مناطق جنوب العراق . فعمدت الى مراقبة ميناء البصرة بشكل دقيق وحازم، حتى بات من الصعب الحصول ولو على بندقية صيد. ولكن هذه الاجراءات لم تكن توفق في وقف نهائي لعمليات التهريب فقد بقيت الاسلحة تتدفق عبر الاراضي الايرانية. ولايخرج هذا الامر تحت اى حال عن طبيعة العلاقات السياسية المرتبكة بين الجانبين الفارسي والعثماني، اذا ما تذكرنا الجهود الحثيثة التي كانت تبذلها السلطات الفارسية لايقاف عمليات التدريب داخل اراضيها. وغدت مسألة الحصول على السلاح النارى، مسألة تتقدم على كل القضايا بالنسبة للسكان المحليين في مناطق البصرة وجنوب العراق، حتى ان اسعارها كانت تتراوح مابين باون وعشرة شنات الى ثلاث باونات، وكان انتشار البندقية المصنوعة في برمنغهام والمسدسات البلجيكية واضحا وعمليات الشراء علنية وامام اعين السلطات الرسمية. وبقيت مناطق شرق افريقيا المصدر الرئيسى الذى ينطلق منه المهربون نحو الخليج العربي، فكان الطريق السرى يبدأ من جيبوتي ـ مسقط فالمحمرة او الكويت ثم البصرة. وقد برزت في المنطقة صناعات محلية مرتبطة بهذه التجارة اذ توسعت الورش الخاصة بصنع البارود والاطلاقات والتي تعتمد على الكبسولات المستوردة من اوربا [٢١].

استمرت عمليات الاستيراد الى ميناء مسقط من الأسلحة،. حتى أن مبالغ الاستيراد قد شهدت ارتفاعا ملحوظا في أرقامها. فخلال العام

١٩٠٦-١٩٠٧ قدر المبلغ بحوالي مائة واثني عشر ألفا وثلاثمائة وخمسين باون، وصلت كميات كبيرة منها الى افغانستان(٢٢). وعلى الرغم من الجهود البريطانية في حصر عمليات هذه التجارة، الا أن الأعوام ١٩٠٧-١٩١٠، قد شهدت ارتفاعا ملحوظا في أرقامها. ويمكن أن نشير هنا، الى أن سفن التجارة العمانية قد وفقت في استخدام العلم الفرنسي، الذي منحها حصانة أمام عمليات التفتيش التي كانت تقوم بها السفن البريطانية. وكان للتطورات التى شهدتها المنطقة أثرها البالغ في تشديد الادارة البريطانية قبضتها على المنطقة وتنفيذ سياسة امتصاص نقمة القبائل العربية ومقاومتهم لنفوذها، لا سيما بعد اكتشاف النفط في منطقة عربستان عام ١٩٠٨(٢٣). والمشاكل الخطيرة التى باتت تواجه الوجود البريطاني في أفغانستان وشمال غرب الهند. وخلاصة القول أن الموقف البريطاني، لم يكن يراعى عوامل الاستقرار في المنطقة، بقدر ما كانت تفكر بالخطر الذي يواجه مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية وخير ما يمكن أن نوثقه في هذا المجال التصريح الذي أدلى به (برسي سايكس) عام ١٩٠٢ حين قال: (اذا أردتم الاضرار بالتجارة في منطقة الخليج العربي، تاجروا بالسلاح، لأن باستطاعة بضعة أشخاص مزودين بالاسلحة النارية الحديثة، قطع أي طريق تجارى يمكن للبضائع البريطانية أن تمر عبره)(٢٤).

واجهت بريطانيا عقبات كثيرة وهي في خضم صراعها مع قضية تجارة السلاح والتي أقضت مضجع المسؤولين البريطانيين. الا أن المشكلة الرئيسية والأكثر تعقيدا، تمثلت في الموقف الفرنسي من هذه التجارة، فكل الجهات وما تبذله من جهود، لا تمثل الا مواقف طارئة، الا أن فرنسا بأمكاناتها الواسعة وقدرتها على التنافس، تعد خصما عنيدا. والحق أن القناعة الفرنسية أتاحت للمشتغلين في هذه التجارة مدى أوسع، لا سيما وانها سمحت للسفن العمانية برفع العلم الفرنسي عليها. وبهذا استطاع سلطان عمان أن يتنصل من المعاهدة المعقودة بينه وبين البريطانيين. وقد بلغ الموقف الفرنسي حدا، انها ارسلت مندوبيها لتنظيم شئون هذه العملية، مستخدمة بالطبع الأسلوب غير الرسمي، تحت ستار التجار الفرنسيين الذين يمثلون مصالحهم، وهي ذريعة طالما استخدمتها الدبلوماسية الأوربية في المنطقة، فكان أن برز نشاط التاجر الفرنسي

(جوجير)، الذي استفاد من حصانته التي تتيحها له جنسيته الفرنسية لتعزيز موقعه، وممارسة نشاطه بصورة علنية، حتى انه قدم لسلطان عمان القروض المالية(٢٥)، ومن هذا يمكن التساؤل، عن الامكانات الهائلة التى يمتلكها هذا الرجل المؤسسة، وعليه نقول ومن دون كثير عناء، أن هذا الرجل لم يكن في الواقع سوى ممثل للحكومة الفرنسية، تحت غطاء ثياب التاجر.

حاولت العديد من الجهات الدولية التدخل في شئون الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية والهند، حيث عقد مؤتمر بروكسل عام ١٩٠٩، الذي ركز على انهاء تجارة السلاح في هذه المناطق، الا انه واجه فشلا ذريعا، بسبب الموقف الفرنسي حول حرية التجارة(٢٦). والواقع أن الجانب البريطاني لم يكن راغبا في هذه المؤتمرات، خشية من تغلغل النفوذ الأوربي، تحت هذه الذريعة. وكان الرأى أن يتم التنسيق بين الجانبين البريطاني - الفرنسي، والوصول الى حل يرضى هذين الطرفين فقط(٢٧)، دون الأخذ بنظر الاعتبار السلطات المحلية الرسمية في المنطقة.

كان للاجراءات البريطانية ومضايقاتها المستمرة لتجارة السلاح أن عم الاستياء في العديد من موانىء الخليج العربي، فقد أشاروا الى الاجراءات المشددة على ميناء دبي، في حين انها تقف مكتوفة اليدين أزاء ميناء مسقط. كذلك موقفها المجامل أزاء السفن الفرنسية المحملة بذات البضاعة. كما أن الموقف البريطاني لم يراع حاجة القوى المحلية الملحة للسلاح مثل عبدالعزيز بن سعود وقاسم بن ثاني شيخ قطر في مقاومة السلطات العثمانية. وقد فات عليهم أيضا أهمية البندقية بالنسبة للعربي البدوى والسلاح عموما، الذي يعتبر رمزاً للفروسية والرجولة. وكان لجمله من العوامل أن جعلت الحالة تصل الى حد التفاقم تمثلت في المناورات التى كانت تقوم بها البحرية البريطانية، ما يعد استفزازا لمشاعر أبناء المنطقة. اضافة للحملات الاعلامية المنظمة من قبل الفرنسيين، وجهود العثمانيين في هذا المجال. ونتيجة لاغلاق الطريق البحري بين مسقط وبلوجستان عام ١٠١٠، أضحت دبي بديلا موضوعيا لمسقط في هذه التجارة. حتى غدت الممون الرئيسى الى كافة موانيء الخليج العربي، وصارت السفن التجارية تقوم بمهام مزدوجة، فلقد كانت تخرج من ميناء دبي محملة بالأرز والبضائع المختلفة، لتعود اليه محملة

بشاحنات الأسلحة النارية[٢٨].

حاولت فرنسا النفاذ الى مناطق حساسة تهم الاستراتيجية البريطانية بشكل دقيق، فلقد اسفرت المفاوضات البريطانية - الفرنسية والتي بدأت في ٣٠ تموز ١٩١٠ حول تجارة السلاح، عن سر الحماس الذي كانت تبديه فرنسا أزاء هذه القضية، اذ كشف الفرنسيون في جلسة ٢٠ تموز ١٩١١ عن رغبتهم الجامحة في الحصول على مناطق نفوذ في الهند. وعلى هذا الأساس أغلق البريطانيون باب المفاوضات. وتبنوا الرأى الذي نادى به (كوكس) والداعي الى اعتبار مسألة تجارة السلاح من الشئون المتعلقة بين بريطانيا والسلطات العمانية[٢٩].

تعرضت تجارة الاسلحة الى تقلص واضح في أنشطتها. فقد أصدر المقيم البريطاني في الخليج العربي (كوكس) قرارا يقضي بانشاء مستودع للأسلحة في مسقط عام ١٩١٢. وقد أنيطت بهذا المستودع مهمة تدقيق وتسجيل الأسلحة الداخلة الى المنطقة. وبهذا العمل تم حصر الكميات الأكبر، ووضعها تحت الرقابة، ولا يتم اخراج أى شىء منها الا بأذن خاص من السلطات. وكان رد فعل الجانب الفرنسي عنيفا أزاء هذا القرار الذي اعتبرته موجها للاضرار بالتجارة الفرنسية، وطعنا بالمعاهدة الفرنسية - العمانية، وعلى الرغم من كل الجهود التى بذلوها لاقناع البريطانيين، الا أن ذلك العمل لم يسفر عن شىء[٣٠]. وكان للتحولات التى شهدتها العلاقات الدولية خلال العام ١٩١٤ ودقة الأوضاع السياسية، أن اقدمت بريطانيا على إغلاق مخزن السلاح في مسقط، وصادرت الأسلحة الموجودة فيه[٣١]. كما أن قيام الحرب العالمية الأولى أتاح لها تعزيز نفوذها العسكري وبشكل مباشر، متخلصة بذلك من منافسة القوى الطامحة للوثوب الى المنطقة. والواقع أن بريطانيا لم تكن الوحيدة، صاحبة المصلحة في القضاء على هذه التجارة. فالحماس الذي أبدته الحكومة الفارسية، للأمساك والسيطرة على جميع الاسلحة النارية والذخيرة المهربة، انما كانت تنبع من خطة أعدت لتسليح الجيش الفارسي بدون كلفة كبيرة[٣٢].

د. إسماعيل نورى الربيعي
الجامعة الأردنية ـ كلية الآداب
قسم التاريخ - عمان ـ الأردن

الجـداول:

تجارة السلاح في ميناء بوشهر (بالباون الاسترليني)			
السنة	تصدير	استيراد	الكلي
١٨٩١-١٨٩٠	٦٣٦,٦٥٠	١,١١٣,٢٥٠	٢,٩٠٠
١٨٩٢-١٨٩١	٣٦٠,٩٠٠	١,١٥٢,٠٥٠	٢,٦٥٠
١٨٩٣-١٨٩٢	٢٧٢,٩٥٠	١,٠٩٧,٢٥٠	٢٠٠
١٨٩٤-١٨٩٣	٥٦٥,٥٤٠	١,٠٤٦,٥٥٠	٩٥٠
١٨٩٥-١٨٩٤	٦٧٤,٢٠٠	١,٢٢٣,٤٠٠	٤٥,٢٠٠

تجارة السلاح في مسقط (بالباون الاسترليني)							
السنة	بريطانيا	فرنسا	بلجيكا	ألمانيا	الكلي	الاستيراد	تصدير
١٩٠٧-١٩٠٦	٥٢,٣٥٠	٦,٠٠٠	٥٤,٠٠٠	---	١١٢,٣٥٠	٤٦١,٤٥٠	٢٤٦,٢٥٠
١٩٠٨-١٩٠٧	١٠١,٤٥٠	٢٦,٣٥٠	١٤١,٠٠٠	١٠,٢٥٠	٢٧٩,٠٠٠	٦٥٦,٤٥٠	٢٨٣,٠٥٠
١٩٠٩-١٩٠٨	٨٢,٠٠٠	١٩,٩٠٠	١١٤,٠٠٠	١٠,٨٥٠	٢٢٧,٦٥٠	٦٨٣,٨٠٠	٣٠٢,٦٠٠

المصـــــدر:

B.C. Busch, Britain and the Gulf, Los Angles, 1976.

الهوامش

١- روبرت جيران لاندن، عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا ومصيرا، ترجمة محمد أمين عبدالله، لامكان ١٩٧٠، ص ٨٣.
٢- عبدالفتاح ابراهيم، على طريق الهند، بغداد ١٩٣٥، ص ١٥٢.
٣- د. حسين محمد القهواتي، دور البصرة التجاري في الخليج العربي، بغداد ١٩٨٠، ص ١٨٠.
٤- رود ولف سعيد روث، السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١-١٨٥٦، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي، ط ٢، بيروت ١٩٨٨، ص١٤٨.
٥- د. صالح محمد العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي، بغداد ١٩٧٩، ص١٨١.
٦- د. عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم، بريطانيا وامارات الساحل العماني، بغداد ١٩٧٨، ص٣٣٥.
٧- د. محمود على الداود، محاضرات عن الخليج العربي ١٨٩٠-١٩١٤، القاهرة ١٩٦١، ص١٠٥.
٨- ارنولد ويلسون، الخليج العربي، ترجمة د. عبدالقادر يوسف، الكويت لا تاريخ، ص ص٤٣٠-٤٣١.
٩- د. جمال زكريا قاسم، دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠-١٩١٤، الكويت ١٩٧٤، ص٣٨١.
١٠- ويلسون، المصدر السابق، ص٤٧٣.
١١- د. حسين القهواتي، المصدر السابق، ص٤٣٧.
١٢- د. عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم، المصدر السابق، ص٣٤٧.
١٣- لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١، قطر لا تاريخ، ص٤٧١.
١٤- المصدر نفسه، ص٤٨٤.
١٥- د. جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٣٨١.
١٦- لوريمر، المصدر السابق، ص٥٠٥.
١٧- د. حسين القهواتي، المصدر السابق، ص ص ٤٣٧-٤٣٨.
١٨- ويلسون، المصدر السابق، ص ص ٤٣٢-٤٣٣.
١٩- د. جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص ص ٣٨١-٣٨٢.
٢٠- د. عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم، المصدر السابق، ص ص ٣٤٨-٣٤٩.
٢١- د. حسين القهواتي، المصدر السابق، ص ص ٤٣٨-٤٣٩.
٢٢- Busch, Britain and the Gulf, Los Angles, 1976, P. 296.
٢٣- د. مصطفى عبدالقادر النجار، التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب، البصرة ١٩٧٤، ص١٠٩.

٢٤- نقلا عن - د. حسين القهواتي، المصدر السابق، ص ص ٣٣٩-٣٤٠.

٢٥- د. عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم، السلام البريطاني في الخليج العربي، الرياض ١٩٨١، ص١٢٤.

٢٦- د. جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٣٨٢.

٢٧- د. عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم، السلام البريطاني، المصدر السابق، ص١٢٥.

٢٨- د. محمد مرسي عبدالله، دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها، الكويت ١٩٨١، ص ص ٤١-٤٢.

٢٩- د. عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم، السلام البريطاني، المصدر السابق، ص ص١٢٦-١٢٩.

٣٠- د. جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص ص ٣٨٢-٣٨٥.

٣١- د. محمد مرسى عبدالله، المصدر السابق، ص٤٧.

٣٢- Busch, op. cit, p. 274.

هـ

والصراع الاسلامي الصليبي في بداية الق

هرمز جزيرة صغيرة بيضاوية الشكل تقع في مدخل الخليج العربي على بعد ١٨ك. م من الساحل الفارسي، في الجنوب الشرقي من بندر عباس ويبلغ طولها ٩ ك. م، وعرضها ٥ ,٨ ك. م، وهي شديدة الحرارة في الصيف، وتسقط عليها أمطار قليلة في الشتاء لا تتجاوز سبع بوصات، وتربتها غير صالحة للزراعة بسبب ملوحتها، وندرة المياه بها، ولذا يجلب السكان الماء اليها من بندر

هرمز

العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي

بقلم : أ.د. شوقي الجمل

عباس والمناطق المجاورة لها في قرب تنقلها القوارب الصغيرة، وبالجزيرة عدد من الآبار الارتوازية لكنها لا تصلح لشرب الانسان، ولذا إتخذت الجزيرة طابعا تجاريا بحتا وجذبت اليها عدة عناصر لممارسة التجارة، فمعظم سكانها يشتغلون بالتجارة في التوابل والأرز، وبعض المعادن كالذهب والفضة، وكذلك الأقمشة الحريرية واللؤلؤ(1) .

وقد أدرك البرتغال أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية في الطريق التجاري بين الشرق والغرب أي بين آسيا وأوروبا فقد كانت التجارة تتبع أحد طريقين - طريق البحر الأحمر ومصر حتى موانيء البحر المتوسط، أو طريق الخليج الى الموانىء الشامية على هذا البحر، وبعد ذلك تقوم سفن جنوا أو البندقية بنقلها الى الموانىء الأوروبية، وظل الوضع هكذا حتى نجح البرتغال في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ووصلوا الى شرق القارة الافريقية والمحيط الهندي فعمدوا الى السيطرة على طريق التجارة التي كان يسيطر عليها العرب وعلى الموانىء والمراكز الهامة في هذه الطرق، كما حاولوا تحويل مسار التجارة للطريق الجديد الذي اكتشفوه بهدف أن تحل لشبونه وغيرها من موانيهم محل الموانىء القديمة فتصبح مراكز لتصريف تجارة الشرق بدلا من الموانىء التي كانت في أيدي المسلمين وتحت سيطرتهم فبعد أن نجح البرتغال في عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م في إكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ووصلوا الى شرق القارة الافريقية ومياه المحيط الهندي، إتجهت أنظارهم الى المراكز العربية لشرق القارة الافريقية والى البحر الأحمر والمحيط الهندي فبدأت صفحة من الصراع المرير بين هذه القوة الدخيلة على المنطقة وبين العرب الذين مارسوا النشاط فيها لقرون دون شريك ينازعهم السلطة فيها.

كما وصل البرتغال الى الهند، واستولوا على عدة مراكز على الساحل الغربي، وعين الملك البرتغالي عمانويل الأول (Don Manoel) أحد قواده فرانسيسكو دي الميدا (Fransesco de Almeida) حاكما للمستعمرات البرتغالية في الهند وأتخذ هذا الحاكم ميناء كوشن مقرا له[٢].

وفي هذا البحث سنلقي الضوء على صفحة من صفحات هذا الصراع الاسلامي الصليبي ودور هرمز فيه.

ونشير في البداية الى الأسباب التي تجعلنا نعتبر هذا الصراع العربي البرتغالي امتدادا للحروب الصليبية التي نشبت بين أوروبا والشرق الاسلامي والتي كان هدفها إنزال الهزيمة بالقوى الاسلامية والاستيلاء على الشام وإقامة امارات وممالك مسيحية فيها على رأسها مملكة بيت المقدس - فقد أسدل الستار على هذه

الحروب الصليبية منذ أربعة قرون قبل أن تبدأ البرتغال حملاتها الصليبية الجديدة.

وكانت البرتغال قد نجحت في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي في تكوين مملكة مستقلة بعد تخلصها من النفوذ العربي، وحملت البرتغال لواء حركة دينية جديدة بهدف تعقب القوى الاسلامية التي نزحت من شبه جزيرة أيبريا، والقوى الاسلامية الأخرى التي تساندها، وتطويقها، ووصلت أحلام البرتغال الى السعي للإتصال بملك الحبشة المسيحى الذى اشتهر في أوروبا بأسم القديس يوحنا (prester John) وذلك بهدف الاشتراك في حركة تطويق للدول الإسلامية، والقضاء على مصدر قوتها الذى يتمثل في الدعم الإقتصادى والتمويل المادى الناتج من التحكم في تجارة الشرق، والسيطرة على شرايين الملاحة التي تنقل عبرها هذه التجارة إلى موانىء البحر المتوسط ثم إلى أوروبا[٣].

ويبدو أن الحروب التي خاضها البرتغال ضد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية والتي انتصروا فيها ـ أعطتهم دفعة قوية وأثارت فيهم الحماس في الوقت الذى فترت فيه الروح الدينية والحماس الذى ساد أوروبا أيام الحروب الصليبية وأدى لهذه الحملات الغربية في تشكيلها وفي أهدافها التي وجهت للمشرق العربى.

والدليل على أن الدافع الدينى كان من أقوى الدوافع وراء حملات البرتغال الكشفية والاستعمارية أن الملك يوحنا ملك البرتغال - ووالد الأمير هنرى الملاح - صرح بأن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه أفراد البيت المالك الفخار - هو ميدان الجهاد ضد المسلمين، وأنه سيمنح أكبر وسام في بلاده لمن يجاهد في هذا الميدان، وكان هذا الشرف من نصيب هنرى الإبن الثالث للملك، وكان إغداق الملك عليه بالرتب من دوافع إستخفافه بالمخاطر في سبيل تحقيق الهدف الذي أعلن عنه الملك.

يضاف الى هذا أن هنري كان على رأس الجماعة التي عرفت باسم (جماعة الجزويت)، ونواتها بعض الفرسان الصليبيين الذين هربوا من جزر البحر المتوسط بعد تعقب المسلمين لهم فلجأوا الى البرتغال من أمثال ديجو كام (Diego Cam) وبارثليمو دياز (Bartholemo Diaz)

الذي وصل الى الطرف الجنوبي من القارة الافريقية عند رأس الرجاء الصالح، وكذلك فاسكو داجاما (Vasco Da Gama) الذي تابع حركة الزحف فوصل الى الامارات العربية بشرق القارة والى الهند - محققة لهذا الدافع القوي - دافع تعقب القوى العربية وتوجيه ضربة قاتلة للعرب بالقضاء على احتكارهم لتجارة الشرق وبذلك يجف مورد ثروتهم وقوتهم المادية والعسكرية.

وقد كان يصحب هذه الحملات البرتغالية، بعض رجال الدين المكلفين بالقيام بنشاط تبشيري في المناطق التي ترتادها القوات العسكرية[٤].

والدليل على أن الدافع الديني وراء الحركات الكشفية والاستعمارية البرتغالية والأسبانية بعد ذلك - أن البابوية باركت هذه الحركات، بل بادرت بالتدخل في فض النزاع بين الدولتين الاستعماريتين - البرتغال وأسبانيا - خشية أن يؤثر هذا النزاع على نشاط الدولتين[٥].

وأدركت القوى الاسلامية الهدف من وراء هذا النشاط البرتغالي المحموم - ولذا تصدت مصر المملوكية للبرتغال ونشاطهم في البحار الشرقية - كما تصدت لهم الدول الاسلامية الأخرى في منطقة الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية.

ومنذ وصول البرتغال الى المحيط الهندي وضعوا خطتهم على أساس:

١ - الاستيلاء على المراكز العربية في شرق افريقيا.

٢ - الاتفاق مع الحبشة - للقيام بعمل مشترك ضد القوى الاسلامية.

٤ - الهيمنة على هرمز ذات الموقع الاستراتيجي الهام في الخليج العربي.

٥ - تحويل تجارة الشرق - تجارة آسيا - للطريق التجاري الجديد وللسيطرة عليها، لتكون لشبونه هي المركز الرئيسي لتصريف هذه البضائع الى أوروبا.

وترتبط خيوط هذه الخطة فالهدف النهائي منها بأبعادها المختلفة - هو كما أشرنا سابقا - توجيه ضربة قاسية للمسلمين بالقضاء على قوتهم الاقتصادية وزعزعة نفوذهم السياسي.

وفيما يتعلق بالمراكز العربية في شرق افريقيا - فالمعروف أن العرب جاءوا الى هذا الساحل الافريقي من شبه الجزيرة العربية، ومن الساحل الجنوبي وساحل الخليج العربي

بالذات – واستقروا في هذه المناطق الافريقية، وأصبحت لهم تجارة زاهرة، وكونوا إمارات عربية في شرق القارة شهد بتنظيمها وتحضرها من زارها من الرحالة العرب والأجانب على حد سواء، ومعرفة العرب بساحل افريقيا الشرقي قديمة – ولكن يرجع الاستقرار العربي الملحوظ هنا الى القرن الثاني الهجري – الثامن الميلادي[٦].

وإذا علمنا أن المسافة بين عدن وزنجبار لا تتجاوز ١١٠٠ ميل وبين مسقط وزنجبار ٢٢٠٠ ميل تقريبا – أدركنا أن الامتداد العربي لهذه الجهات الافريقية – كان شيئا طبيعيا، فالقبائل العربية في جنوب شبه الجزيرة العربية وفي مناطق الخليج العربي بالذات – أو كما عبر عنها كوبلاند – بالجيران (Nex Door Neighbours) – كان لا بد أن تمد نشاطها، وتجارتها، وتنقل حضارتها الى سواحل افريقيا الشرقية[٧].

وبالاضافة الى عامل الجوار هناك عامل جغرافي مناخي آخر ساهم في هذا الوقت المبكر بالذات – في قيام هذه العلاقات بين العرب القاطنين على السواحل الجنوبية لشبه الجزيره العربية وعلى ساحل الخليج العربي وبين سكان السواحل الشرقيه لأفريقيا، ففي ديسمبر تهب الرياح التجاريه من الشمال والشمال الشرقي ويستمر هبوبها بانتظام حتى نهاية فبراير، ومن إبريل إلى سبتمبر ينعكس أتجاه الرياح فتهب من الجنوب الغربي، وبذا أصبح التجار الذين يبدأون رحلتهم في سفنهم الشراعيه من الشاطىء العربي في الشتاء يستعينون بقوة الرياح المؤاتيه في سفرهم جنوبا صوب الشاطىء الأفريقي بينما في أثناء عودتهم لأوطانهم في الربيع – بعد أن يكونوا قد قضوا بضعه شهور في التجارة – يجدون أيضا الرياح مؤاتيه للاتجاه صوب الوطن الأصلي.

وبمضي الوقت أصبحت للتجار العرب خبره تامة بمواقيت الرياح وأتجاهاتها فأصبحوا ينظمون مواعيد رحلاتهم، ومدة إستقرارهم بالساحل الأفريقي تبعا لمواسم الرياح المعروفة لهم.

كذلك من الأسباب الرئيسية التي دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه الجزيرة العربية (العمانيون، والحضارمة على وجه

الخصوص) - إنهم نشأوا في بيئة بحرية مثالية على سواحل شبه الجزيرة العربية، وكان ظهيرها في ذلك الوقت طارداً - فكان طبيعيا أن يتسللوا إلى شرق أفريقيا واستقروا في البدايةفي بعض الجزر الساحلية مثل مافيا، وزنجبار، وبمبا وفي المراكز الساحلية مثل سفالة، ومالندى، وكلوه، وممبسه، ودار السلام وإستطاعت هذه المجموعات أن تطبع مناطق واسعة من شرق القاره بلغتها ودمائها وأن تندمج مع السكان الأصليين ولاشك في أن الإستقرار العربي في الساحل الأفريقى المقابل للجزيره العربية حدث بهدوء وبدون اللجوء إلى القوة أو العنف، فالتاريخ لايذكر لنا حروبا أو معارك وقعت بين المهاجرين والسكان الأصليين.[٨]

وكان لسكان هذه المراكز نشاط تجارى كبير في غلات القارة الأفريقية، وفي مقدمتها المعادن. ومنها الذهب الذى كانت تجلبه القوافل من داخل القاره خاصة من مناطق المونوموتابا (Monomotaba) الى الساحل حيث يمكن نقله وتصريفه، هذا بالاضافة الى نشاط هذه الثغور في تسويق ما يرد لها سواء من بضائع ومنتجات الشرق الأقصى أو الهند أو الجزيرة العربية مما يحتاج اليها الأفارقة.

ولما كان من أهداف البرتغال من رحلاتهم الاستكشافية في المبدأ - اكتشاف الطريق للشرق، وكسر احتكار العرب لنقل بضائع الشرق وفي مقدمتها التوابل - الى موانىء البحر المتوسط المصرية والشامية لسد حاجة الدول الأوروبية من هذه المنتجات - فقد أطلق البعض على الاستعمار البرتغالي في البداية تعبير (استعمار البهار) على أن البرتغال تطلعوا لأن يبسطوا نفوذهم على الساحل الشرقي لأفريقيا ويحلوا محل العرب في هذا النشاط التجاري المثمر[٩].

ولتكتمل صورة هذا النشاط الذي أدى الى خروج العرب من شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج للساحل الأفريقي - لا بد من الاشارة الى الاستقرار العربي في السهول المحيطة بهضبة الحبشة بالذات إذ أن العلاقات بين حكام الحبشة وبين المسلمين الذين استقروا بالسهول المحيطة بالهضبة كانت عاملا رئيسيا في تطلع الحبشة لمعاونة القوة المسيحية لها في أوروبا في نضالها ضد

المسلمين في السهـول المحيطـة بها، وكـان وصول البرتغـال لمياه المحيط الهندي واتصالهم بالأحباش فرصة لتحقيـق أحـلام كـل مـن الطـرفين الحبشة والبرتغال.

فـالهضـاب الحبشيـة تترك بينهـا وبين ساحل البحـر الأحمر أو المحيط الهنـدي سهولا فسيحـة تغلب عليهـا الطبيعة شبـه الصحراويـة، والى هذه السهـول نزحـت جماعـات من البـدو ومن التجـار من شبـه جزيـرة العرب واشتغلت بالـرعي والتجارة، وانتشر الاسلام بينهم[١٠].

وأدت الأحداث السياسية في الدولة الاسلاميـة الى زيادة الهجـرة الى هذه المهاجر العربيـة، وتحدثنا المراجع عن بعض هـذه الهجـرات العـربيـة في العصـور المختلفـة الى هــذه المنطقـة المحيطة بهضبة الحبشة – مـن ذلك ما حـدث في عهـد عبدالملـك بـن مـروان ٧٥-٩٥هـ (٦٩٥-٧١٤م) فقـد اتبع هـذا الحاكـم سياسـة قبليـة في شبـه الجزيرة العربيـة – إذ استعان ببعض القبائل على البعـض الآخر فـاضطرت القبائل المغلوبة على أمـرها الى الهجرة خـارج شبـه الجزيرة – ومـن بينهـا قبيلة الأزد العمانية التي هـاجر أفراد منها الى هذه المناطـق المحيطة بهضبة الحبشـة، فلما وصلـت هـذه القبـائل الـزيـدية الى هنـاك وجـدت أن أبنـاء عمومتهم قد سبقوهـم في هذه المناطق وتسللـوا الى الـداخل حيث اختلطـوا بالسكـان الأصليين وساهموا في نشر الاسلام في هذه الجهات[١١].

وقـد شهـدت الفترة بين القـرنين الرابـع، والسابع الهجـريين (العاشر، والثـالـث عشر الميـلاديين) إزدهـار المراكـز الاسـلاميـة التـي قـامـت بـالسهـول المحيطة بهضبـة الحبشـة وزيادة عدد المستقرين بها، ومضاعفة نشـاطهـا الاقتصـادي – وقـد أطلـق المقريـزي عليها تعبير (ممالـك الطراز الاسلامي)[١٢].

والحقيقة ان الدور الذي لعبته هذه المراكز أو الممالك العربية الاسلامية في شرق افريقيا – في نشر الاسـلام سواء في الحبشــة ذاتها أو في غيرهــا مــن منـاطـق شرق افـريقيـا – يستحـق الـدراسـة – فقـد قامـت بها مـراكـز تجارية توافد عليها التجار من هضبة الحبشة ومـن غيرها من داخـل القارة الافـريقية، وكـان التجار يقيمـون في هذه المناطـق الساحلية بعض الـوقت، كما كـان تجار السـاحـل يتـوغلـون

للداخل - وترتب على هذا الاختلاط انتشار الاسلام واللغة العربية.

وإذا كانت هذه الممالك العربية في شرق الحبشة لم تخضع - باستثناء فترات قصيرة - لحاكم واحد يفرض سلطانه عليها جميعا ويوحد جهودها في مواجهة الأخطار المحدقة بها سواء من حكام هضبة الحبشة أو من غيرهم - فإن التاريخ يشير الى أن بعض هذه السلطنات أو الممالك - كما يطلق عليها المقريزي - استطاعت لفترة من الوقت أن تفرض سيطرتها على غيرها من السلطنات الاسلامية مثل (سلطنة شوه) التي أسستها أسرة عربية - أسرة بني مخزم في جنوب شرق الحبشة، وكما ظهرت بين هذه السلطنات سلطنة أخرى هي (سلطنة أوفات) التي كان لها نفوذها في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي بحيث استطاعت في عام ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م أن تهزم سلطنة شوه وأن تفرض سلطانها على باقي السلطنات بدلا منها[١٣].

على أن ظهور هذه السلطنات الاسلامية، ونجاحها في اخضاع باقي السلطنات تحت نفوذها مما جمع القوى الاسلامية في المنطقة المحيطة بهضبة الحبشة - أثار مخاوف حكام الحبشة.

وكانت الحبشة قد تغلبت على مشاكلها الداخلية واستطاعت الأسرة السليمانية[١٤] فيها أن تحقق الوحدة الداخلية وشعرت هذه الأسرة بخطر هذه السلطنات الاسلامية النامية التي حققت نجاحا ملفتا للأنظار سواء في المجال السياسي - كما ذكرنا - أو في المجال الاقتصادي فقد سيطرت على التجارة الخارجية مع العالم الخارجي والمناطق الداخلية في الحبشة وغيرها من مناطق شرق افريقيا ووسطها عن طريق البحر الأحمر بالذات مما جعل موارد الحبشة وعلاقاتها مع الخارج في قبضة المسلمين، وأدى هذا لإختفاء المدن الحبشية التي كانت في الماضي مزدهرة بالتجارة ومنها مدينة أكسيوم التي فقدت أهميتها بامتداد النشاط العربي على ساحل البحر الأحمر وسيطرة العرب على طرق القوافل بين ساحل البحر الأحمر والداخل.

وقد كان الأحباش يتابعون الصراع الاسلامي الصليبي في الشام - لكن وقوع عكا آخر معاقل الصليبيين في عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م في يد السلطان

خليل أنهى صفحة هامة من هذا الصراع - وإن كان لم ينه تماماً أحلام الصليبيين الخاصة بالعودة إلى بيت المقدس.

وتشير الوثائق التاريخية إلى أن الاتصالات بين ملوك الحبشة والبابوية من جهة وبين ملوك الحبشة، وملوك أوروبا من جهة أخرى كانت مستمرة بهدف مساهمة الأحباش في الحروب الصليبية، ومساندة القوى المسيحية من جهة أخرى للأحباش في حربهم ضد المسلمين، وقد لعب الرهبان الأحباش المقيمون في الدير الذى عرف بدير السلطان في القدس دورا في الاتصال بين ملوك الحبشة وباباوات روما وملوك أوروبا لتحديد الدور الذي يمكن أن يقوم به كل طرف - الأحباش والدول الأوروبية في الحروب الصليبية [١٥].

هذا على أن الحبشة وإن كانت لم تستطع أن تلعب دورا هاما في الحملات الصليبية على الشام - لكن وصول البرتغال إلى المحيط الهندى فتح الباب على مصراعيه أمام تحقيق هذا التعاون الحبشى الأوروبى في هذا الصراع ضد القوى الإسلامية سواء المتمركزة على حدود الهضبة الحبشية أو القوى الإسلامية في الشرق العربي وفي شبه الجزيرة العربية.

وبعد أن نجح البرتغال في الوصول إلى شرق القاره الأفريقية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح - أرسلوا في عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م أسطولا «كبيرا» من ثلاث وعشرين سفينة غادر ميناء لشبونة تحت قيادة فرانسيسكو دى الميدا بغرض تثبيت أقدام البرتغال في الأماكن الهامة بالساحل الشرقي للقاره الإفريقية خاصة المناطق الإستراتيجية التي تتحكم في الطريق التجارى الجديد والتي - كما ذكرنا - كانت السيادة التامة فيها للعرب الذين كانوا يعملون كوسطاء ينقلون منتجات الهند وغيرها من البلاد الآسيوية إلى أفريقيا، وكان العرب قد وصلوا من زمن بعيد إلى الصين واحتكروا لقرون هذا النشاط التجارى.

وقد أرسل القائد البرتغالى بعد دخوله إلى المحيط الهندى قوة إستولت على سفالة، وحاصرت كلوه واستولت عليها بعد قتال عنيف وتعرضت المدينة لأعمال النهب والسلب، وأشعل

البرتغال فيها النار إنتقاما من أهلها الذين قاوموا الغزو البرتغالى لبلادهم ببسالة - وأقام البرتغال حصنا بالميناء تركوا به حامية لهم، ثم تقدموا صوب ممبسه، وقد كانت في ذلك الوقت مدينة عظيمة قدر عدد سكانها بعشرة آلاف نسمة، وقد قاوم سكانها من العرب السواحلية القوة الغازية مقاومة عنيفة، ودافعوا عن كل شبر من أرض بلادهم حتى انتقل القتال إلى الشوارع الضيقة وداخل الدور - لكن أضطر الأبطال المدافعون أخيرا للتقهقر تاركين مدينتهم التي أشعل العدو فيها النار أيضا انتقاما من بطولة أهلها، وساعدت شدة الرياح في ذلك الوقت على سرعة إنتشار اللهب فأتى على كل شيء - حتى أن شيخ المدينة المنكوبة كتب إلى زميله حاكم ماليندى - يصف كيف وجدوا المدينة بعد عودتهم إليها بعد أن نهبها الغزاة البرتغاليون، وتركوها للنيران فقال لم يتركوا فيها أي كائن حي لا رجلا، ولا إمرأة، لاصغيرا ولاكبيرا - حتى الأطفال، فكل الذين فشلوا في الهروب قتلوا أو أحرقوا.. وختم خطابة بتحذيره من هذا الخطر الزاحف[١٦].

وفي سنة٩١٢هـ / ١٥٠٦م أرسل أسطول برتغالى آخر من أربعين سفينة تحت قيادة القائد الفونسو دي البوكيرك (Alfonso De Albyquerque) فاستولى على لامو، وبراوه، وعلى جزيرة سومطره.

وقد قدر البرتغال أهميتها الاستراتيجية فبنوا بها حصنا قويا ليكون قاعدة دائمة لعملياتهم البحرية في المحيط الهندي.

وفي سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٧م سقطت موزمبيق في يد البرتغال واهتموا بتحصينها وبنوا فيها مستشفى وكنيسة بالاضافة الى ثكنات لجيوشهم، واتخذوها قاعدة عسكرية لحكمهم في الساحل الافريقي الشرقي، وزار البرتغاليون مدغشقر (مالاجاشي)، كما اكتشفوا جزيرة سنت هيلانة، وامتد نفوذهم على الساحل الشرقي حتى سفالة جنوبا، أما في الشمال فقد اعتمدوا في بسط نفوذهم على صداقة شيوخ مالندي الذين استطاعوا أن يستميلوهم الى جانبهم بعد أن قدموا لأول مرة للساحل الشرقي للقارة مستغلين روح العداء التي كانت بين هؤلاء الشيوخ، وشيوخ ممبسه، وأقام البرتغاليون في ممبسه بعد سقوطها في أيديهم قلعة

حصينة كانت بمثابة العين الحارسة للنفوذ البرتغالي في هذه المنطقة، وكان لقائد هذه القلعة وكلاء في الموانيء المجاورة مثل كلوه، وبمبا، وزنجبار[١٧].

واتجه البرتغال بعد ذلك للسيطرة على البحر الأحمر وتحويل التجارة التي اعتادت أن تمر بهذا البحر في طريقها الى السويس ثم برا الى موانىء البحر المتوسط لتنقل الى الأسواق الأوروبية - الى الطريق الجديد - طريق رأس الرجاء الصالح.

وكان استيلاء البرتغال في عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م على جزيرة سوقطرة بموقعها الاستراتيجي الهام في مدخل البحر الأحمر - خطوة هامة في سبيل تحقيق أهدافهم في التحكم في هذا البحر والتجارة المارة به.

واتجهت أنظار البرتغال بعد ذلك الى ميناء جده، وقد أدرك المماليك أهمية حماية هذا الثغر، وذلك لحماية الأراضي المقدسة الاسلامية من أطماع البرتغال - فأرسلوا حملة بحرية على رأسها الأمير حسين الكردي، وقد حددت مهمة هذه الحملة في:[١٨].

١ - بناء سور ضخم ذي أبراج عالية حول جده لصد أي عدوان تتعرض له من البرتغاليين أو غيرهم، وحفر خندق يحيط بالمدينة من جميع جهاتها.

٢ - الاطمئنان على ثغور البحر الأحمر الأخرى، وفي مقدمتها سواكن على الساحل الافريقي، وعدن على الشاطىء الآسيوي، لمواجهة أي خطر تتعرض له.

٣ - التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين، وإجلائهم عن المراكز التي نزلوا بها في الشواطىء الهندية.

وقد حققت حملة الأمير حسين الكردي أهدافها، فأنجزت عملية تحصين جده وغيرها من ثغور البحر الأحمر، فقد قامت بمعاينة ثغور جيزان، وكمران، ومخا، وعدن وزودتها بحاجتها من المؤن وغيرها.

والتقي الاسطول المملوكي بالقرب من ميناء شول الصغير في عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م باسطول برتغالي مكون من ثمان وستين سفينة وساهم الاسطول الكمراني الى جانب الاسطول المملوكي فنشبت بين الطرفين معركة بحرية انتصر فيها الاسطول المملوكي. وقد أشار ابن إياس الى هذه المعركة فقال جاءت الأخبار بأن العسكر الذي توجه نحو

بلاد الهند صحبة الأمير حسين – قد انتصر على الفرنج الذين كانوا يعيشون في البحر، وغنم منهم العسكر غنائم كثيرة، فسر السلطان لهذا الخبر، وأمر بدق الكرسات فدقت ثلاثة أيام متوالية، ثم حسنا أرسل يطلب عسكرا ثانيا حتى يتقوى بهم على من بقى من الفرنج(١٩).

على أن الطرفين – المسلمين والبرتغال – كانا يعلمان أن الموقف لم يحسم نهائيا فكان كل منهما يستعد للمعركة الفاصلة القادمة، خاصة أن البرتغال أحسوا بالخطر المحدق بهم وبالمكاسب التي حققوها بعد وصولهم للمحيط الهندي – من اتجاه بعض الولايات على الساحل الغربي للهند لمؤازرة العرب في مقاومتهم للنشاط البرتغالي في هذه المياه التي دخلتها سفنهم أخيرا(٢٠).

ولذا أعد فرانسيسكو دي ألميدا نائب الملك في الهند أسطولا من تسع عشرة سفينة زودها بمعدات القتال المختلفة استعدادا للمعركة المرتقبة ضد الاسطول المملوكي.

كما أن السلطان المملوكي قانصوة الغوري إستعد هو الآخر للمعركة الفاصلة مع الاسطول البرتغالي – فقد كان يدرك النتائج الخطيرة التي ستترتب على زعزعة النفوذ السياسي والتجاري للمسلمين في المحيط الهندي والطرق المتفرعة منه – ولذا إتصل السلطان المملوكي بكل من يمكن أن يقدم له العون في هذه المعركة الحاسمة – إتصل بالسلطان بايزيد الثاني سلطان العثمانيين، كما اتصل بالبندقية وكانت مصالحها الاقتصادية تقتضي استمرار الطرق التجارية السابقة لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح. وقد قدمت الدولة العثمانية فعلا لمصر المملوكية من الآلات والأسلحة النارية وحتى الحبال معونة هامة كهدية – رغم ما كان قائما من منافسة بين الدولتين المملوكية والعثمانية – كما أرسلت البندقية الصناع والمهندسين وغيرهم للمساهمة في صنع السفن لمواجهة الخطر البرتغالي(٢١).

وأنشأ الغوري ترسانة بحرية ضخمة في السويس بالاضافة الى دور لصناعة احتياجات السفن في كل من الروضة، وبولاق، وهكذا كان كل طرف من الطرفين على استعداد للمعركة الحاسمة.

وفي سنة ٩١٥هـ / ٨ فبراير

١٥٠٩م التقى الأسطولان المملوكي والبرتغالي عند ديو في معركة فاصلة - إنهزم فيها الاسطول المملوكي - وقد تعددت آراء المحللين عن أسباب هذه الهزيمة الحاسمة التي لحقت بالاسطول المملوكي، فقد عللها البعض بأن البرتغال كانوا في عنفوان قوتهم، وفي قمة مجدهم العسكري والبحري، وكانت لهم مدارسهم البحرية التي أسهمت في تطوير نظامهم البحري والعسكري، وأنهم كانوا مدفوعين بدوافع دينية واقتصادية عنيفة، بينما كانت دولة المماليك دولة هرمة أنهكتها الصراعات المتعددة في أنحاء مختلفة من الدولة، وأن قوتهم البحرية التي جمعوها لمواجهة هذا الخطر البرتغالي كانت من عدة جهات ولم يكن قد مضى وقت كاف لخلق التجانس الضروري بين هذه القوات التي ستخوض معركة واحدة ومهما تكن الأسباب فقد كانت نتائج المعركة أكثر مما يتوقع الذين شعروا بهذا الخطر الوافد على المياه العربية من دولة أوروبية صغيرة بعيدة كل البعد عن هذه المياه التي كانت السيطرة فيها لسنوات عديدة - للعرب دون منازع.

فقد أنهت هذه المعركة عهد السيطرة الاسلامية على طرق التجارة في المحيط الهندي ونجح البرتغال في السيطرة على هذه التجارة وحولوا مساراتها وحاولوا العبث في مياه البحر الأحمر وفكروا في اغلاق هذا البحر أمام حركة الملاحة النشطة التي كانت فيه بحيث يصبح بحيرة راكدة.

أما دي ألميدا - قائد الاسطول البرتغالي - فقد ارتكب بعد هذا النصر الذي حققه اسطوله - فظائع تتنافى مع مبادىء الحرب والقتال، بل مع أبسط المبادىء الانسانية - فقد عامل الأسرى بمنتهى الفظاعة فعذب وقتل وأعدم من لم يصبحوا موضع خطر بالنسبة له - حتى أن سياسته هذه قد تعرضت لنقد الكتاب البرتغال أنفسهم.

وقد لقى دي ألميدا مصرعه بعد ذلك - وهو في طريقه الى لشبونه مزهوا بنصره - وخلفه كنائب للملك البرتغالي في الهند الفونسو دي البوكيرك (Alfonso De Albyquerque).

ومن النتائج المباشرة التي ترتبت على انتصار البرتغال على الأسطول المملوكى في معركة ديو البحرية - أن حكام الإمارات الهندية الذين كانوا

أبدوا تعاطفا مع المسلمين في نضالهم ضد الدخلاء البرتغال والذين كانوا يتطلعون لانتصار القوى الإسلامية المملوكية - إضطروا لإبداء إستعدادهم للتصالح مع البرتغال وتقديم العون لهم - وقد رحب البرتغال بذلك لأنه يتيح لهم الفرصة لتقوية نفوذهم في مياه المحيط الهندى ومنطقة الخليج العربي والساحل العمانى التي تركزت عليها أنظار هم باعتبار ها تمثل التوأم لمنطقة البحر الأحمر التي تتحكم في التجارة الشرقية الذاهبه لأوروبا.

على أن البرتغال لم تكتف بنقل التوابل وغيرها من بضائع الشرق التي كان العرب يمارسون نشاطهم في تبادلها. لكن تحول الأمر إلى أن أصبحت السلعة المتداولة بكثرة والتي تتحكم في المراكز والحصون البرتغالية - وفي سياستهم الإستعمارية هي العاج الأسود بالإضافة إلى البضائع الأفريقية الأخرى كالذهب والعاج - ومنذ أوائل القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى أخذ البرتغال يرسلون شحنات متتالية من الرقيق - وقد حدد عدد الرقيق الذين بيعوا في سوق لشبونة في ١٥١٠ بحوالى ١٠,٠٠٠ عبد.

وقد أحتكر البرتغال ولعدة قرون هذه التجارة - فأصبحوا يزودون الدول الأوروبية الأخرى المستعمرة بحاجتها من الرقيق وتكونت شركات برتغالية بقصد الإتجار في الرقيق، وحصلت هذه الشركات على مراسيهم بمزاولة هذا النشاط التجارى من البلاط الملكى البرتغالى[٢٢].

وقد اهتم ألبو كيرك بإحتلال جزيرة جوا (Goa). بالذات لأهميتها للبرتغال للسيطرة على باقي المراكز على الساحل الغربى للهند، وتبع ذلك موافقة سلطان كجرات للبرتغاليين على إقامة محطة تجارية وحصن لهم في ديو، وبالفعل عقد ألبوكيرك إتفاقا مع سلطان كاليكوت سمح لهم بموجبه بإقامة حصن فيها، وبعد أستيلاء البوكيرك على جوا نقل مقر إدارته في الهند إليها لتوسط موقعها على ساحل الهند الغربى، وهكذا ثبت البوكيرك نفوذ البرتغال على الساحل الهندى وأخذ يوجه جهوده لتحقيق باقى أحلام البرتغال في المحيط الهندى والبحار المؤدية إليه[٢٣]

وتعتبر فتره نشاط البوكيرك في هذه المنطقة والتي تمتد من ٩١٥هـ /

١٥٠٩م عندما عين نائب للملك في كوشن حتى وفاته في الهند في أواخر عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م - من أهم المراحل في تاريخ هذه المنطقة، وقد نجح البرتغال في تحقيق احلامهم الخاصة بتثبيت نفوذهم في الممالك الهندية على الساحل الغربي للهند - كما نجحوا في السيطرة على منافذ الخليج العربي والبحر الأحمر وفي ساحل أفريقيا الشرقي.

وإتصل ألبوكيرك بالإمبراطورة هيلينا الوصية على عرش الحبشة وحضها على إرسال مندوب عنها لمقابلة ملك البرتغال دون عمانويل للإتفاق على عمل مشترك ضد الأقطار العربية - وفعلا أوفدت الملكة في عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢م أحد اتباعها ويدعى ماتيوس إلى الهند لمقابلة ألبوكيرك، وقد زود ماتيوس ألبوكيرك بمعلومات قيمة عن الممالك العربية على الساحل الشرقي لافريقيا وفي السهول المحيطة بهضبة الحبشة، وقد سهل ألبوكيرك مهمة سفر ممثل ملكة الحبشة إلى البرتغال - لكن هذا المندوب الحبشى لم يعد للحبشة إلا فى عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م بسبب العقبات التي صادفته في الطريق، وقد كان الهدف الرئيسى من رحلته الحصول على موافقة الملك البرتغالى على تقديم المساعدة الحربية للحبشة لمواجهة النشاط الإسلامى في المحيط الهندى والبحر الأحمر، ولمؤازرة الحبشة في حروبها ضد الممالك الإسلامية في السهول المحيطة بهضبة الحبشة.

وأشير إلى أن هذه الممالك الإسلامية في شرق هضبة الحبشة والتي أطلق عليها المقريزى تعبير (ممالك الطراز الإسلامى) - كانت لها علاقات وطيدة مع حكام المسلمين وسلاطينهم خاصة في اليمن ومصر، ومع أشراف مكة، وهذا التأييد من حكام المسلمين وسلاطينهم كان من العوامل التي جعلت الحبشة تسعى للإتصال بالبابوية في روما، وبالملوك المسيحيين في أوربا لتقديم المساعدة الحربية لها، وللإتفاق على خطة لتطويق العالم الإسلامى، وكان وصول البرتغال إلى المحيط الهندى فرصة لتحقيق هذه الأحلام الحبشية [٢٤] أما فيما يتعلق بالبحر الأحمر والمنافذ المتحكمة في الملاحة فيه - فقد اتجه البوكيرك للاستيلاء على عدن لإدراكه أهميتها لتحكمها في الملاحة في البحر الأحمر. وقد أرسل في عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م

رسالة الى الملك دون مانويل يستأذن في مهاجمة عدن والسواحل اليمنية ثم الابحار بعد ذلك في البحر الأحمر للاستيلاء على الموانيء الهامة المطلة على هذا البحر، وفي خطابه للملك أشار البوكيرك الى الشائعات التي تتردد عن قرب عودة الاسطول المملوكي للبحر الأحمر والمحيط الهندي للانتقام مما لحق بالأسطول المملوكي من هزيمة في موقعة ديو البحرية، وقد أدت هذه الشائعات الى انتشار الاضطرابات في الهند ضد النفوذ البرتغالي، كما أشار البوكيرك في خطابه الى أهمية الاتفاق مع الحبشة على تيسير استخدام الاسطول البرتغالي لموانيء مصوع وغيرها من الموانيء الحبشية الصالحة لرسو السفن، وذلك للاستفادة منها في الحملات الموجهة ضد جده والموانيء الاسلامية الأخرى في شبه الجزيرة العربية[٣٥].

وبمجرد تسلم البوكيرك لرد الملك البرتغالي بالتصريح له بالقيام بحملته هذه في البحر الأحمر وموانيه غادر في عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م ملقا على رأس اسطول كبير من ٢٤ سفينة على ظهرها ١٧٠٠ مقاتل برتغالي، و١٠٠٠ من الهنود متجها الى عدن والسواحل اليمنية بهدف الاستيلاء عليها واغلاق باب المندب في وجه السفن المملوكية.

وفي ١٦ محرم ٩١٩هـ/ ٢٤ مارس ١٥١٣م بدأ الاسطول البرتغالي هجومه على ميناء عدن - بعد أن قام بعملية تخريب ونهب السفن الراسية في الميناء، ولم يستطع البوكيرك البقاء في الميناء - لأن حاكم المدينة استنجد بباقي موانيء ومدن شبه الجزيرة العربية واستبسل في مقاومة الغزاة.

وبعد أن قام البرتغال بتخريب وتدمير ما وصلت اليه أيديهم تقدموا في البحر الأحمر الى جزيرة مكران فاحتلوها، وقضوا على مظاهر الحياة بها وتركوها خرابا - لكن لم يتمكن البوكيرك من الابحار شمالا في اتجاه جده بسبب الرياح فعاد الى الهند.

واتجه البوكيرك بأنظاره الى جزيرة هرمز وكانت قد حدثت بها أحداث أدت لجلاء البرتغاليين عنها - وقد كان يحكم الجزيرة حاكم يدعى سيف الدين يدين بالولاء للشاه اسماعيل الصفوي، كما كان مرتبطا مع البرتغال بمعاهدة سمح لهم بمقتضاها باقامة قلعة في الجزيرة رفعوا عليها العلم البرتغالي - مما أثار

ضباط جيشه واستطاع أحدهم (الريس حامد) أسر الحاكم وتسلم الأمور بالجزيرة - وفي عام ٩٢١هـ/فبراير ١٥١٥م أقلع البوكيرك من جوا بالهند على رأس اسطول من ٢٦ قطعة بحرية عليها ١٥٠٠ مقاتل برتغالي، و٧٠٠ هندي متجها الى هرمز.

وعند وصول السفن البرتغالية الى الميناء أطلقت مدافعها على المدينة - مما دعا الريس حامد لطلب وقف اطلاق النار والتفاوض، وعاد البرتغاليون لاحتلال القلعة بالميناء ورفعوا العلم البرتغالي على قصر الحاكم، ووصل مندوب عن الشاه اسماعيل من ايران وتوصلت الأطراف المتفاوضة الى اتفاقية تقضي بما يلي:

١ - تعاون البحرية البرتغالية القوات الايرانية في الاستيلاء على البحرين والقطيف، وهو هدف كانت ايران تسعى لتحقيقه.

٢ - تساعد البحرية البرتغالية الشاه في قمع الحركة الانفصالية التي اشتدت ضد الدولة في اقليم مكران، ولتحقيق ذلك تحتل البرتغال جوادر.

٣ - قيام تحالف عسكري بين الطرفين لمواجهة العثمانيين.

٤ - يعين البرتغال نائبا عن الملك البرتغالي يقيم في القلعة البرتغالية في هرمز.

وعين البوكيرك ابن أخيه بيرو (Bero) قائدا لمرفأ هرمز وأعطى تعليماته بإصلاح القلعة وزيادة تحصينها.

وهكذا نرى ان ايران (الدولة الصفوية) في سبيل كسب حليف لها ضد العثمانيين الذين كانوا قد أخذوا يظهرون كقوة اسلامية كبرى في العالم العربي سلموا بتبعية هرمز للبرتغاليين.

ونشير الى أن جزيرة هرمز عانت منذ ذلك الوقت من مشاكل اقتصادية رغم موقعها الاستراتيجي والتجاري الهام وهذا بسبب خضوع حكامها للبرتغال، والتعهد بدفع مبالغ طائلة لهم للمساهمة في نفقات حاميتهم بالجزيرة، والقلعة البرتغالية بها التي أصبحت من أقوى القلاع البرتغالية في الطريق التجاري الهام بين الشرق وأوروبا، وظلت كذلك حتى عام ١٠٣٢هـ/ ١٦١٥م[٢٦].

وبعد أن نجح البوكيرك في توطيد نفوذ بلاده في هرمز - ترك ابن أخيه ليتم تحصين القلعة بها - حسب

الاتفـاق الـذي عقده مـع الايـرانيين، وقفل عائدا الى الهند على السفينة فلور دا روسا (Flor Da Rosa)، وكانت حالته الصحية قـد تدهـورت نتيجة الجهد الذي بـذله منـذ أن عين نائبـا للملك في الهنـد في ٩١٥هـ/١٥٠٩م. وبعـد وصوله الى جوامـات في عام ٩٢١هـ/ ديسمبر ١٥١٥م بعـد أن ألقيـت السفينة مـراسيها في الميناء - وهكذا أسدل الستار على حيـاة هذا البحـار البرتغـالي والإداري الـذي يعتبر المؤسس الـرئيسي لـلإمبراطـوريـة البرتغالية في آسيا.

وإذا كـان البوكيرك لم يحقـق كـل أحلامـه فلم يـوفق في الاستيـلاء على عـدن والابحـار في البحـر الأحمر لمهاجمة الموانـىء الهامة وفي مقـدمتها ميناء جده - لكن لاشك في أن تقاريره التي بعث بها في خطاباته لملك البرتغال بعـد جـولاته ـ كـانـت من أهـم مـا أسترشـدت بـه البرتغـال في رسـم سياستها تجاه البحر الأحمر والخليج العربي والمناطق الهامـة في هذه البحار التي كانت - سابقا قبل أن يصل إليها البرتغـال ويعكـروا صفـو النشـاط التجارى بها - بحارا عـربية لا تجرؤ على أن تمخـر عبابها أيـة سفينـة أوروبية.

وأهم ما أبرزه البوكيرك في خطاباته للملك دون عمانويل [٢٧]

١- ضرورة تقوية قبضـة البرتغال على المواقـع الهامـة في البحـر الأحمر والخليج العربي وفي مقدمتها عدن عند مـدخـل البحـر الأحمر، وهـرمـز في الخليج العربي.

٢- أهميـة القضـاء نهائيـا على ماتبقـى من قـوة المماليك البحـرية - رغم هزيمتهم في موقعـة ديو البحرية - فقد أشار إلى الشـائعات التي تتردد في الهند بـالذات عن حملات مملـوكية جـديدة تعـد لتـوجـه ضد البرتغـال، وذكـر أن هـذه الشـائعـات تشجـع المتمردين على النفوذ البرتغالى سواء في الهند أو غيرها من المناطق التي استولى عليهـا البرتغـال في البحـر الأحمر والمحيط الهندى.

٣- أشـار إلى أهميـة التعـاون مـع الحبشة للأتفاق على خطة موحدة ضد المسلمين، وفي هـذا المجـال أشـار إلى أهمية مينـاء مصوع التابـع للحبشة، وأهمية جـزر دهلك التابعـة لها أيضا والمواجهة لجدة.

٤- كذلـك أشار إلى أهميـة مؤازرة الحبشـة في حـربها ضـد القـوى

الإسلامية المتمركزه في السهول المحيطة بالحبشة.

٥- أشار إلى إمكانية مساندة البحرية البرتغالية للقوات الإيرانية لتثبيت أقدامها في هرمز والاستيلاء على البحرين والقطيف والقضاء على الحركات الانفصالية في إقليم مكران - وذلك فى مقابل قيام تحالف بين الطرفين - البرتغال والإيرانيين، على أن يسلم الشاه للبرتغاليين بحقهم في تقوية نفوذهم في القلعة المقامة في هرمز، وأن يدفع حاكم هرمز مبلغا من المال للبرتغاليين اعترافاً بالتبعية لهم.

٦- أوضح أهمية الربط بين النفوذ البرتغالى في موانىء ساحل الهند والنشاط في الخليج العربي، والبحر الأحمر - مما يحقق للبرتغال السيطره الكاملة على الملاحه في هذه المنطقة ويمكنهم من التحكم في تجارة الشرق، وإنهاء الإحتكار الذى كان المماليك يمارسونه ويمكن بذلك توجيه هذه التجارة إلى لشبونه أو غيرها من الموانىء البرتغالية لتصبح المركز الأساسي لتخزين هذه البضائع ونقلها بعد ذلك إلى الدول الأوربية التي تحتاجها.

لقد رسم البوكيرك الخطوط العريضة للسياسة البرتغالية والنشاط البرتغالى في منطقة البحر الأحمر والخليج العربى، وبموته في منتصف ديسمبر ١٥١٥م تطوى صفحة هامة من تاريخ هذا النضال بين القوى الصليبية الجديدة المتمثلة في البرتغال - وبين القوى الإسلامية التي كان لها النفوذ لسنوات طويلة في هذه الشرايين الملاحية الحيوية، وإذا كانت الضربات البرتغالية الموجة للبحرية المملوكية وحلفائها قد نجحت إلى حد كبير في أضعاف المماليك وحرمانهم مما كانوا يحصلون عليه من مكوس من بضائع الشرق الماره بموانيها - فإن الدولة العثمانية التي حلت محل المماليك في الشام ومصر

أ. د. شوقي الجمل
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بمعهد البحوث والدراسات الافريقية
بجامعة القاهرة

الهوامـــش

(١) مصطفى عقيـل الخطيب : التنـافس الـدولى في الخليج العربي (بيروت عام ١٩٨١) ص ١٧، ١٨٠.

(٢) ج. ج. لـوريمر: دليـل الخليـج القسم التـاريخى - إعداد قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر جـ ١، ١١، ١٢.

(٣) عبدالملك عودة: السياسة والحكم في أفريقيا - القاهرة ١٩٥٩م.

(٤) لمن يريد معلومات أكثر عن نشاط هذه الحملات البرتغاليه يرجع إلى:
James: Portuguese Africa (London 1951)

(٥) فض النزاع من البرتغـال، والاسبان على أساس معاهدة تورديسلاس (Tordesillas) التي بمقتضاها اقتسم الاسبان والبرتغال العالم خارج أوروبا - فيما بينهما، فكان من نصيب الاسبـان الامريكتان مـا عدا البرازيـل أما افريقيـا وآسيا فقد كـانتا مـن نصيب البرتغال.

(٦) Keltic, J. Scott: The Partition of Africa (London 1895) p.10

(٧) Coupland, R.:East Africa and Its Invaders (London 1959) p.155

(٨) لمن يريد تفاصيل كاملة عن هجرة العرب من شبه الجزيرة وساحل الخليج العربي الى شرق افريقيا ونشاطهم هناك يرجع الى:
شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (١٩٨٠) ص٤٥ وما بعدها.

(٩) Macmillan, W.:Africa Emergent (London 1919)

(١٠) قيل إن أول مسلـم هاجـر الى هذه المناطـق المحيطة بـالحبشة واستقـر بها هو ود بن هشام المخزومي وكان ذلك أيام خلافة عمر بن الخطاب - انظر:
زاهر رياض : تاريخ اثيوبيا (١٩٦٦) ص٥٦.

(١١) Trimingham, Spencer:Islam in Ethuopia (London 1952) p.86

(١٢) المقريزي : الإلمام بأخبار من أرض الحبشة من ملوك الاسلام
(نشرة د. رنك ، ص (٣٠).

(١٣) عـن هذه السلطنـات أو الممالك الاسـلامية وامتـدادها انظـر: شهاب الـدين أحمد بـن عبدالقادر الجزالي .
تحفة الزمان أو فتوح الحبشة. (نشرة رينيه باسيه - باريس ١٨٩٧م).

(١٤) أول ملوك البيت السليماني في الحبشـة يدعى (يكون أملاك)، وقـد حكم من ١٢٢٧ الى ١٢٨٥م بعد سقوط الأسرة الزغوية التي كانت تحكم الحبشة.

(١٥) دير السلطان - سمى بهذا الاسم نسبة الى السلطـان صلاح الدين الأيوبي لأنه بعد أن

استولى المسلمون على الدير أثناء الحروب الصليبية - حافظ صلاح الدين على الدير، وأمن رهبانه على حياتهم، وسمح لهم بالعيش ومزاولة نشاطهم كالمعتاد - أنظر: ستيفن رويسمان: تاريخ الحروب الصليبية.
(ترجمة د. السيد الباز العريني) جـ٢ ١٩٦٨ ص٨١.

(١٦) Duffy,games : Op. cit.P.28

(١٧) لمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع البرتغالي العربي في موانيء شرق افريقيا يرجع الى: شوقي الجمل : مرجع سابق ص١٧٤ وما بعدها.

(١٨) إبن أياس :بدائع الزهور في وقائع الدهور (تحقيق محمد مصطفى).
(القاهرة ١٩٦٠ - ٩٦٣) حـ ٤ ص٨٥.

(١٩) إبن أياس : مرجع سابق حـ ٤ ص١٤٢.
جزر كمران : تقع على بعد ثلاثة أميال من ساحل اليمن الشمالية وهي تابعة لليمن - ولمزيد من التفاصيل يرجع الى:
- حمزة علي لقمان : تاريخ الجزر اليمنية (بيروت ١٩٧٢).
- شول . كانت تابعة لملكة الدكن وهي تقع جنوب سلطنة كوجران.

(٢٠) كان ساحل الهند في ذلك الوقت مقسما الى عدد من الوحدات السياسية الصغيرة على كل حاكم خاص. وقد اشتهرت عدد من الموانيء الهندية الهامة مثل كاليكوت، وكوشن، وكناتور، وكولوم.

(٢١) ابن أياس : مرجع سابق حـ ٤ ص٨٤ وما بعدها . ولمزيد من التفاصيل يرجع الى: أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام (القاهرة ١٩٧٢).

(٢٢) تشرش ، ر. ج ، هاريسون : الاستعمار الحديث (الأصل ١٩٥١) الترجمة العربية ص٧.

(٢٣) لمزيد من التفاصيل يرجع الى : بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية
(ترجمة عبدالعزيز توفيق حامد - القاهرة ١٩٦٢).

(٢٤) عن الصراع بين الحبشة والممالك الاسلامية بالسهول المحيطة بها يرجع الى المقريزي : مرجع سابق.

(٢٥) أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، تاريخ الخليج من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين - (ترجمة عبدالقادر يوسف ى الكويت - ١٩٧٩) ص٢١٢.

(٢٦) صالح أوزيران : الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي
(ترجمة عبدالجبار ناجي - البصرة - ١٩٧٩) ص٧٩.

(٢٧) يحتفظ الأرشيف البرتغالي في لشبونة بالعديد من الخطابات المرسلة من نائب الملك - البوكيرك الى الملك دون عمانوفيل، ونشير بالذات لخطابه المؤرخ ٢ ديسمبر ١٥١٣، والخطاب المؤرخ ١٢ أكتوبر ١٥١٤.

سياسة مدحت باشا تجاه الخليج العربي

(١٢٨٦ - ١٢٨٩هـ) - (١٨٦٩ - ١٨٧٢م)



ترجع علاقة العثمانيين بالخليج العربي الى عهد السلطان سليمان القانوني الذي كان قد ارسل الى الخليج العربي حملة بحرية بقيادة محمد فروخ باشا الذي استطاع انتزاع اقليم الاحساء[١] من ايدي البرتغاليين ، فاحتلت قواته القطيف عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥٠ ثم زحفت بعد ذلك الى الهفوف عاصمة الاحساء فاحتلتها ، وعين ذلك القائد حاكما للاحساء فبنى في عاصمتها مسجدا عام ٩٦٣هـ/ ١٥٥٠م عرف فيما بعد باسم مسجد الدبس[٢] . وتلاه في حكم الاحساء عدد من الحكام الاتراك العثمانيين كان أخرهم عمر باشا الذي اطاحت به ثورة محلية قادها براك بن غرير زعيم بني خالد عام ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م . الذي قام بطرد العثمانيين من الاحساء وأسس اسرة حكمت البلاد حتى عام ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م حين تمكن السعوديون من القضاء عليها ، وادخال الاحساء ضمن اقاليم دولتهم الاولى[٢] . واتخذوا منها قاعدة للتوسع في بلدان الخليج وجنوب العراق ، مما اثار حفيظة الدولة العثمانية ، فحاولت استرجاعها من السعوديين اكثر من مرة ولكنها فشلت



بقلم
الدكتور
اسماعيل
ياغي
(السعودية)

في ذلك(٤) . واخيرا لجأت الى عاملها على مصر آنذاك «محمد علي باشا» فاحتل الدرعية عام ١٢٣٤هـ/١٨١٨م. ثم زحفت قوات ابنه ابراهيم باشا الى الاحساء فأدخلها في دائرة نفوذه

، ولكن تلك القوات اضطرت في العام التالي ١٢٣٥هـ/١٨١٩م الى مغادرة الاحساء تحت ضغط الدولة العثمانية ، وبتأثير من والي الدولة العثمانية على العراق الذي كان يعطف

على شيوخ بني خالد ، ويحاول ارجاعهم الى حكم الاحساء نوابا عن الدولة العثمانية والباب العالي . ولقد تم له ذلك ، الا ان الاقليم شهد بعد ذلك صراعا عنيفا بين القوى المحلية حتى عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م حين عادت القوات المصرية بقيادة « خورشيد باشا » فاحتلت الاقليم ثانية وحاولت ان تتخذ منه قاعدة للتوسع في بلدان الخليج ، ولكنها اضطرت ايضا الى الانسحاب من الاحساء تحت ضغط بريطانيا التي رأت في الوجود المصري تهديدا للنفوذ البريطاني في المنطقة .

ولقد ساعدت الدولة العثمانية في الضغط على « محمد علي » لكي ينسحب من الاحساء ، لأنها كانت تشعر بان وجود القوات المصرية فيها يشكل خطرا جسيما على وجودها في العراق[٥] .

وعلى أثر انسحاب القوات المصرية ، حاول العثمانيون جهدهم ان يحلوا محل الحكم المصري في شبه الجزيرة العربية وخاصة اقليم الخليج العربي ، ولكن بعد عزل والي العراق العثماني آنذاك « علي رضا » سنة ١٢٥٧هـ/١٨٤١م الذي كان يعطي ذلك الموضوع اهتماما خاصا ، قل اهتمام العثمانيين بأمور الخليج العربي ، فتركوا بذلك الباب مفتوحا لتدخل الطامعين في شؤون هذا الاقليم من امثال بريطانيا وفارس[٦] ، ولقد بدا ذلك واضحا عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧ حينما اصدرت الدولة العثمانية « فرمانا سلطانيا » يسمح بتفتيش السفن التي يشتبه بانها تعمل في الاعتداء على السفن الاجنبية . وكانت الدولة العثمانية قد اصدرت في حينه ايضا تعليماتها الى والي العراق ، لكي يعمل ما في وسعه لقمع مثل تلك الاعمال ، وكان ذلك ينذر بأن العثمانيين ربما ارسلوا الى مياه الخليج اسطولا لكي يشارك في الاشراف على التفتيش البحري عن المعتدين ، مما دعا « هينل » المقيم البريطاني في الخليج الى ان يحتج على ذلك زاعما ان الدولة العثمانية تهدف من وراء ذلك الى تقوية نفوذها على سواحل الخليج . وجاءت معارضة بريطانيا هذه لتكشف لنا تراجع الدولة العثمانية عن الاهتمام بأمور بلدان الخليج ، اذ لم تقابل ذلك الاحتجاج بتنفيذ سياستها التى اعلنت عنها ، بل تركت لبريطانيا القيام بدور البوليس البحري وشرطي المرور في مياه الخليج العربي[٧] .

استراتيجية الدولة العثمانية في الخليج (١٢٨٧ - ١٣٣٢هـ) - (١٨٧٠ - ١٩١٣م)

في اعقاب حرب القرم ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م ، أعاد العثمانيون بناء جيوشهم على اسس حديثة ، وزودوها بأسلحة متطورة ، وذلك بفضل

المساعدات المالية التي قدمتها بريطانيا لهم . فاختطت الدولة العثمانية سياسة جادة لتوطيد نفوذها في جزيرة العرب في عهد السلطان العثماني عبدالعزيز ١٢٧٨ - ١٢٩٤هـ - ١٨٦١ - ١٨٧٦م . وتقوم هذه السياسة على الاسس والركائز الآتية :

١ - امتلاك الدولة العثمانية لاسلحة وقوة لم يسبق لها مثيل من قبل ، جعل الدولة تقرر اخضاع المناطق النائية من الامبراطورية ، الامر الذي أدى الى مضاعفة الدولة العثمانية لحامياتها في كل من الحجاز وعسير واليمن ، مع التركيز على المناطق الساحلية ، وبخاصة مناطق شرقي جزيرة العرب ، وكانت فكرة الدولة العثمانية ترمي الى تطويق جزيرة العرب من جميع سواحلها لتمنع التدخل الاجنبي في شئونها ، وهذا يوضح مدى التطلعات العثمانية في رسم استراتيجية جديدة اقوى في الجزيرة العربية[٨] .

٢ - رغبة الدولة العثمانية في وقف تسلل النفوذ البريطاني في منطقة الخليج العربي . وذلك بعد ان رأى السلطان عبدالعزيز اهتمام الدول الاوروبية ببلدان الشرق العربي على اثر فتح قناة السويس سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م[٩] .

٣ - رغبة السلطان العثماني في اخضاع القبائل على حدود بلاده ، وكذلك اخضاع المناطق النائية من الدولة .

٤ - اعتبر السلطان العثماني نفسه وارثا للخلافة العربية الاسلامية ، الأمر الذي بنى عليه ملكيته لشبه الجزيرة العربية . لذا نجده يجرد حملة على الاحساء في نفس الوقت الذي يجرد فيه حملة على اليمن من اجل احكام الطوق على الجزيرة لمنع التدخل الاجنبي الدولي في شئونها .

٥ - تعيين مدحت باشا[١٠] . رجل الدولة القوي والطموح واليا على العراق العثماني ، مع اطلاق يده بكل حرية في بسط نفوذ الدولة العليا في الاتجاه الذي يراه الوالي مناسبا لاستراتيجية الدولة في المنطقة[١١] .

٦ - عودة الاهمية التجارية الى طريق الخليج العربي وطريق البحر الاحمر بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م ، مما زاد من التنافس الدولي للسيطرة على هذه الطرق الهامة .

وهناك عدة عوامل ساعدت الدولة العثمانية للعودة الى الخليج وهي :

١ - الصراع على السلطة في نجد بين ابني فيصل بن تركي : عبدالله وسعود ، حيث قدم الصراع فرصة سانحة لمدحت باشا لكي يحقق

اهدافه ، خاصة عندما استنجد عبدالله بن فيصل بوالي بغداد لاعادته الى العرش بعد ان اقصاه اخوه سعود ، فأعد والي بغداد حملة عسكرية لارسالها الى الاحساء ونجد هدفها الظاهري اعادة عبدالله الى الحكم لأن الدولة العثمانية اعتبرته حاكما شرعيا معينا من قبلها كقائمقام لنجد وتوابعها . وليس هذا فحسب ، بل ان الدولة العثمانية اعتبرت فيصل بن تركي قائمقاما عثمانيا وان السلطات الانجليزية لم تستطع انكار ذلك ، وهكذا يمكن اعتبار عبدالله وريث فيصل بن تركي تابعا للدولة العثمانية بالوراثة كقائمقام من وجهة النظر العثمانية . كما ان فيصل كان يدفع مبلغا من المال للدولة العثمانية (١٢).

٢ ـ عمل مدحت باشا منذ توليه ولاية بغداد على تبني فكرة رجال الاصلاح العثمانيين الذين كانوا يدعون الى التوجه بانظارهم الى الاقطار الآسيوية من الامبراطورية لكي يعوضوا ما خسرته الدولة في البلقان . وأخذ مدحت على عاتقه مد سيطرة الدولة العثمانية على بلدان الخليج ، ولكي يحل النفوذ العثماني المباشر محل السعوديين في حكم الاحساء ونجد .

٣ ـ تعتبر الدولة العثمانية نجد وملحقاتها جزءا من الامبراطورية العثمانية كالحجاز واليمن وعسير ، دل على ذلك احتجاج والي بغداد « احمد توفيق باشا » عام ١٨٦١م الى « كمبول » القنصل البريطاني في بغداد بشأن مهاجمة الانجليز لميناء الدمام والاعتداء عليه وقد صرح والي بغداد في احتجاجه بأن فيصل بك قائمقام عثماني وان الدمام اراض عثمانية لا يحق للبريطانيين مهاجمتها(١٣) .

وكان كمبول قد ارسل نسخا من تلك الرسالة مع تعليقه عليها الى كل من السفير البريطاني في القسطنطينية والى حاكم الهند ، وقد اكد في رسالته انه لا يستطيع انكار ان الامير السعودي تابع للدولة العثمانية وان منطقة الدمام تابعة له(١٤) .

٤ ـ في عامي ١٨٦٩ ، ١٨٧٠ جرت احداث هامة . ففي السنة ١٨٦٩ تم افتتاح قناة السويس وبذلك تم ربط البحر المتوسط بالبحر الاحمر وربط قارتي آسيا وافريقيا بأوربا ، كما شهد العام ١٨٧٠ ظهور دولتين اوربيتين استعماريتين هما المانيا وايطاليا ودخلتا الميدان الاستعماري ، لذا فان الدولة العثمانية رأت أن تعيد سيطرتها في آن واحد على كل من اليمن وعسير في

البحر الاحمر والاحساء في الخليج في عام ١٨٧١ لتطويق الجزيرة العربية وحمايتها من الاستعمار الاجنبي .

٥ ـ قيام الدولة بتطبيق الاصلاحات في الدولة وخاصة التنظيمات العسكرية التي قامت بها الدولة في اعقاب حرب القرم (١٨٥٢ ـ ١٨٥٦م)[١٥] . هذا بالاضافة الى العناية الخاصة التى اولتها الدولة العثمانية للشئون العامة في ولاياتها الشرقية ، بعد ان ساد ولاياتها في اوروبا جو من الهدوء النسبي على اثر حروب خاضتها الدولة في الداخل والخارج . وندلل على هذا بما ذكره مدحت باشا في منشوره الى اهالي الاحساء عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م حين يقول ان الدولة العثمانية لم يكن لديها وقت تلتفت فيه إلى الحوادث الجارية في قلب جزيرة العرب وذلك « لكثرة المحاربات الواقعة في جميع الجهات ..»[١٦] .

استعدادات مدحت باشا لاحتلال الاحساء والخليج :

نفذت الدولة العثمانية من خلال واليها على العراق مدحت باشا خطتها لاحتلال الاحساء بمنتهى السرعة للاسباب الآتية :

١ ـ الخوف الشديد من التدخل البريطاني في المنطقة ، وبخاصة بعد قيام بريطانيا بمد يد العون والمساعدة للامير سعود عن طريق حاكمي مسقط والبحرين . ورأت الدولة العثمانية ان نجاح بريطانيا في مثل هذه المهمة ، يعني تحكمها مستقبلا في مصير العراق العثماني .

٢ ـ ادعت الدولة العثمانية ان الامير سعود بن فيصل يعتدي على قوافلها التجارية .

٣ ـ وادعت كذلك انها تريد وضع حد للفوضى السياسية في نجد[١٧] .

وهكذا بدأ مدحت باشا يعد العدة لاحتلال الاحساء والخليج ، واجرى استعدادات للحملة بصورة سرية وبتكتم شديد وبسرعة فائقة على غير عادة الولاة العثمانيين ، اذ حذر مدحت اتباعه من وصول المعلومات للانجليز ، فلم يعلم بها قنصل الانجليز في بغداد ، وكانت السلطات البريطانية قد علمت بهذه الاستعدادات في اواخر عام ١٨٧٠م ، فاستفسرت عن ذلك ، فأكد الصدر الأعظم عالي باشا ان ليست هناك اية نية في احتلال اي مركز في الخليج او القيام بأي حملة عسكرية[١٨] .

أرسل مدحت باشا الى الاحساء بعض عيونه ، واشترى لهم سلعا ، فذهبوا الى هناك على هيئة تجار ، حيث اقاموا هناك شهرين ، رصدوا

خلالهما تحركات قوات «سعود بن فيصل» ووقفوا على اخبار مواقعها وقلاعها وتحصيناتها، وعادوا الى مدحت باشا يقدمون نتائج رحلتهم تلك ليكون على علم تام باتجاه قواته في سيرها والاماكن التي سترسو فيها سفن الحملة، والقلاع التي ستهاجمها، والطرق التي ستسلكها، وكان بذلك يضمن انه لا يرسل تلك الحملة الى المجهول، ويتركها فريسة لغارات البدو، ومجاهل الصحراء، وكمائن قوات سعود بن فيصل(١٩).

وهكذا كانت الامور قد افلتت من ايدي السلطات البريطانية التي حاولت جهدها ان تمنع ارسال تلك الحملة، ولكنها عندما تأكدت ان لا مفر من ذلك راحت تستفسر في هذه المرة عن وجهة الحملة وقد انتاب السلطات البريطانية قلق شديد، لأنها كانت قد تلقت في مارس من العام الماضي ١٨٧٠م تصريحا خطيرا لمدحت باشا اعتبر فيه ان البحرين تابعة لنجد، وانها بدورها تابعة للدولة العثمانية(٢٠). ولذا اصبحت مهمة السلطات البريطانية ان تعرف قبل كل شيء اذا كانت الحملة ستتعرض للبحرين ام لا؟ وبالرغم من ردود السلطات العثمانية المطمئنة الا ان الشكوك ظلت تساور الانجليز تجاه نوايا العثمانيين. وقدموا للصدر الاعظم مذكرة حول كراهية مدحت باشا للنفوذ البريطاني في الخليج(٢١).

والواقع ان مدحت باشا كان يعتقد جازما بأن السلطات البريطانية تقدم المساعدات «لسعود بن فيصل» لتثبيت اقدامه في الاحساء ونجد، ولكي يكون لها النفوذ الكامل في مياه الخليج خاصة بعد ان عقدت مع قطر معاهدة ١٨٦٨م. وبذلك اصبحت الامارات الواقعة على الساحل الغربي للخليج من مسقط جنوبا الى البحرين شمالا ترتبط بمعاهدات مع الدولة البريطانية، ولم يبق الا سواحل الاحساء وامارة الكويت، حيث كانت هذه الاجزاء غير مرتبطة بالانجليز وبامكانه ان ينطلق منها لتوسيع نفوذ بلاده في الخليج. وكان مدحت باشا قد اعلن صراحة في ابريل عام ١٨٧١ ان السيادة العثمانية اصبحت ممتدة لتشمل نجدا، وان حملة ستزحف لتثبيت «عبدالله بن فيصل» كقائمقام عثماني، وأكد مدحت ان الهدف من الحملة ليس الاستيلاء على نجد، بل لتوثيق الروابط القائمة بينها وبين الدولة العثمانية، وكبح جماح سعود بن فيصل وانهاء اعماله العدوانية(٢٢).

وسنتناول الآن سياسة مدحت باشا تجاه كل من امارات الخليج من اجل توطيد نفوذ الدولة العثمانية وانجاح خطته باحتلال الاحساء واعلان تبعية الكويت للدولة العثمانية .

مدحت باشا والكويت[٢٣]

أخذ مدحت باشا يعمل منذ وصوله الى بغداد على بسط سيادة الدولة العثمانية على كافة اقطار الخليج ومنها امارة الكويت ، وقد حاول قبله الوالي نامق باش ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م ان يحول سيطرة الباب العالي الاسمية على الكويت الى سيطرة فعلية . وطلب لهذا الغرض سفينتين من الآستانة ، غير ان ذلك لم يتم لرفض اهل الكويت دفع الضرائب ، هذا بالاضافة الى رغبتهم في الاستقلال . وقد اكد قبل ذلك عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م الشيخ صباح شيخ الكويت للمقيم السياسي البريطاني ان حكام الكويت كانوا دائما يدفعون الضريبة لتركيا [٢٤].

وكان معظم اصحاب السفن في الكويت يلجأون الى رفع الاعلام الاجنبية وبخاصة الاعلام الانجليزية حتى يتمتعوا بالامتيازات الممنوحة للرعايا الانجليز في ولاية بغداد[٢٥] .

وفي اثناء زيارة مدحت باشا للكويت في العام التالي لولايته على الكويت قضاء عثمانيا تتوارثه اسرة آل صباح. ونص الفرمان على أن يقوم شيخ الكويت الذي يحمل لقب القائمقام بتنظيم شئونه الداخلية وأن ترفع السفن الكويتية العلم العثماني وتعهد لأصحاب هذه السفن بألا يأخذ منهم ضرائب أو جمارك [٢٦] .

وعين في الكويت مأمور للحجر الصحي من قبل الدولة العثمانية اسمه ابراهيم افندي وظلت الكويت خاضعة للنفوذ العثماني حتى عام ١٣١٧هـ/١٨٩٩م حيث ارتبطت بمعاهدة مع الانجليز وقعها الشيخ مبارك بن صباح شيخ الكويت مع ممثل بريطانيا[٢٧] .

ويبدو ان هناك عدة اسباب دعت الكويت الى قبول التبعية العثمانية غير المباشرة . وراحت بناء على ذلك تشارك مشاركة فعاله في حملة الاحساء وكان لها دور هام في انجاحها ، واهم تلك الاسباب هي :

١ ـ ان شيوخ الكويت كانوا لا يرغبون في الانفصال عن الرابطة الاسلامية التي جسدتها الدولة العثمانية .

٢ ـ ان شيوخ الكويت كانوا يملكون اراضي في البصرة ، وكان العثمانيون يهددون بقطع ايراداتها عندما تتعارض سياسة شيوخ الكويت مع

سياستهم .
٣ - ان الكويت كانت تخشى معارضة الدولة العثمانية ، خاصة ان الكويت آنذاك لم تكن مرتبطة مع دولة كبرى بمعاهدة حماية تجيز لها التدخل لحمايتها عندما تتعرض للخطر .
٤ - ادرك مدحت ما لأسطول الكويت من فاعلية ، وما لشيوخها من تأثير على بلدان الخليج ، فاستغل ذلك لانجاح حملته(٢٨) .

وأيا ما كان الأمر . فأن تبعية الكويت لم تكن مباشرة تماما كما هي الحال بالنسبة للاحساء ، فلقد ترك مدحت باشا شؤون الكويت الداخلية لشيخها يصرفها حسب تقاليد البلد ، ولقد علل مدحت باشا عدم التدخل في شؤون الكويت بأن هذا البلد ينعم بالاستقرار ، ويطبق الشريعة الاسلامية في احكامه وانه ليس بحاجة الى قوة ضابطة عثمانية(٢٩) .

وكان مدحت باشا قد اسقط حق عبدالله بن فيصل من الاحساء بعدما علم بهربه ورفضه العودة لمقابلته ، فقرر مدحت باشا اعادة الاحساء الى السيادة العثمانية المباشرة فأصدر اوامره بانهاء حق عبدالله في السيادة على الاحساء(٣٠) .

راح مدحت باشا بعدئذ يضع تشكيلا اداريا جديدا للاقليم اصبحت الاحساء بموجبه متصرفية يطلق عليها اسم «لواء نجد» وعين قائد حملته الفريق محمد نافذ باشا متصرفا للاقليم ، وقسم ذلك اللواء الى ثلاثة اقضية هي : الهفوف وهي مركز اللواء ومكان اقامة المتصرف ثم قضاء القطيف وقضاء قطر ، وجعل من قضاء القطيف مركزا لتمويل الاقضية الثلاثة الأخرى، وعين على قضاء قطر « جاسم ثاني » كقائمقام ويساعده قائد عثماني يشرف على الحامية العثمانية هناك(٣١) . وقد ذهب بعض الباحثين ان تلك التشكيلات الادارية شملت الكويت اذ جعلوها تتبع متصرفيه الاحساء . وايدهم في ذلك الدكتور/عبدالعزيز نوار في كتابه (تاريخ العراق الحديث) اذ قال :... وكانت البصرة خلال عهد مدحت باشا متصرفية وكذلك نجد . وكانت متصرفية البصرة تنقسم الى :

أ - البصرة
ب - المنتفق
جـ - العمارة(٣٢) .

وأما متصرفيه نجد فكانت تضم الكويت والاحساء(٣٣) .

ويبدو ان ضم الكويت الى متصرفية الاحساء قبل احتلال العثمانيين الأخير يكشف لنا ان مدحت كان قد خطط مع الباب العالي فاستصدر فرمانات خاصة بذلك بعد ان نالت

رضا حكومة الآستانة المسبق ، وربما كانت هذه الانباء هي التي جعلت « عبدالله بن فيصل.» يهرب من الاحساء قبل ان يصلها مدحت وقبل ان يعلن عن التغييرات الادارية هذه ، لأن عبدالله كان قد ترك لنافذ باشا خطابا يخبره فيه بأن العثمانيين قد غدروا به وانتزعوا منه السلطة بدلا من ان يعيدوها له[٣٤] . وسنتناول الآن سياسة مدحت باشا ازاء الاحساء وارساله الحملة العسكرية لاحتلالها واعادة السيطرة العثمانية عليها .

مدحت باشا والاحساء :

منذ وفاة فيصل بن تركي[٣٥] امام الدولة السعودية الثانية وتولي ابنه عبدالله بن فيصل الحكم ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م ، بدأت الفتنة بين اولاد فيصل ، فقد شق سعود عصا الطاعة في وجه أخيه عبدالله ، وفي سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م أعلن الحرب على اخيه واستمرت الحروب بينهمافترة طويلة من الزمن انتهت بانتصار سعود واستيلائه على الحسا ، واحتلت عساكره قلاع « الهفوف » و« المبرز » و« القطيف » . ثم تقدم الى بلدة الرياض عاصمة نجد ، وكان عبدالله معسكرا فيها فأصبح الأخير في موقف حرج فلم ير لنفسه ملجأ سوى الاستعانة بمدحت باشا والي العراق حيث ارسل له رسالة مع رسول يستنجده ضد أخيه[٣٦] ، وقد لاقى طلب عبدالله بن فيصل عند مدحت كل ترحيب وقبول ، وذلك ان الدولة العثمانية في عهد السلطان عبدالعزيز ١٢٧٨ ـ ١٢٩٣هـ/ ١٨٦١ ـ ١٨٧٦م كانت تسعى الى تركيز دعائم الحكم في شبه جزيرة العرب خاصة بعد فتح قناة السويس سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م مما هيأ للاسطول العثماني الالتفاف حول بلاد العرب للوصول الى الخليج العربي[٣٧] بعد ان قربت قناة السويس المسافة بين تركيا والجزيرة العربية .

وكان مدحت باشا قد وضع خطة محكمة ترمي الى ضم جميع الامارات العربية المستقلة في نجد وسواحل الخليج العربي الى الدولة العثمانية[٣٨] . لذا رأى في استنجاد عبدالله فرصة مناسبة لتثبيت سيادة الدولة العثمانية على الساحل الشمالي للخليج العربي بحجة اعادة الامن الى نصابه في ممتلكات السلطان النائية ، وبحجة ان سعودا اذا ما تمكن من الانتصار على أخيه فانه سيعمل على ادخال البلاد تحت حماية حلفائه الانجليز ، مما يؤدي الى اتاحة الفرصة للحكومة البريطانية للتحكم في

العراق ، وتظاهر مدحت ان الهدف من حملته هو تقديم العون لعبدالله الذي حـل اخـوه سعـود محلـه في الرياض[٣٩] .

كتب مدحت باشا الى الباب العالي وشرح له هذه المسـألة الحيـوية فوضعها الصدر الاعظم عالي باشا على بساط البحث في مجلس الوكلاء ، واخيرا اعطى مدحت باشا التأمينات اللازمة وأرسلت له حكومة الآستانة باخرتين هما لبنان واسكندرية وأمرت آلايـا (لواء) من مشـاة الفيلق الخامس بالسير الى بغداد ليحل محل عساكر فيلقها الذين سيتوجهون الى نجد طبقا لاشارة مدحت باشا . وقبل ان يرسل مدحت قواته الى الحسا اراد الوقوف عـلى قوة أهلـه وعددهم ومواقعهم فأرسل بعض الجواسيس والعيون بزي تجار ليستطلعوا الأمر ، وأقاموا في الحسا مدة شهرين وقفوا خلالهما على قوة سعود الحربية وقلاعه وعدد رجاله ، والاماكن التي يمكن ان تقف فيها السفن ، وعادوا بهذه المعلومات الى مدحت باشا[٤٠] .

ورغم السرية التامة التي كان مدحت باشا يحرص عليها في هذا الصدد ، فقد استطاعت كل من حكومة الهند ولندن الاحاطة بتفاصيل تلـك الحملة عن طـريق القنصل البريطاني في مصر ، وعن طريق الكولونيل هربرت القنصل البريطاني في بغداد ، وقد تحرجت بريطانيا من هذه الحملة وأحدثت قلقا شديدا في دوائرها[٤١] .

ويرجع تخوف بريطانيا وقلقها من حملة مدحت باشا على الاحساء الى العوامل الآتية :

١ ـ خشية بريطانيا من ان تقوم الدولة العثمانية بالسيطرة على طول السواحل الغربية في الخليج وايصالها بالسواحل العربية للبحر الاحمر من اجل احكام الحصار حول جزيرة العرب .

٢ ـ خشية بريطانيا من قيام فارس بابقاء اسطولها في الخليج لتحقيق مطالبها فيه اسوة بتركيا .

٣ ـ خشية الحكومة البريطانية من قيام تركيـا بمهاجمـة فارس من الخليج .

٤ ـ ان نجاح الحملة في القضاء على قوة سعود سيمكن الدولة العثمانية من بسط نفوذها في الخليج ولن تستطيع بريطـانيا منـع السيادة العثمانية على الخليج[٤٢] وبريطانيا تسعى للسيطرة على الخليج بدون منازع .

وأيا ما كان الأمر ، فبالرغم من قلق بريطانيا أعلن مدحت باشا بصراحة سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م بأن السيادة العثمانية اصبحت ممتدة الى نجد ،

وأكد مدحت باشا بأن هدف هذه الحملة ليس الاستيلاء على نجد وانما هو توثيق الروابط القائمة بينها وبين الدولة بابقاء سيادة الدولة عليها ، وتوطيد دعائم الامن بالقضاء على اعمال سعود العدوانية(٤٣) .

حملة مدحت باشا على الاحساء

تحركت قوات مدحت باشا سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م(٤٤) وكانت تتكون من خمسة طوابير من المشاة مع بعض الفرسان ورجال المدفعية تحت قيادة الفريق نافذ باشا(٤٥) وبمساعدة ناصر باشا السعدون شيخ المنتفق ، كما اشتركت الكويت في تزويد هذه الحملة بقوات من المتطوعين ، بالاضافة الى اكثر من ثمانين سفينة من سفنها لنقل اللوازم الحربية ، كما ساعد الكويتيون الحملة بقوتين : الاولى بحرية بقيادة عبدالله بن صباح والثانية برية بقيادة مبارك اخو الشيخ عبدالله(٤٦) واشتركت ايضا قبيلة بني خالد انصار عبدالله في هذه الحملة ، وتقدمت هذه القوات الى رأس تنورة ، ومنها الى القطيف التي تحصن بها أعوان سعود ، ولكن القوات العثمانية دخلتها بسهولة(٤٧) .

وبعد ذلك اتجهت القوات العثمانية الى المبرز والهفوف وقد سلمت كالقطيف وبذلك سقطت قاعدة الاحساء ورفع العلم العثماني عليها(٤٨) . ثم اتجهت القوات العثمانية الى قلعة عنك فسلمت لهم ومنها الى قلعة الدمام وكان المأمور عليها من قبل سعود بن طحنون الذي سلم بعد مقاومة بسيطة ودخلها الجيش وكان محمد الفيصل مسجونا في هذه القلعة ، وقد اطلق الجيش العثماني سراحه(٤٩) ولعل السبب في سرعة تقدم القوات العثمانية في الاحساء هو ان سعودا كان يعتمد على بعض القبائل وكان هؤلاء قد أساءوا معاملة سكان الاحساء فكانت الكراهية لهم مسيطرة على اهالي الاحساء الذين تخلوا عنهم ورحبوا بالحكم العثماني وتعاونوا معه(٥٠) .

وبعد ان تم لمدحت باشا الاستيلاء على مقاطعات الاحساء اطلق عليها اسم لواء نجد(٥١) وذلك وفق خطة احتلال نجد كلها . ولذا فانه عين عبدالله الفيصل قائمقاما على نجد ، كما ارسل الى منطقة الاحساء قوة من رجال الضابطة (الامن) ونائبا للشرع ومأمور مالية ، فأدرك عبدالله الفيصل بأن حملة الاحساء لم يكن هدفها حمايته من اخيه واعادته الى الحكم نائبا عن السلطان العثماني

وخاب ظنه ببقاء القوات العثمانية في الاحساء وابعاده عن سلطاته الادارية[٥٢] ، ولذا فان عبدالله هرب من الاحساء ورفض قبول دعوة مدحت باشا له بالعودة لمقابلته ، الامر الذي حفز مدحت باشا على زيارة الاحساء للاطمئنان على الحملة ودراسة الاوضاع عن كثب وذلك لتطبيق الادارة العثمانية في الاقاليم الاحسائية والنجدية[٥٣] .

وأيا ما كان الامر فقد استقرت القوات العثمانية في الاحساء ، وكان عددها يبلغ نحو ٣٤٠٠ جندي ، وكانوا موزعين على النحو التالي ٢٥٠٠ جندي في الهفوف و ٥٠٠ جندي في القطيف و ١٥٠ جنديا في مواقع صغيرة متفرقة على الطريق[٥٤] غير ان هذه القوات ما لبثت ان تناقصت بسبب الامراض التي تفشت بين الجنود ، واصابت الحمى عددا كبيرا منهم ، هذا بالاضافة الى رداءة التجهيزات . ويذكر لوريمر ان ثلث هذه القوات كانوا من الجنود المرضى غير القادرين على العمل ، وسجل القائد التركي اسماء ٩٠٠ رجل من اهل البلاد كجنود اتراك في مقابل ست روبيات في الشهر لكل منهم ، فلما بلغ مدحت باشا الخبر عزم على السفر الى الاحساء للتفتيش على الجيش وتدعيمه ببعض الامدادات اللازمة[٥٥] .

وكان سعود قد استعان بالقبائل وبحكام البحرين ، مما حدا بمدحت باشا على التوجه الى الاحساء لتثبيت قواعد حكمه قبل استفحال امر سعود[٥٦] . واما عبدالله الفيصل فقد هرب من الاحساء واتجه الى الرياض ورفض العودة لمقابلة مدحت باشا مما اسقط حقه في الحكم كقائمقام . وكان عبدالله الفيصل يأمل ان يحكم نجد والاحساء باسم آل سعود على ان يتبع الدولة العثمانية تبعية اسميه فخاب ظنه فيما اراد .

وفي منتصف شهر شعبان ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م سافر مدحت باشا الى الاحساء ليرى نتيجة عمله بأم عينيه ، وقد توجه من شط العرب الى الكويت حيث قضى فيها يوما ومنها توجه في ثلاث سفن تجارية تحمل قوارب كبيرة الى القطيف ، وفي ٢١ من الشهر نفسه نزل على رأس فرقة عسكرية مكونة من ٣٠٠ جندي الى العقير ومنها سار الى الهفوف . وتهدف هذه الزيارة الى التحقيق في بعض اتهامات التخريب وان يقرر الادارة في الاحساء ثم يضع ترتيبات لتقدم القوات التركية الى الرياض ، ولكنه وجد حامية الاحساء في حالة يرثى لها بسبب انتشار الامراض بينهم ، فأصبحت لا تستطيع الدفاع

عن نفسها . وقد ذكر مدحت باشا في تقرير رفعه الى الصدر الاعظم ان قواته اشتبكت مع قوات سعود الفيصل المؤيد من عرب العجمان وآل مرة والبالغ عددها اكثر من سبعة آلاف شخص وقد انهزموا وقتل منهم ٥٠٠ الى ٦٠٠ شخص وجرح من جيش مدحت باشا حوالي سبعة الى ثمانية انفار الى جانب شهيدين[٥٧] .

حاول مدحت باشا اقناع عبدالله الفيصل بالعودة وتسلم وظيفته « قائمقام » غير انه رفض ، ولذلك فقد عزل بأمر من مدحت باشا[٥٨] .

أصدر مدحت باشا وهو في الاحساء اعلانا الى الاهالي في جمادى الأخرة سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م وعد الاهالي فيه باسقاط الرسومات التي تؤخذ منهم بمختلف انواعها والاقتصار على الزكاة والعشر الشرعي ، ووعد المخالفين لهذه الاوامر بالجزاء الشديد . وهذا نص الاعلان : « قد اسقطنا الرسومات التي تؤخذ من الاهالي باسم الجهاد وخدمات المأمورين على تحصيل الزكاة والزيادة في الحرص المخالف للاحكام الشرعية ، ومراد الدولة العلية ترقية احوال التبعة وزيادة ثروتهم ، وامرنا بالغائها وعدم اخذها ، ونبهنا المأمورين بعد تحليفهم على عدم الزيادة على الواجب الشرعي ..[٥٩] .

وقد تعرضت القوات العثمانية في الاحساء لهجمات عديدة من سعود الفيصل ، الا ان تلك القوات العثمانية كانت تتغلب عليه وتهزمه بالرغم من كثرة اتباعه من القبائل ، مما فت في عضد القوات العثمانية في الاحساء[٦٠] .

وقد رفع مدحت باشا تقريرا عاما مطولا الى الصدر الاعظم بتاريخ ٢١ شوال ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م ذكر فيه ان منطقتى الاحساء والقطيف هما من اخصب مناطق نجد ، وذكر انه قرر جباية عشر المحصول وحث في تقريره على زيادة الاراضي المزروعة بدلا من تركها بورا ، وأصدر تعليماته بتعمير هذه الاراضي . كما اوصى بانشاء عدد من الابراج والمخافر والثكنات وغيرها من مبان لازمة للجنود والموظفين في الاحساء والقطيف ، ورفع مدحت الى حكومته في الآستانة مذكرة تتضمن بيان المصروفات اللازمة لهذه المشروعات وغير ذلك من الرواتب . وقد وافق السلطان على ما جاء في هذه المذكرة واحالها الى وزارة المالية لاكمال اللازم[٦١] .

وقد وصل مدحت باشا وهو في نجد برقية من وزارة الداخلية ، تطلب فيها ضغط ميزانية نجد ، وقد رد مدحت باشا بتقرير مؤرخ ٢١ شوال ١٢٨٨ هـ ذكر فيه انه ابقى جزءا يسيرا من

الجنود والخيالة قوامه تسع كتائب من مجموع ٧٣ كتيبة ، وجزءا من الموظفين وسرح الباقي ، وذكر كذلك انه انشأ اكثر من ستين مخفرا لطابور من الجنود ، وستبلغ مصاريف هذا الطابور ١٥ حمولة قرش ، وقد رابطت اربع كتائب من هذه العساكر المسرحين فيها لادارة شؤون الحدود(٦٢) .

وذكر مدحت باشا انه نتج عن ضغط الميزانية توفير ١٦ حمولة وكذا ألف قرش ، وعن الغاء الوظائف توفر ١٠ حمولات و ٩٠ ألف قرش ، وكذلك أدى الغاء الوظائف الزائدة قبل خمسة شهور تقريبا الى توفير ١٢ حمولة قرش ، ونتج من قلب الوظائف وادماج بعضها في البعض توفير ١٥ حمولة و ٩٣ ألف قرش ، وختم مدحت باشا تقريرة هذا بقوله : « ... ولو أني غير مرتاح لكل هذا ، ولكني اجريته نزولا على رغبة معاليكم ..»(٦٣) .

وبعد ان انهى مدحت باشا ترتيباته في الاحساء غادرها بعد ان أقام فيها شهرين ، وأخذ معه عددا من المرضى والجرحى من حامية الاحساء ثم توجه الى بغداد بعد ان كان في نيته الذهاب الى البحرين ولكنه عدل عنها ، وأرسل لها عارف بك قومندان فرقة البصرة البحرية لبناء ما يلزم من مستودعات الفحم اللازم للسفن العثمانية ومعاينة منابع الماء وغير ذلك من الضروريات(٦٤) .

وهنا قد يرد تساؤل ما مدى أهمية حملة الاحساء ؟ وما أثر هذه الحملة على تأكيد السيادة العثمانية على امارات الخليج العربي ؟ وللاجابة على هذه التساؤلات لا بد ان نشير ونذكر بأمانة جهود مدحت باشا الكبيرة في هذا المجال ، وما قدمه من خدمات جليلة للدولة العثمانية ، ولكن الاحداث التي وقعت في الاحساء بعد عزل مدحت باشا عن ولاية بغداد تدل على ان الجهود التي قام بها تعتمد على طموحه الشخصي وتنبع من روحه الحية وهمته العالية الطموحة وسياسته الموفقة الهادفة التي ترمي الى بسط السيادة العثمانية على مناطق واسعة في الخليج العربي والتصدي للنفوذ البريطاني والاجنبي في الخليج .

اما اهمية حملة الاحساء وأثرها على تأكيد السيادة العثمانية على امارات الخليج العربي فهو اثر ضعيف ، وكان من الممكن ان تظهر فاعلية تلك الحملات لو استمرت الدولة العثمانية وولاة بغداد الذين خلفوا مدحت باشا ، بنفس الاسلوب والجهد الذي بذله مدحت باشا . فقد استبدت الحامية العثمانية في الاحساء وحكمت حكما استبداديا

يتسم بالظلم والجور ، حيث استغل الموظفون العثمانيون السلطة في ايديهم وكبدوا الاهالي دفع ضرائب باهظة . وقد كان مدحت باشا أيام ولايته يقف في وجه هؤلاء المستبدين ويحقق في الصغيرة والكبيرة ، لذلك استثنى القبائل من دفع الضرائب فيما عدا ضريبة العشور . اما الذين خلفوه فقد اهملوا متابعة هؤلاء المستبدين ، ونتيجة لهذا الظلم عمت المنطقة موجة من التذمر ، وأخذوا يفكرون في الثورة على حكم الاتراك العثمانيين ، وهكذا عجز الاتراك العثمانيون عن تأمين المنطقة من اللصوص وقطاع الطرق ، وكثرت الثورات القبلية وتدهورت الناحية التجارية ، وضعفت الحامية العثمانية في الاحساء وانتشرت الامراض والاوبئة بينهم ، كما تعرضت الحامية لهجمات متكررة من سعود بن فيصل واخوانه ، ورغم محاولات الدولة العثمانية اصلاح ادارتها في الاحساء الا انها لم توفق لأن العشائر قد فقدت الثقة بها ووسمتها بخلف الوعود ، ولكن الدولة العثمانية كانت مشغولة في حروبها مع روسيا في عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م[٦٥] وهذا يبرر موقفها هذا ونلتمس لها العذر .

وأيا ما كان الأمر ، فقد ضعفت اقتصاديات المنطقة نتيجة لكثرة الحروب ، وعلاوة على ذلك ، فقد قلت رغبة الاتراك في الاحتفاظ بهذه المنطقة فلم يستفيدوا منها فائدة ملموسة ، فقد كلفتهم مصروفات فادحة فأوعزوا الى ناصر باشا السعدون متصرف البصرة عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م ان يسحب القوات التركية العثمانية فسحبها وارسل بدلها قوات من الاكراد والقبائل العربية[٦٦] . فكان هذا ايذانا بتقلص نفوذ الاتراك العثمانيين في هذه المنطقة وزواله .

وفي تصوري ان هناك عدة عوامل ادت الى تلك الحالة المضطربة وأهمها :

١ ـ عدم قدرة العثمانيين من السيطرة على قبائل البادية، فعجزوا تماما وخاصة في آواخر عهدهم عن اشاعة الأمن في ربوع الاقليم، ولم تكن سيطرتهم تتعدى أسوار المدن التي يقيمون فيها، بل كانوا يتعرضون هم أنفسهم لغارات رجال القبائل[٦٧].

٢ ـ تعدد حكام الدولة في الاقليم « المتصرفون » وقصر المدة التي كان يقضيها كل واحد منهم في منصبه ، بحيث لا يتسنى له معرفة احوال الاقليم ، وكان من الصعب على اي منهم ان يتبنى سياسة اصلاحية اذ لم يكن

يسعفهم الوقت للاستمرار في تطبيقها ، فقد بلغ عدد هؤلاء المتصرفين في الفترة ما بين ١٨٧١ - ١٩١٣ حوالي عشرين متصرفا(٦٨) .

٣ - ان الطابع العثماني في الاحساء ظل طابعا عسكريا ، وكانت نفقات الحاميات تستأثر بالقسم الاكبر من ميزانية الاقليم التي كانت تعتمد في الدرجة الاولى على الضرائب التي كانت تجمع من الاهالي ، فقد بلغت عوائد الاقليم في عام ١٩٠١ حوالى ٦٠ الف ليرة ، كانت نفقات رجال الجيش العثماني منها حوالي ٥٤ الفا ، وما بقي منها لا يكفي بالطبع للخدمات المدنية الاخرى ، مما اضطر الدولة لاتباع سياسة الضرائب التصاعدية لكي يتوازن الدخل والمنصرف ، ففي عام ١٩٠٥/١٩٠٦ ارتفعت مدخولات الجمارك ٢٧,٥٪ عن السنة السابقة ، وفي العام التالي اضطرت الدولة الى رفع تلك العائدات ١٢,٥٪ ايضا(٦٩) .

٤ - ادت حملة الاحساء الى قيام صراع بريطاني عثماني في منطقة الخليج مما ساعد على زيادة الاضطراب في المنطقة اذ ان بريطانيا كانت تشجع القبائل وتعطيها الهبات والعطايا للقيام بثورة ضد العثمانيين ، كما ان بريطانيا كانت تشجع سعود بن فيصل للثورة ضد العثمانيين .

٥ - محاولات آل سعود المستمرة لانهاء الوجود العثماني في الاحساء حتى نجح اخيرا الملك عبدالعزيز آل سعود في احتلال الاحساء عام ١٩١٣م .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ما هو موقف الاهالي في الاحساء من الاستراتيجية العثمانية التي رسمتها الدولة العلية في منطقة الخليج ؟

ان الواقع الاجتماعي في الاحساء اثبت ان الاستراتيجية العثمانية في المنطقة لم تكن موفقة . وفي اعتقادنا ان هذا يعود لسببين رئيسيين هما :

١ - لأن الدولة العلية لم تف بالوعد الذي منت به اهالي المنطقة ، فكان هذا سببا في فقدان الدولة للقاعدة الشعبية والتأييد السكاني في المنطقة اللذين يعتبران من اهم عوامل تركيز الاستراتيجية ونجاحها .

٢ - اعتمدت الدولة العثمانية على القوة العسكرية بدلا من اعتمادها على تحقيق العدالة الاجتماعية ورفاه الشعوب ، الامر الذي نفر الناس من هذا الاسلوب وترك المجال مفتوحا امام حالات الاضطراب والفوضى .

ان الواقع الاجتماعي لأهل الاحساء كان يخالف تماما ما جاء في منشورات الدولة التي اذاعتها على الاهالي . فازدادت الضرائب وعم المنطقة حالات من التذمر والسخط أدى الى الانفجار الشعبي الذي تجمع عند مقر حكومة متصرفية نجد ، بحجة ان السعر الذي حددته الحكومة للتمر زائد ومضر ، فأغلقت الدكاكين مدة ما . وهذا يدل على عدم الانسجام بين الاهالي واسلوب الحكم العثماني كما ان اغلاق الدكاكين

يعتبر رفضا للاستراتيجية العثمانية[٧٠] .

كما ان طبيعة الحكم الاستبدادي تكون دائما من اهم العوامل التي تجلب نقمة الاهالي ، وهذا ما حدث بالفعل في منطقة الاحساء عندما عمت المنطقة موجة من السخط ضد العثمانيين[٧١] .

وهذه الامور حدثت بعد عزل مدحت من ولاية بغداد ، اذ ان فترة الحكم العثماني ابان وجود مدحت باشا في بغداد حوالي سنة ونصف السنة تقريبا ولكن الولاة الذين تسلموا أزمة الحكم في بغداد لم يستطيعوا القيام بما قام به مدحت باشا ، فساد الاضطراب والفوضى وكثرت الفتن والثورات حتى اضطرت الحامية العثمانية للخروج وقيام قوات عربية بديلة من العراق تحت اشراف ناصر السعدون بحماية المنطقة .

وأيا ما كان الامر فقد اتخذ الاتحاديون فيما بعد من حملة مدحت باشا على الاحساء محور ادعائهم لتأكيد السيادة العثمانية على بعض مناطق الخليج في وجه السياسة البريطانية في هذه المنطقة وكان اثر هذه الحملة واضحا في الكويت حول تأكيد علاقة شيوخ تلك الامارة بالدولة . كما ادت الى سيادة السلطان الى حد ما على السعوديين في داخل الجزيرة العربية . كذلك ظهر اثر الحملة واضحا في كل من قطر والبحرين ، اما بالنسبة للجنوب فقد ادت حملة الاحساء الى نتائج عكسية فقد اسرع الانجليز الى تشديد قبضتهم على امارات الخليج وعقدوا معها معاهدات لخوفهم من اتساع النفوذ العثماني جنوبا مع أن الدولة العثمانية بعد نهاية ولاية مدحت باشا على العراق قد اهملت التوسع في مشيخات الساحل العماني[٧٢] .

تلقى نافذ باشا قائد الحملة العثمانية على الاحساء وهو بالهفوف دعوة من قاسم بن ثاني حاكم قطر ، حيث اراد الأخير التخلص من قيود تعهدات ابيه محمد بن ثاني مع الحكومة البريطانية ، هذا بالاضافة إلى التخلص من دفع الرسوم المفروضة على قبائل قطر لشيوخ البحرين ، فأعلن خضوعه للدولة العثمانية ، ورحب مدحت باشا بهذه الدعوة ، ذلك انه كان يخشى من محمد بن ثاني الذي كان يعتنق الدعوة السلفية من ان يعمل على شد أزر السعوديين بالاضافة الى خضوعه للانجليز[٧٣] لذلك خرجت قوة عثمانية احتلت قطر ، وكانت هذه القوة تتألف من عشائر بدوية كويتية بقيادة عبدالله الصباح ، وقد اتخذ من مدينة الدوحة مركزا لها[٧٤] .

وعلل مدحت باشا غزوه لقطر بأن سعود الفيصل وغيره من المنشقين تأتيهم الاسلحة والمؤن والأرزاق عن طريق البحرين ، ثم انهم اخذوا يضغطون على مشايخ قطر وسكانه فاستنجد قاسم ووالده محمد بمدحت

باشا ، وطلبوا ارسال قوة تؤيدهما ، فأرسل لهم الأخير قوة على سفينة حربية هي يونية بقيادة القائمقام عمر الذي أعاد الهدوء ثم رجع إلى الاحساء بعد حوالي ٣٥ يوما(٧٥).

وفي عام ١٢٨٨هـ/يوليو ١٨٧١م عين مدحت باشا قاسم بن ثاني قائمقاما على قطر ، كما اقام فيها محطة للفحم ومرسى للسفن وثبت حامية عثمانية في البدعه ، ولم يسكت الانجليز على هذا التصرف فقد بعث الكولونيل البريطاني في بغداد الى مدحت باشا يذكره بأن هذا العمل مخالف للتأكيدات التي سبق ان ادلت بها الحكومة العثمانية . فأجاب مدحت على ذلك بأن التعهدات المشار اليها خاصة بالبحرين رغم انها ـ اي البحرين ـ من توابع نجد وقد ادت هذه الحملة على قطر الى احراج بالغ لمركز محمد بن ثاني الموالي للانجليز ، فقد ذكر الميجر سيدني سميث مساعد المقيم البريطاني في الخليج حينما زار قطر ان قاسم بن ثاني يرفع الراية العثمانية ، بينما لا يزال محمد بن ثاني يرفع راية الصلح البحري(٧٦) .

وذكر سميث في مقابلته لقاسم بن ثاني ان الأخير زعم ان بعثة عثمانية برئاسة شيخ الكويت عبدالله بن صباح وصلت الى البدعة وقدمت له رسالة من الحكومة العثمانية تلتمس تعيينه قائمقام واقامة حامية عسكرية في بلاده ، وكان هذا الالتماس مصحوبا بتهديد عسكري اذا لم يقبل العرض ، وحفظا للسلام ، فقد قبل العروض العثمانية لأنه لم يجد حامية بريطانية كافية ، وواظب قاسم بن ثاني على رفع الراية العثمانية ودفع الضريبة لمتصرف الاحساء . هذا وقد بلغ الدخل السنوي من الزكاة التي تدفعها قبائل قطر للدولة العثمانية عشرة آلاف قران ، وحاولت الحكومة البريطانية ايقاف التدخل العثماني فأرسلت احدى المدرعات الى مياه قطر ، وطالب قائدها باسم شيخ البحرين بالمبالغ السنوية التي يدفعها لشيخ البحرين ، غير ان القطريين رفضوا المطالب البريطانية واعلنوا انهم رعية عثمانية ، فردت الدولة العثمانية على هذا الاجراء البريطاني بارسال سفينتين حربيتين الى قطر بحجة حمايتها من عدوان البحرين عليها(٧٧) .وفي نفس الوقت رفع الباب العالي احتجاجا الى الحكومة البريطانية بشأن العدوان البريطاني على ارض عثمانية فرد وزير خارجية بريطانيا اللورد جرانفيل على هذا الاحتجاج بأن

حكومته لا ترغب في التدخل في شؤون الخليج الا فيما يختص بحفظ الأمن والسلام طبقا لنصوص المعاهدات الخاصة بذلك ، وعلى الرغم من ترحيب قاسم بن ثاني بالعثمانيين واعتماده عليهم في تثبيت سلطته في قطر الا انه ثبت انه في بعض الاحيان حاول التقرب من الانجليز ، ولكنهم لم يتسجيبوا له ، بل على العكس كانوا يعمدون الى الضغط المتكرر عليه حتى يتخذوا من ذلك سببا من اسباب العداء بينهم وبين قاسم (٧٨).

وبمجيء العثمانيين الى قطر برزت مشكلة جديدة وهي مشكلة خورالعديد وكانت تسكن هذه المنطقة قبيلة القبيسات ، وهذه القبيلة هاجرت من ابوظبي بزعامة خادم بن نهيان فرارا من حكم البوفلاح . وكان الشيخ خادم يطمح في تكوين امارة مستقلة اسوة بجيرانه ، وقد كاتب المقيم البريطاني سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م بشأن هذا الموضوع وطلب الحماية البريطانية على منطقته ، حيث رأى انها السبيل لتكوين امارته ، غير ان بريطانيا لم تتخذ موقفا واضحا ازاء هذه المنطقة ، الا انها اعتبرته تابعا لقطر عند عقد الاتفاق مع آل ثاني ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م (٧٩) خاصة وان شيخ قطر جاسم بن ثاني ارسل اعلام الدولة العثمانية الى شيخ القبيسات ليرفعها على العديد .

غير ان المصالح الخاصة املت على الانجليز اعتبار خور العديد جزءا من أبوظبي وذلك بعد مجيء العثمانيين الى هذه المنطقة ، واتصالهم بشيخ القبيسات لأن بريطانيا كانت تخشى من هذه المشيخة الصغيرة كي لا تنضم الى الدولة العثمانية كما فعل آل ثاني . وقد ادرك الشيخ زايد بن خليفة حاكم ابوظبي هذه المخاوف الانجليزية واستغلها ، فادعى بأن الترك العثمانيين راسلوه مطالبين بخور العديد وانهم ارسلوا علما عثمانيا الى بطي بن خادم شيخ القبيسات الجديد . وهكذا دفع بالانجليز الى استخدام القوة لاجبار شيخ القبيسات على رفع علم الهدنة البحرية ، ولكنهم لم يعلنوا رسميا ان الخور جزء من امارة ابوظبي الا في سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م (٨٠).

أما موقف بريطانيا من الوجود العثماني في الخليج فيتسم بالرفض والمعارضة المطلقة وذلك خشية احكام الدولة العثمانية سيطرتها على الجزيرة العربية كاملا ، وخشية محاولة الفرس تقليد العثمانيين فيحذون حذوهم بتكوين اسطول لهم

في مياه الخليج . ولهذا اعتبرت السلطات البريطانية في الخليج وضع قطر تحت سيطرة العثمانيين المباشرة تحديا لنفوذها واحراجا بالغا لموقفها في المنطقة . لذا احتجت بريطانيا على ازدياد قوة الاسطول العثماني في الخليج العربي وكذلك على توسع العثمانيين في قطر . وكان البريطانيون ينطلقون في احتجاجهم هذا من تصوراتهم لمطامع مدحت باشا الذي كان ينظر الى حدود نجد نظرة اشمل من نظرة البريطانيين ، فكانت نجد في نظرة تمتد لتشمل كلا من قطر والبحرين وبلدان الساحل المهادن وحتى مسقط ذاتها(٨١) ، فردت الدولة العثمانية على الاحتجاج الانجليزي بتأكيد حقها في زيادة اسطولها في الخليج .

سياسة مدحت باشا ازاء البحرين :

في القرن التاسع عشر الميلادى ، اشتد التنافس العثمانى الفارسى البريطانى على البحرين . وكان هذا التنافس حتى العقد الرابع من القرن التاسع عشر مقصورا على المطالبات والاحتجاجات ، ودخلت هذه المطالبات حيز التنفيذ منذ عام ١٨٤٤ - ١٨٤٥م.

كما بعث والي بغداد محمد نجيب باشا فى صيف عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م برسالة الى محمد آل خليفة شيخ البحرين يستميله فيها الى جانب الدولة العثمانية ، ثم أرسل بعدها سفينة عثمانية تجوب الخليج وتوزع الأعلام العثمانية ليرفعها من يشاء اعلانا للتبعية العثمانية وكان شيوخ البحرين يناورون فى الواقع بكل من فارس والدولة العثمانية ، فانتهز محمد بن خليفة فرصة هذا الضغط العثمانى ليستفيد من التنافس الانجلوعثمانى (٨٢) . فتفاوض مع السلطات البريطانية كى تخفف حكومة بومبى من الضرائب المفروضة على سفن البحرين فى موانىء الهند ، وهدد بريطانيا بإعلان الولاء للدولة العثمانية إن هى تلكأت فى تلبية طلبه ، غير أن حكومة بريطانيا وممثليها فى الخليج وقفت موقفا حاسما ضد أى تدخل في البحرين.

وانطلقت بريطانيا فى موقفها هذا من أن معاهدة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م جعلت من البحرين امارة مستقلة مرتبطة ببريطانيا بتعهدات معينة ، واشتدت المطالبة الفارسية العثمانية بالبحرين بعد توقيع معاهدة أرضروم فى عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م حيث أدرك المسئولون العثمانيون ان إهمال البصرة هو السبب فى ضعف النشاط

العثمانى نحو المشيخات العربية فى الخليج ، فوضعوا مشروع انشاء ترسانة بحرية فى البصرة ، كما رفعت البصرة الى مرتبة الولاية سنة ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م لتكون قاعدة للبواخر العثمانية المزمع إرسالها الى الخليج (٨٣) .

وكانت القوة الوحيدة القادرة على توجيه حمله مباشرة ضد البحرين هى نجد ، ولكن الامام فيصل بن تركى كان يخشى التورط مع الانجليز ، فلجأ الى التفاهم معهم ولكن دون جدوى ، فاتبع الطريق التقليدى وهو تشجيع المطالبين بالمشيخة دون أن يوجه هو حملة اليها ، وكانت حجة الامام فيصل فى مطالبته بالبحرين أن الأخيرة تدفع الزكاة له سنويا ، وأن هذا من علامات الخضوع للحكم السعودى ، وقد أدرك الانجليز أن فيصل لو نجح فى السيطرة على البحرين فهذا معناه دخول البحرين تحت سيادة الدولة العثمانية ، لأن فيصل كان يتسلم خلعة من والى الحجاز من قبل السلطان ، ومنح فيصل كذلك لقب قائمقام نجد ، واشتد الضغط على البحرين

فتدخلت السلطات البريطانية مهددة باستخدام الأسطول لمنع أي هجوم عليها. أما فيصل فقد تابع سياسته السابقة الذكر. فردت قطع الأسطول البريطاني على هذه المحاولة من الدمام لغزو البحرين بضرب تجمعات الحملة. فأعلنت الدولة العثمانية الاحتجاج على ضرب أراضيها. (٨٤).

وفى سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م اقترح فلكس جونز Felix Jonez القنصل البريطانى فى الخليج إرسال بعض قطع الأسطول الى البحرين لارغام شيخها على توقيع معاهدة تقيده وتربطه ببريطانيا ، وأعدت مسودة المعاهدة فى ١٢٧٧هـ/مايو ١٨٦٠ ووقعها شيخ البحرين فى سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م (٨٥) .

لم يستطع نامق باشا أن يثبت دعائم السيادة العثمانية على الساحل إلا بالأسلوب التقليدى الذى كان يتبعه الولاة من قبل ، وهو إسناد الحكم الى الغالبين فى إطار التبعية للدولة العثمانية ، ولعل السبب فى فشل نامق باشا هو أن البصرة لم تكن قادرة على أن تقوم بمهمتها الحقيقية فتركزت الأمور فى يد والى بغداد الذى كانت تحجبة عن الخليج عشائر مشيخات قوية مثل المنتفق والظفير (٨٦) .

وفى عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م انتهز الانجليز فرصة قيام نزاع بين آل ثانى

حكام قطر وآل خليفة حكام البحرين وأرغموا شيخ قطر على توقيع معاهدة أدخلتهم في زمرة المشيخات المتعاهدة مع بريطانيا (٨٧).

كما وصلت في نفس السنة أربع قطع بحرية انجليزية إلى البحرين وعزلت محمد بن خليفة ومحمد بن عبدالله وأرسلتهما إلى بومبي وتولى مشيخة البحرين الشيخ عيسى بن علي، ثم توجهت السفن بعد ذلك الى القطيف من توابع نجد، فبعث والى بغداد مدحت باشا في ١٢٨٥هـ/١٦ ديسمبر ١٨٧٠م ببرقية الى عالى باشا وزير الخارجية يطلعه على الأمر، فبعث الأخير ببرقية الى موزوروس Musurus سفير الدولة العثمانية في انجلترا يخبره فيها أن جزيرة البحرين جزء من ممتلكات الدولة العثمانية، وأن السفن الانجليزية تصرفت تصرفا خاطئا، ونشأ ذلك التصرف عن قصور في الفهم والادراك، وطالبه باستيفاء تفاصيل هذا الخبر، وموافاته به، ورد المستر كلارندون Clarndon وزير الخارجية البريطانية على هذا الاستفسار بأنه لا يعلم عن الحادث شيئا، ووعده بأنه سوف يستعلم عنه وأضاف وزير الخارجية الانجليزية في رده بأنه يسمع ولأول مرة تابعية جزر البحرين للدولة العثمانية.

فرد موزوروس باشا على المستر كلارندون ببرقية في ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م برقم ٩/ ٢٩٥٤ ذكر فيها أنه ليس لأي دولة أى حق تدعيه على أى جزء من الجزيرة العربية (٨٨).

وعندما راجع موزوروس باشا في اليوم السادس والعشرين من يناير ١٨٧٠م اللورد كلارندون طالبا الرد على استفساره السابق، رد عليه بأن قال أن هذه الجزر تعتبر مستقلة (٨٩).

ولكن سفير الدولة العثمانية موزوروس باشا رد عليه مبينا وجهة نظره قائلا أن معرفة الانجليز تبعية هذه الجزيرة حينا لكذا وحينا آخر لكذا لا يمس حقوق الباب العالى.

ولكن سفير الدولة العثمانية موزوروس باشا رد عليه مبينا وجهة نظره قائلا ان معرفة الانجليز تبعية هذه الجزيرة حينا لكذا وحينا آخر لكذا لا يمس حقوق الباب العالي، وأن هذه الجزر بحكم موقعها الجغرافي تتبع الجزيرة العربية، ومعني ذلك أنها تتبع الباب العالي، وأنه يجب ألا يغيب عن البال أن الباب العالى فتح أهم ومعظم هذه الجهات فتحا عسكريا وأنه يديرها إدارة مباشرة ... ولكن جزيرة البحرين بسبب بعدها عن المركز وقعت تحت نفوذ الأئمة

والشيـوخ كغيرهـا من الأراضي المنسلخـة من الادارة العثمانيـة المباشرة ، ورغم كل ذلك ، فإن جميع هذه الامارات تعتبر بأنها تحت حكم السلطنة العثمانية ، كما يعتـرف حكـامهـا بـالسلطـان أكبر رئيسـا لهم [٩٠] .

وذكر التقرير أن بريطانيا قد أدعت بأنها لا تنوى فرض سيطرتها على البحرين علما بأن واقع الحال ينفى هذه الادعاءات ويؤكد إصرار بريطانيا على السيطرة على البحرين ، فقد قامت بإقامة مبان كبيرة فى البحرين ، كما عينت حراسا على مقـر الحكومة [٩١]. هـذا عـلاوة عـلى الاعتداءات التى قامت بها ضد ساحل الاحساء .

واختتم التقرير دراسة مشكلة البحرين مؤكدا تبعية البحرين للدولة العثمانية وأيلولة ملكيتها لها ، وذلك بناء على الأسس التالية :

١ ـ تتبع البحرين منذ القديم قائمقام نجد الذى تعينه السلطنة السنية العثمانية .
٢ ـ تجبىء الضرائب من قبل قائمقام نجد من البحرين حتى وصول الجنـود النظاميـين الى هـذه المناطق .
٣ ـ سكـان البحـرين يـدينـون بالاسلام ، وتقرأ خطب الجمعة باسم جلالة السلطان ، وهذا دليـل على تبعيتهـا للسلطنـة العثمانية .
٤ ـ وجود الطغـراء العثماني، ومدافع فى أبراج وأسوار القلعة ، كآثار قديمة ووجود التواريخ القديمة على أبواب الجوامع والمساجد تثبت هذا الحق .
٥ ـ الموقع الجغرافى للجزيرة يثبت جهة التزامها حيث أنها جزء من الجزيرة العربية التى تؤول للدولة العثمانية [٩٢] .

هذه المبررات التى سقناها أنفا تؤكد تبعية البحرين للدولة العثمانية .

وانطلاقا من سياسة المهادنة ، حرصت الدولة العثمانية على عدم الدخول فى صدام مع انجلتـرا ، واكتفت بالمطالبة وتقديم الحجـج والبراهين على تبعية البحرين لها . كما شددت على والى بغداد الطموح مدحت باشا ألا يقدم على أى عمل يخل بـالاتفاقيـة العثمانيـة الانجليزيـة المعقودة عام ١٨٦١م [٩٣] .

وفى رسالة بعث بها وزير الخارجية العثمانية الى مدحت باشا رقم ٩٠ بتاريخ ٤ تموز (يوليو) ١٨٧٠م يقول فيها : «ان مهمة الفرقة العسكرية المرسلة الى سواحل نجد منحصرة على منطقة نجد دون سواها» . ورجا وزير الخارجية فى رسالته الى مدحت باشا أن تكف جريدة الزوراء عن التعرض

لبعض الأمور المثيرة للقلاقل والفتن مثل حديثها عن البحرين وقسم صغير من مناطق يسكنها رؤساء القبائل العربية التى عقدت مع الانجليز إتفاقية دائمة أنها تابعة لنجد ، وأن هذا العمل أثار انتباه إدارة الهند ، فالرجاء عدم التعرض فى الزوراء لمثل هذه الأمور (٩٤) .

ورد مدحت باشا بخطاب رفعه الى الصدر الأعظم ذكر له فيه أن البحرين تتبع نجدا من القديم ، وأن الاحساء والقطيف تبعتا الدولة العلية ، ودحض الادعاءات الانجليزية والفارسية فى البحرين وبقية مشيخات الخليج العربى ، وأكد مدحت فى رسالته أن «مهمة الفرقة العسكرية فى نجد هى اقرار الأمن والصلح فى الاحساء والقطيف وقطر وملحقاتها لا الخروج خارج نطاق نجد. وقد نبه قائد الفرقة نافذ باشا على ذلك ، أما ما كتبته جريدة الزوراء فلا يمكن أن يحدث مشكلة ، لا سيما وأنكم كتبتم الى مسيو بيزانتى وأرسلتم لى صورة مكاتبتكم التى جاء فى فقرة منها أن حدود نجد غير محدودة ولو حدث تدخل لأمور المشايخ والرؤساء العربان الذين يريدون الانسلاخ فهذا سوف يتيح محظورا .. (٩٥) .

وذكر مدحت فى رسالته أنه لم يحدث منه أى تدخل فى البحرين أو امارات الخليج الأخرى ، رغم طلب بعض رؤساء العشائر والعربان وسكان عمان المساندة من الدولة العثمانية ، ويقول مدحت أننا لم نرفض عرضهم بل التزمنا السكوت رغم ما قام به بعض الموظفين الانجليز من إهانة بعض العساكر السلطانية ، وما قام به ملاحو سفينة تابعة لشركة لنج الانجليزية من مهاجمة سفينة بغداد وهي راسية في الميناء وذكر مدحت أيضا أن موظفي الانجليز يعتبرون جزيرة البحرين حكومة مستقلة ونيتهم متجهة لأن يقيموا حكومة مستقلة فى عمان ومسقط ، فضلا عن أنهم شرعوا يأخذون من عدة سنوات تسعة آلاف ريال من قطر للشيخ عيسى(٩٦).

وتشير المصادر العربية أنه بعد نجاح حملة مدحت باشا فى الاحساء وبعد بسط النفوذ العثمانى على قطر ، فكر مدحت باشا فى أن يواصل مد النفوذ الى الجزر المقابلة لساحل قطر وهى جزيرة البحرين . فأرسل وفدا برئاسة عارف بك قائد بحرية البصرة لمقابلة شيخ البحرين متظاهرا بهدف اقامة بعض مستودعات الفحم اللازمة لامداد السفن العثمانية ، بينما كانت المهمة الحقيقية هى الحصول على ولاء شيخ البحرين للسلطان العثمانى ،

وقد رحب شيخ البحرين بهذه الزيارة وأبدى الفرح والسرور عند رؤيته للسفينتين العثمانيتين «لبنان ، والاسكندرية» قائلا : أن البحرين لم تر منذ قرنين سفنا عثمانية فى هذا البحر ، وتبرع ببعض الأراضى لاقامة مستودعات الفحم اللازمة للسفن العثمانية ، وبعد هذا أخذت السفن العثمانية تكثر من ترددها على البحرين بدعوى التزود بالماء والفحم ، وقد انزعجت الحكومة البريطانية من زيارة عارف بك ووفده الى البحرين (٩٧) .

وعلى العموم ، فقد أدرك مدحت باشا خطورة موقفه هذا ، فكتب كتابا الى حاكم عام الهند بشأن حقوق الدولة العثمانية فى السيادة على البحرين ، وأيد موقفه بأدلة قانونية ساقها فى ثنايا رسالته ، ولكن بريطانيا وقفت موقفا حاسما من هذه القضية وحصلت على تعهد من شيخ البحرين يقضى بالمحافظة على جميع الالتزامات والتعهدات الناجمة عن المعاهدات السابقة وأخرها معاهدة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م . ووعده الانجليز بحمايته من أى خطر يهدده سواء كان عثمانيا أو فارسيا (٩٨) .

وترجع الوثائق البريطانية رغبة الأتراك العثمانيين فى إحتلال البحرين الى عوامل سياسية وإقتصادية . فمن الناحية السياسية فإن البحرين كانت ملجأ للفارين من اللاجئين السياسيين حيث يجدون فيها الحرية الكاملة فى مزاولة أعمالهم ، إضافة الى الكرم والعادات العربية الحميدة التى أسبغها عليهم شيخ البحرين . وتذكر تلك الوثائق قصة تهديد الأتراك بغزو البحرين بسبب قصة زيارة الأمير عبدالرحمن بن فيصل عقب فراره من أسره فى بغداد ، وقد أقام بعد فراره قرابة شهرين بالبحرين . أما الأسباب الاقتصادية فهى أن البحرين تعتبر الميناء الرئيسى للاحساء ، بالاضافة الى أنها جزر مشهورة بزراعة النخيل والخضراوات والفواكه وحركة تجارة اللؤلؤ وصيده لمنطقة الخليج العربى كله ، حتى أنه بلغ دخلها فى تلك الفترة أكثر من خمسة ملايين جنيه استرلينى فى العام الواحد ، فأرادت الدولة العثمانية باستيلائها على هذه الجزر إنهاء مشاكلها الاقتصادية فى المنطقة (٩٩) .

وخلاصة القول أن الحملة العثمانية التى أرسلها مدحت باشا الى الاحساء قد أكدت الوجود العثمانى والسيادة العثمانية فى الخليج ، كما امتدت السيادة العثمانية على بقية أجزاء الخليج من الكويت حتى عمان ، وقد اعترفت انجلترا بتبعية مشيخات الخليج الى الدولة العثمانية

تبعية اسمية . وقد استمرت السيادة العثمانية على الجزيرة العربية ولو اسميا فى بعض المناطق وفعليا فى المناطق الأخرى حتى سقوط الدولة العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . ويؤكد ذلك مراسلات الحسين ـ مكماهون التى تناولت البلاد العربية تحت الحكم العثمانى فى قارة آسيا بما فيها شبه الجزيرة العربية ما عدا عدن .

كما أن مشايخ وأمراء الجزيرة العربية كانوا يلتفون حول الدولة العثمانية بتأثير العاطفة الاسلامية والولاء الدينى على اعتبار أن الدولة العثمانية تمثل المسلمين فى العالم بصفتها وارثة الخلافة الاسلامية .

وهناك حقيقة أخرى أن الوجود البريطانى والاستعمار البريطانى لم تتأكد سيطرته على منطقة الخليج إلا بعد الحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة العثمانية ، فكان مشايخ وحكام الخليج برغم تعاهدهم وتعاقدهم مع بريطانيا بمعاهدات إلا أنهم كثيرا ما عبروا عن ولائهم للدولة العثمانية وكانوا يتعاطفون معها ، وليس هؤلاء فحسب بل كان المسلمون جميعا فى أصقاع الأرض يؤيدون الدولة العثمانية للأسباب التى ذكرتها فى النتيجة السابقة . ومن هنا كانت بريطانيا تراعى مشاعر المشايخ وحكام الخليج فى إظهار ولائهم للدولة العثمانية ، وتكتفى فقط بالاحتجاج على التصرفات العثمانية . وبرغم ذلك فإن بريطانيا كانت تدرك تماما أحقية الدولة العثمانية بالسيطرة على الجزيرة العربية .

الدكتور اسماعيل ياغي
استاذ مساعد بالمملكة العربية السعودية

الهوامش

١ ـ تقع منطقة الاحساء في الجزء الممتد غربي الخليج وتمتد من البصرة في الشمال الى عمان في الجنوب ، وكان يطلق على هذه المنطقة اسم « البحرين » لفترة طويلة من الزمن في بداية الفتح الاسلامي . واطلق على اجزاء مختلفة من هذا الاقليم اسماء مختلفة منها « العدان » و« هجر » و« الخط » واخيرا وحوالي عام ٣٢٧هـ/ ٩٢٩م اطلق اسم « الحسا » على قاعدة هذا الاقليم واكبر مدينة فيه ، ثم عمت التسمية فشملت الاقليم بأسره . قال ياقوت الحموي : « .. الاحساء مدينة بالبحرين معروفة مشهورة ، كان اول من بناها وحصنها وجعلها قصبة هجر ابو طاهر الحسن بن ابي سعيد الجنابي القرمطي » . انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، القاهرة ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ ، ص ٧٢ ، ص ١٣٧ .

وقد احتل البرتغاليون منطقة الاحساء والتي كان يطلق عليها اسم البحرين في عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م ، وظلوا يحتلونها حتى تمكن الاتراك العثمانيون من طردهم واخراجهم منها حوالي عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م . انظر د. محمد عرابي نخله ، تاريخ الاحساء السياسي ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل ١٩٨٠م ، ص ٢٦ .

٢ ـ لقد وجد نص منقوش على احد حجارة هذا المسجد يدل على من قام باعماره وتاريخ ذلك جاء فيه : « .. بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين ، قد بنى وعمر هذا المقام في زمن السلطان العادل سليمان بن السلطان سليم ، حضرة الحاكم الاجل قدوة الحكام كهف الانام ، صاحب السيف والقلم ، والي بلد الاحساء محمد باشا ، في سنة ثلاث وستين وتسعمائة هجرية » . انظر محمد بن عبدالله الانصاري تاريخ الاحساء المسمى « تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد » جـ ١ الرياض ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

٣ ـ احمد ابو حاكمة (الدكتور) تاريخ شرقي الجزيرة العربية ، بيروت ١٩٦٥ ص ٦٠ ـ ٦١

٤ ـ احمد حيدر مدحت ، مذكرات مدحت باشا ، تعريب يوسف كمال بك حتاني ط

١ . القاهرة عام ١٣٢٥هـ/١٩٠٧ مطبعة هندية بالموسكي ص ١٧٥ .
٥ ـ محمد عرابي نخله (الدكتور) تاريخ الاحساء السياسي ١٨١٨ ـ ١٩١٣ الكويت ١٩٨٠ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

٦ ـ عبدالعزيز نوار (الدكتور) تاريخ العراق الحديث القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٩٥ .
٧ ـ جمال زكريا قاسم (الدكتور) الخليج العربي (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) القاهرة ١٩٦٦ ص ١٧١ .

٨ ـ الياس الايوبي تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا مطبعة دار الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٢٣ ص ٢٣٦ .
٩ ـ محمد عرابي نخلة ، المرجع السابق ص ١٤٩ .
١٠ـ ولد مدحت باشا عام ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م . وتنقل في عدة مناصب في الدولة العثمانية فشغل منصب الوالي في عدد من مناطق الحدود مثل « نيش » والشام ، وبغداد وعلى الرغم من قلة ايام حكمه في العراق . الا انه تمكن من اقرار النظام ، واجرى بعض الاصلاحات التي لا يزال يذكرها العراقيون له بالخير . حاول تاكيد سيطرة العثمانيين على الخليج العربي بارساله حملة الاحساء لكنه اصطدم بموقف بريطانيا ، وضعف مركزه في العراق بعد موت صديقه الصدر الاعظم عالي باشا . فعزل سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م ووصل الى منصب الصدر الاعظم عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م مدة شهرين تقريبا . اخيرا اتهم بالتامر في مقتل السلطان عبدالعزيز فنفي الى الطائف ، ومات هناك في حادث عنق سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م ومن الماخذ عليه انه كان عثمانيا صميما ولم يشرك العرب والاكراد في العراق اشراكا فعليا في ادارة البلاد . انظر عباس العزاوي تاريخ العراق بين احتلالين . ٨ اجزاء جـ٧ بغداد ١٩٤٩ ص ٢٦٩ ـ ٢٧١ .
١١ـ Dickson,H.R.B,Kuwait and her Neighbours,London 1956,PP.118.
١٢ـ محمد عرابي نخله ، المرجع السابق ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .
١٣ـ I.O.R. R11/0/16.,From Ahmad Taiwfik pasha to Kembell 25th Jamad Alawal 1239 H.
١٤ـ I.O.R.15/1/0/16/ From Kembell to the Secretary to Government of India,dated 4th Dec.186,
١٥ـ جمال زكريا قاسم (الدكتور) الخليج العربي ، مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٧٤ .
١٦ـ منشور مدحت باشا الذي اذاعه على اهالي الاحساء بعد دخول القوات العثمانية لها في ١٨ رجب سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م . انظر عبدالعزيز نوار تاريخ العراق الحديث ، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١ .

١٧- عبدالفتاح ابو عليه (الدكتور) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ، الرياض ١٩٨٦ ص ١١٣ .
١٨- Kelly,J.B.,Britain and the persian gulf,London 1965,P.718
١٩- مذكرات مدحت باشا ص ١٧٥ .
٢٠- اطلقت الدولة العثمانية على الاحساء بعد فتحه لقبا اداريا جديدا هو « سنجق نجد » وهي بهذا اللقب لم تشر البتة الى اسم الاحساء . لذا يمكن القول ان هذا اللقب الجديد كان ترقبا من الدولة لفتح نجد . انظر الوثائق التركية المحفوظة في اوراق الباب العالي ، باستنبول وثيقة رقم ٢٦٨٤ مؤرخة في ٢٣ شعبان ١٣٢٤هـ . وكذلك وثيقة رقم ٢٥٩٨ مؤرخة في ١٢ شوال ١٣٢٤هـ .

٢١- I.O.R./L/P-S/18 Vols.91-160 Paragraph 10 Nejd Expedition Precies,P.288
٢٢- جمال زكريا قاسم . المصدر السابق ص ١٨١
٢٣- نشأت امارات الكويت والبحرين وقطر ومشيخات في الساحل في منتصف القرن الثامن عشر اذ لم تكن موجودة قبل ذلك ، بل كان اسم الاحساء يطلق على الساحل الغربي للخليج من البصرة شمالا الى عمان جنوبا كما اشرنا في بداية البحث .
٢٤- لوريمر دليل الخليج جـ٣ ص ١٥١٩ - ١٥٢٠ وعباس العزاوي تاريخ العراق بين احتلالين جـ ٧ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .
٢٥- مذكرات مدحت باشا ص ١٧١ .
٢٦ - جمال زكريا قاسم، المصدر السابق ص ٢٥٦ سيف مرزوق الشملان من تاريخ الكويت القاهرة مطبعة نهضة مصر ١٩٥٩ ص١٣٦ - ١٣٧.
لجأ مدحت الى أن يرفع اصحاب السفن الكويتية الاعلام العثمانية بدلا من الانجليزية خشية محاولة بريطانيا فرض حمايتها على الكويت، كما أعفى أهل الكويت من الضريبة وصرف لهم الرواتب من خزانة البصرة.
٢٧- انظر نصوص المعاهدة الانجليزية الكويتية في ١٨٩٩م في :
فتوح عبدالمحسن الخرش (دكتور) تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ١٨٩٠ - ١٩٢١ الكويت ص ٣٥ - ٣٦ .

٢٨- عبدالعزيز نوار ، المرجع السابق ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .
٢٩- مذكرات مدحت باشا ص ١٨١
٣٠- عبدالعزيز نوار ، المرجع السابق ص ٤٣١ - ٤٣٢ .

٣١- مصطفى عبدالقادر النجار (الدكتور) التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي بغداد ١٩٧٥ ص ٣١٢ - ٣١٣ .

٣٢- السيد رجب حراز (الدكتور) الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٧٠ ص ١٦٥
٣٣- عبدالعزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث ص ٣٥٨ .
٣٤- جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ص ١٩١
٣٥- كان الامام فيصل يتبع الدولة العثمانية بالاسم ، وقد عبر الامام فيصل عن تلك التبعية ببعض الأموال التي كان يدفعها إلى نواب الدولة العثمانية في الجزيرة العربية وبناء عليه فان نجد والاحساء تتبع الدولة العثمانية تبعية اسمية .

انظر عبدالفتاح ابو عليه (الدكتور) تاريخ الدولة السعودية الثانية ط ٤ الرياض ١٩٨٦ ص ١٦٦ .

٣٦- مذكرات باشا ص ١٧٣
٣٧- صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٧٣
٣٨- محمد بهجت سنان ، البحرين ، درة الخليج ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١٠١
٣٩- مذكرات مدحت باشا ص ١٧٤ .

٤٠- المصدر نفسه ص ١٧٤ - ١٧٥ .
٤١- Fo/78/2176 From Medhat to.Herbert.dated Ist June 1871
٤٢- جمال زكريا قاسم المرجع السابق ص ١٨٦ - ١٩٠ .
٤٣- مركز دراسات الخليج العربي بالبصرة وثيقة رقم ٥ ملف ٧ بتاريخ ٢٩ جمادى الاولى سنة ١٢٨٨هـ .

٤٤- جمال زكريا قاسم، المرجع السابق ، ص١٨٠- ١٨١ .

اصدر مدحت باشا في نفس اليوم الذي تحركت فيه الحملة العثمانية من البصرة في ٢٩ محرم سنة ١٢٨٨هـ/ ٢٠ ابريل ١٨٧١م اعلانا مطولا الى سكان نجد الحسا يحذرهم من تقديم المساعدة لسعود بن فيصل وفي نفس الوقت يعطي الفرصة لسعود في ان يسلم نفسه للسلطات العثمانية في البصرة . كما يقرر هذا الاعلان ان نجد قد اصبحت للامير عبدالله الفيصل الذي عين قائمقاما عليها من قبل الدولة العثمانية . انظر نص الاعلان في جمال زكريا المرجع السابق ص ٤٨٣ - ٤٨٦
٤٥- جريدة الزوراء ، عدد ١٣٦ ، ٢٨ محرم سنة ١٢٨٨هـ .
٤٦- عبدالفتاح ابوعليه (الدكتور) الدولة السعودية الثانية ، الرياض ١٩٨٦ ط ٤ ص ١٦٨ .
٤٧- جريدة الزوراء ، عدد ٧٦٠ سنة ١٢٨٨ - ٢١ ربيع الثاني .

٤٨- جريدة الزوراء عدد ١٦١ ، ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٢٨٨هـ . وانظر تفصيل المعارك في الزوراء ، عدد ١٦٣ ، ٤ جمادي الاولى ١٢٨٨هـ ، الزوراء عدد ١٨٢ ، ١١ رجب ١٢٨٨هـ .

٤٩- مذكرات مدحت باشا ص ١٧٦ .
٥٠- جمال زكريا ، المصدر السابق ص ١٨٢ .
٥١- جريدة الزوراء عدد ١٤٠ ، ١٢ صفر ١٢٨٨هـ .
٥٢- عبدالعزيز نوار ، المصدر السابق ص ٤٣١ - ٤٣٢ .
٥٣جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ص ١٩١ .
٥٤- لوريمر ،المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٥٤ .

٥٥- لوريمر ،المرجع نفسه ج ٣ ص ١٤٥٤ - ١٤٥٥ .
٥٦- صرح مدحت باشا بانه ينظر نظرة اكثر شمولا واتساعا الى حدود سنجق نجد ، معتبرا ان هذه الحدود لا تضم منطقة الاحساء وحدها ، بل ايضا البحرين وقطر وساحل عمان وسلطنة مسقط ، انظر (جي ، بي ، كيلي ، الحدود الشرقية لشبة الجزيرة العربية ، ترجمة خيري حماد ، بيروت ١٩٧١ ص ١٤٢ .
٥٧- جامعة البصرة ، مركز دراسات الخليج العربي وثيقة رقم ٥ ملف ٧ ، بتاريخ ٢٩ جمادى الاولى ١٢٨٨هـ .
٥٨- هـ .ر .ب ديكسون ، الكويت وجاراتها بيروت ١٩٦٥ ص ١١٨ - ١١٩ .

٥٩- محمد عبدالقادر الاحسائي ، المرجع السابق ص ١٧٢ - ١٧٣ .
٦٠- مذكرات مدحت باشا ص ١٧٩ .
٦١- المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء ، استانبول (ارادة داخلية) وثيقة رقم ٤٤٩٣٠ (ب) من مدحت باشا الى الصدر الاعظم تاريخ ١٢ شوال ١٢٨٨هـ .

٦٢- المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء استانبول (ارادة داخلية) وثيقة رقم ٤٤٨٨٠ (أ) من مدحت باشا والي بغداد الى وزارة الداخلية ، وتاريخ ٢١ شوال سنة ١٢٨٨هـ .
٦٣- الوثيقة نفسها .
٦٤- مذكرات مدحت باشا ص ١٨٠ - ١٨١ .

٦٥- جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي ص ٢٠٠ .
٦٦- مذكرات مدحت باشا ص ١٩٤ .

٦٧ـ محمد سعيد المسلم ، ساحل الذهب الاسود ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٩٢ .

٦٨ـ لوريمر : دليل الخليج جـ٣ ص ١٤٧٢ ـ ١٤٧٥ .
٦٩ـ المرجع نفسه ص ١٤٧٧ .

٧٠ـ الوثيقة التركية: محفوظات استانبول ، اوراق الباب العالي برقية رقم ٢٠٩٨٥٩ بتاريخ ٢٥ اذار ١٣٢٢ . نقلا عن د. عبدالفتاح ابو عليه ، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث ص ١١٦ ـ ١١٧ .
٧١ـ الوثيقة التركية ، محفوظات استانبول دائرة الاركان الحربية العامة الشعبة الرابعة في ١٩ آذار ١٣٢٢هـ ، رقم ٢٠٩٨٦٩ نقلا عن ابو عليه ، المرجع السابق ص ١١٨ .

٧٢ـ جمال زكريا قاسم: الخليج العربي ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .
٧٣ـ الزوراء ، عدد ٢٠٨ ، شوال ١٢٨٨هـ .
٧٤ـ المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء ، استانبول (ارادة داخلية) وثيقة رقم ٤٤٨٢٢ من
٧٥ـ مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، وثيقة رقم ٤ ملف ٧ ، شوال ١٢٨٨ هـ .

٧٦ـ في ٢١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٢٠م وقعت بريطانيا معاهدة جماعية مع شيوخ الخليج اطلق عليها اسم (معاهدة الصلح) وقد نصت هذه المعاهدة على ان تلتزم السفن التابعة للعرب برفع علم احمر وهذا يكون علم العرب الاصدقاء وتمتنع عن استعمال اي شعار آخر ، انظر خالد العربي ، الخليج العربي في ماضيه وحاضره ، بغداد ١٩٧٢ ص ٤٤ ـ ٤٥ .
٧٧ـ Kelly.J.B.,OP.Cit.,PP.730-731
٧٨ـ جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩ .
وعبدالعزيز نوار ،تاريخ العراق .. ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ .

٧٩ـ صلاح العقاد ، المرجع السابق ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .
٨٠ـ المرجع نفسه .

٨١ـ جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ ، محمد عرابى نخلة ، تاريخ الاحساء السياسى ، ص ١٦٩ .
٨٢ـ عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق ... ، ص ٣٩٨ .
٨٣ـ المرجع نفسه ، ص ٣٩٩ .
٨٤ـ عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق ... ، ص ٣٩٩ ـ ٤٠١ .

٨٥ ـ أمل ابراهيم الزياني، (الدكتورة)، البحرين من سنة ١٧٨٣ الى سنة ١٩٧٣، بيروت ١٩٧٣، ص ٥٦
٨٦ـ عبد العزيز نوار ، المرجع السابق ، ص ٤٠١ ـ ٤٠٣ .
٨٧ـ عبد العزيز نوار ، المرجع السابق ، ص ٤٠٧ .
٨٨ـ مركز دراسات الخليج العربى بالبصرة ، ملف رقم ١ تقرير شامل عن البحرين بتاريخ ٣ فبراير ١٣٢٧هـ عليه رقم ٤٨٢ جزيرة العرب الشرقية .
٨٩ـ الوثيقة نفسها .
٩٠ـ مركز دراسات الخليج العربى ، التقرير السابق .
٩١ـ المصدر نفسه .
٩٢ـ المصدر نفسه .
٩٣ـ مركز دراسات الخليج العربى ، وثيقة رقم ٤ ، ملف ٧ ، شوال ١٢٨٨هـ .
٩٤ـ الوثيقة نفسها . وانظر كذلك مذكرات مدحت باشا ، ص ١٨٤ .
٩٥ـ الوثيقة نفسها .
٩٦ـ الوثيقة نفسها .
٩٧ـ انظر قدرى قلعجى ، الخليج العربى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٤٦٧ .
وانظر كذلك I.O.R. / L/P LS-18. Vols. 91-160 Nejd Expedition preciees. paragraph 31, p. 35.
محمد عرابى نخلة ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ ـ ١٨٠ .
٩٨ـ عبد العزيز المنصور ، التطور السياسى لامارة قطر ، الكويت ١٩٨٠ ، ص ٨٢ ـ ٨٣ جمال زكريا قاسم ، المرجع نفسه ، ص ١٨٠ .
٩٩ـ عبد العزيز المنصور ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

الشاعر

دراسة موضوعية

٤

بقلم : الدكتور
أحمد موسى الخطيب



علي بن المقرب العيوني

ة وفنيّة

هذا البحث

في الحلقة السابقة من هذا البحث عرض المؤلف لكل ما يتعلق بالديوان مخطوطا ومطبوعا وتتبع النسخ الموجودة في كل من النوعين بالدراسة الدقيقة والوافية. ثم انتقل الى أغراض الشعر عند ابن المقرب العيوني فبدأ بالفخر وانتقل الى الشكوى ثم النصح والعتاب ليختم الحلقة السابقة بالنسيب. ويقدم الباحث في هذه الحلقة بقية أغراض الشعر عند ابن المقرب بادئا بالمدح.

(٥)
المــدح

طغى شعر المديح على سائر أغراضه من حيث الكم ، وانما أخرناه هنا لأننا لم نر له مساسا بنفسه وذاته كما تقدم من الأغراض . ويبلغ المديح الخالص اذا ما تخلناه من المقدمات الغزلية وسائر الأغراض الأخرى كالفخر والشكوى والعتاب والحكمة . الخ نصف شعره فى الديوان تقريبا ، وقد بلغت القصائد التى مدح بها أمراء أسرته خمسا وثلاثين قصيدة من أربع وستين قصيدة هى مجموع مدائحه ، التى بلغت أبياتها ألفين ومائتين وتسعة وثلاثين بيتا . أما سائر مدائحه وهى عراقياته فقد دبجها فى مدح الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) والخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠هـ) وولاتهما فى الحواضر العراقية ، وبعض أهل الفضل والعلم هناك .

وازاء هذا العدد الكبير من الممدوحين المتفاوتين مكانة وخطرا ، وأمام هذا الكم الهائل من شعر المدح ، نجد من العسير علينا أن نستعرض كافة ديوان المديح عنده ، ويصبح الوقوف عند شخصيات بعينها لها دلالتها على حياة الشاعر وأثرها فى شعره ، وعند نماذج بعينها تمثل تطور شعر المدح عنده الى مرحلة نضجه ، هو المنهج الأدنى الى القصد .

فأول الشخصيات التى مدحها ابن المقرب فى موطنه « الاحساء » وقبل رحيله الى العراق ، ودبج فيه باكورة غرسه ، الأمير محمد بن أبى الحسين العيونى ، وقد خصه بخمس قصائد .

وكانت شخصية هذا الأمير - كما أشرنا من قبل - تستحق التقدير والاعجاب للدور الذي نهض به في المحافظة على قوة دولتهم ، وصلابتها في وجه خصومها من داخل الدولة وخارجها ، وكان آخر حكامها الأقوياء ، ذوى المهابة والسطوة . فوجد فيه ابن المقرب الشخصية العيونية والعربية المثالية ، ولا حرج اذا قلنا أنه قد وجد ذاته في هذه الشخصية . ولم لا ؟ ولا سيما اذا علمنا أنه كان يترسم خطوات شاعرنا العظيم أبى الطيب المتنبى ، فقد ارتاحت نفس الأخير عند « سيف الدولة » وقرت بلابله ، اذ وجد ذاته فى تلك الشخصية العربية الفذة ، وسره أن يصبح « شاعر الأمير » و « ليس بالقليل ذا اللقلب » فنظم فيه أروع مدائحه . وهذا ابن المقرب يخلص لأميره صاحب الهيبة والسطوة ، فيصف حملاته ، ويسجل الدور الكبير ، الذي نهض به . وقد كان أميره عربيا عيونيا فضليا ، وابن المقرب مفتون بقومه . متعصب لأسرته ، ميال لآل الفضل محب لهم .

والقصائد التى نظمها فى الأمير المذكور ، تمثل باكورة ابداعه الفنى ، فأول قصائده التى مدحه فيها بائيته

التى مطلعها :

منال العلا بالمرهفات القواضب
وسمر العوالى والعتاق الشوازب[1]

فهى أصل شعره ، وأقدم قصيدة يحتفظ بها ديوانه ، نظمها عام ٥٩٩هـ .[2] . وقد بدأها بعدد من الحكم ، ثم خلص منها الى المدح ، فوصفه بالشجاعة في شن الغارة ، والدفاع عن الحمى :

يشن بها الغارات أروع ماجد
سريع الى الجلى بعيد المطالب
شجاع اذا ما أصبح الحى لم يكن
صبوحهم الا رواق المضارب
ازاح الاعادى عن حماها وحازه
فاضحت له آسادها كالثعالب[3]

ثم وصف وقعتيه مع بنى مالك ، وأهل الشام ، وكيف مزق صفوفهم ، ودفع خطرهم ، وختم مدحته بالدعاء للممدوح :

فلا عدمت يوما ربيعة مثله
لتشييد عز او لبذل مواهب
ولا برحت أيامه في سعادة
ولازال محروس الحمى والجوانب[4]

وجاءه عام ٦٠١هـ مادحا بلاميته التى مطلعها :

صداق المعالى مشرفى وذابل
وسابغة زغف واجرد صاهل[5]

فقد بدأها بعدد من الحكم ، ولعله متأثر بأبى الطيب في افتتاح بعض سيفياته بأبيات من الحكمة تدور حول موضوع المدح ،[6] وخلص منها الى المدح ، فوصفه بأنه صبوح الوجه ، كريم الأصل ، شجاع ، وكال له عدداً من التشبيهات في الحاح مبالغ فيه ، بأسلوب يعتمد على التتابع والتكرار والتدفق فيقول :

هو البحر لكن مده غير جازر
هو البدر الا انه الدهر كامل
هو الشمس في جو السماء ونورها
على كل من فوق البسيطة شامل
هو المزن الا انه فوق سابح
وفي كل ارض منه سح ووابل
هو الليث إلا أن عرينه القنا
وصيداته الصيد الملوك العباهل
هو النصل لكن لا يحس غراره
بنان وبالايدى تحس المناصل[7]

وهي - كما نلاحظ - صور حسية مطروقة ، وقد انتقل بعدها الى وصف وقعة له مع بنى مالك ، وأخرى مع بنى طيء وزيد .

ثم امتدحه عام ٦٠٢هـ بنونيته التى مطلعها :

الا رحلت نعم واقفر نعمان
فبح باسمها ان عز صبر وسلوان[8]

وخلع عليه فيها كثيرا من صفات الكرم ، والعفو ، وحسن الرأى ، واصلاح ذات البين فقال :

واغنى ذوى الحاجات منكم بماله
فاضحى لكل من عطاياه ديوان
وكم راجل أمسى بنعماه فارسا
وكانت صفايا ماله المعز والضان
وكم من حريب راح نهبا سوامه
فراح عليه للكآبة عنوان

فما أتاه شاكيا من زمانه
غدا من عطايا كفه وهو جذلان
وكم مذنب قد خاف منه عقوبة
تلقاه منه حسن صفح وغفران
وكم من قبيل راح يزحف بعضه
لبعض وقد شبت بواديه نيران
تلافاه منه حسن راى وسطوة
فراح وقد ماتت حقود وأضغان

وكانت رابع مدائحه له ، رائيته التى مدحه بها عام ٦٠٢هـ ، واستهلها بقوله :

رماح الاعادى عن حماك قصار
وفى حدها عما تروم عثار
وكل امرىء ليست له منك ذمة
يضام على رغم له ويضار[٩]

وبعد هذا الدعاء للممدوح ، ينتقل الى الحديث عن تحالف عامر عليه ، فحذرهم من عاقبة تآمرهم عليه ، وخلص من تبكيته لهم الى المدح ، فخلع على أميره صفات الشجاعة ، والحلم ، والحدب على الرعية ، والكرم ، والعفو ، فقال :

فمن مثله يرمى عداكم ويتقى
اذاكم ويحمى دونكم ويغار
ويرعيكم المرعى ولو أن دونه
عثير دماء بالسيوف تمار[١٠]
ويعطيكم الجرد الجياد تحفها الـ
موالى وكوم لا تذم عشار
ويعفو عن الجانى ولو شاء هلكه
لما عصمته من قناه ظفار

أما آخر مدائحه له ، فنونيته التى مطلعها :

سائل ديار الحى من ماوان
ما أحدثت فيها يد الحدثان[١١]

ومدحه فيها بعفة اللسان ، والتواضع وعلو الهمة ، ومضاء العزيمة ، والطهر .. ومنها قوله :

لم ينطق العوراء قط ولادرى
ما الكبرياء على عظيم الشان

ومنها قوله :

ذوهمة من دونها القمران
وعزيمة امضى من الحدثان
لو أن للعضب المهند عزمه
لفرى الجماجم وهو فى الاجفان
ولو أن للشمس المسيرة بشره
تاهت فلم تطلع مدى الأزمان
عف الازار كريمة أخلاقه
ناء عن الفحشاء والشنان[١٢]

وجدير بالذكر ان أسلوب الشاعر فى البيتين الثانى والثالث يتكرر بنفس المعنى والالفاظ ، والصور فى مدائح اخرى ، لمدوحين مختلفين ، فكأن هذه الأساليب مجرد قوالب جاهزة قد استقرت فى نفس الشاعر ، يفرغها لمن شاء ، ومتى شاء .[١٣]

وقد انتقل بعد ذلك الى وصف احدى جولاته مع آل حجاف وآل شبانة من أهل القطيف ، ثم عاد ثانية ليخلع عليه مزيدا من صفات الكرم ، والشجاعة ، وسمو الشرف ، والفصاحة .

كما خص الأمير «الفضل» بن محمد بن أبى الحسين بأربع قصائد ، وكانت صلته به استمرارا لصلته الطيبة بوالده ، ووفاء منه لتلك

الوشائج المتينة بينهما . فقد سفر له لدى بلاط الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) ، ليستعين به على حرب القطيف ، عندما أطلت الفتنة برأسها بعد مقتل أبيه .

وفي عهد هذا الأمير نكب ابن المقرب ، وسجن ، ثم ارتحل الى العراق ، ومع هذا بقي على حبه له ، وتقديره لآل الفضل .

فقد جاءه بعد مقتل أبيه ، راثيا مادحا بلاميته ومطلعها :

ظننت حسودى حين غالت غوائله
يريع الى البقيا وتطوى حبائلة(١٤)

ويمضي الشاعر في قصيدته متنقلا بين أغراض عدة ، ولم يشر الى ممدوحه الا فى البيت الثامن والأربعين بقوله :

أيا فضل لازالت لنعماك تلتقى
بمغناك سادات الملا وعباهله

وبدل أن يشغل بمدحه ، أخذ يعاتبه ، ومضى في عتابه له حتى نهاية القصيدة عندما توقف ليسأله الرفد ، أو قل حقه في أن يرفد ، فالممدوح والشاعر منصبهما في الفخر سواء ، وكذا ربعهما، فيقول في ختام قصيدته :

ومنصبك السامى الى الفخر منصبى
وربعك ربعي والعلى انت آيله
فجد بالذي تحوى يداك على الورى
وضن عليهم بالذي انا قائله
فما المسك الا من عقابيل نشره
ولا الجوهر المكنون الا خصائله

ورأيك أعلى والرضا ما رضيته
وكل امرىء غول المنيه غائلة

ونلاحظ ان الشاعر يهدد ممدوحه فى البيت الثاني بأسلوب غير مباشر ، فهو اذا لم يحظ بنيله ، فانه سيتحول ـ مضطرا ـ بعقود نظمه الى غيره من الممدوحين . وقد خلت القصيدة ـ كما لاحظنا ـ من المدح ، فلم يخلع الشاعر على أميره شيئا من الأوصاف التى اعتاد أن يكيلها لوالده . ولعل انشغاله بالفقيد في الشطر الاكبر من القصيدة كان وراء هذا الاهمال لممدوحه .

وقد أتبع هذه القصيدة بنونيته ، ومطلعها :

ما انصف الطلل العافى بما وانا
لم نشجه يوم سلمنا واشجانا(١٥)

وبعد واحد وستين بيتا يخلص الى ممدوحه ، فيصفه بالحزم والعزم ، والبأس الصادق والندى الغامر ، والحلم ، والعقل ، والهيبة ،... ومنها قوله :

حزم وعزم وباس صادق وندى
غمر وحلم وعقل فاق لقمانا

ومنها قوله :

أنت الذي ترك الاعداء هيبته
كل يجمجم ما يلقاه حيرانا
يأبى لك المجد والطبع الكريم بان
تدعى على المال للاحداث خزانا
يا من يرى بذله الاموال فائدة
تبقى له ويرى الامساك خسرانا(١٦)

اما رائيته التى استهلها بقوله :

الناصر لدين اللـه فميميته التى مطلعها :

الام انـاجى قلب حـيران واجـم
وانظر عودى بين لاح وعاجم[٢٧]

فبعد مقدمة لم تجاوز ثلاثة أبيات ، خلص منها الى المدح ، وقد أفاض فيها بمـدح آبـائـه من بنى هـاشم ، وفضلهم ، وتقدمهم ، وأحقيتهم في الخلافة :

فقل لدعاة الشرق والغرب اقصروا
وكفـوا والا تقـرعـوا سن نـادم
فمـا الحق الا دعـوة هـاشميـة
هى الحق لادعوى غوى وغـاشم
بها اصبح الاسلام فى كل موطن
ينـوء بركن منـه عقد الـدعـائم
اقـام لـه في كـل ثغـر كتـائبـا
ترى الشرك من شداتها فى ماتم
تبيت طـواغيت النفـاق لـهمـه
كان حشاياها ظهـور الشياهم[٢٨]

ثم يصف الرحلة الى الخليفة ، ويبدو أنها رحلة بحرية برية لقوله :

فكم متن ساج تحت ساج قطعته
على ظهر ساج غير واه العـزائم
وكم جبت من خرقا تموت بها الظبا
بهمة مضاء على الهول حـازم[٢٩]

ولا يخفى ما في البيت الاول من صنعة متعمدة ، فى الجناس التام الناتج عن تكرار كلمة (ساج) مرة بمعنى البحر ، وأخرى بمعنى الليل ، وثالثة بمعنى السفينة .

وبعد عرض مفصل ، وصادق لنبته ، يتجه الى الخليفة طالبا نواله صراحة هذه المرة :

وبشرت أهلى بالغنى حيث مرجعى
اليهم عـلى انف من الدهـر راغم
فجئت وقد نالوا السماء وايقنوا
بـأن الغنى اضحى كضربـة لازم
ولم امتدح خلقا سواك لما له
فـاحظـى بنيـل أو ببعـض الأبـاهـم
وانى لأرجـو من ايـاديـك نفحـة
على الدهر يبقى ذكرها فى المواسم
افيـد بها مجـدا واكبت حـاسـدا
واعلو بها هام الملوك الغوانم[٣٠]

والملاحظ على مدائحه فى الخليفة الناصر ـ خاصة ـ ميله الى الاغراب والصنعـة ، وكأنـه قـد أراد أن يستعرض امكاناته الفنية ، وابداء مقدرته اللغوية ، في موقف لا يخلو من منافسين ، والى جانب هذا الاغراب ، وتلك الصنعة ، نلاحظ فيها ثقافة واسعة في علم الانساب ، وحوادث التاريخ ومأثور القول .

اما الشخصية العراقية التى أقام شاعرنا فى بلاطها ، وحظيت بأكبر قدر من مدائحه فهو شمس الدين باتكين أمير البصرة . فقد خصه بثمانى قصائد . ويبدو أن ابن المقرب بعد فقده للأمير محمد بن أبى الحسين العيونى ، كان بحاجة الى شخصية بديلة ، يجد فيها ما ينشده ، من مثل عليا ، وكأنما قد وجد ضالته فى الامير باتكين ، لما عرف عنه من عزم ، وحـزم ، وعلم ، وتقديـر للعلماء ، وصلابة فى وجه أعدائه ، وحرص على النهوض بالبصرة ، فكان ألمع ولاة

العراق ، وأكثرهم تقديرا لدى الخليفة الناصر . وقد كان الاعجاب متبادلا بين الشاعر والأمير ، فقد أكرمه باتكين وقدمه ، وحنا عليه ، وألقى عليه ظلا من رعايته ، مكبرا فيه كرم الأرومة والشاعرية ، فانقطع له مادحا ، ومسجلا لمآثره ، وكأنه اراد ان يجدد لنا ذكرى تلك الصلة الحميمة بين المتنبى وسيف الدولة ، فمدح شمس الدين قريبا منه ، وبعيدا عنه .

ومن الواضح ان ابن المقرب كان بدون منافس عنده ، فشعره لا يحمل الينا ، ولا يومىء لنا بمثل ذلك ، بل لا نظن شاعرا فى الحواضر العراقية - أنذاك - كان يفضل شاعرنا ، فهذه الفترة لم تحمل الينا أسماء شعراء نابهين ، ولعل هذا ما يفسر لنا هدوء نفسه ، بالاضافة الى رتابة شعره وعدم تلوينه .

ومما يميز مدائحه لشمس الدين « أنها من المدائح التى لا تصلح الا لمن قيلت فيه ، فالشاعر لا يكتفي فيها - كما يكتفى الكثيرون من شعراء المديح وكما فعل هو في مدائح أخرى - باسباغ نعوت الحمد على ممدوحيهم ، مما هو عام شائع يصح قوله في كل ممدوح ، ومما لا يميز ممدوحا عن غيره ، بل نراه يلحظ بعين الاهتمام والتقدير ، ويسجل بقلم المؤرخ الصادق ما تتصف به حكومة الممدوح أو سيرته من قيام بالعدل ، وحنو على الرعية ، وماله من أياد فى ميدان العمران « وحسبنا لاميته التى أولها » .

ماشئتما يا صاحبى فقولا
هيهات لن تجدا لدى قبولا[٣١]

وهى أول ما نظمه فيه ، فالشاعر يذكر من سمات الممدوح وصفاته ، ومن أعماله وأفضاله ما هو حقيقى تاريخى ، ولعل ولع الشاعر بالتاريخ - وهو ما تكشف عنه اشعاره - قد وجه اهتمامه الى ذكر هذه الحقائق والاعمال التى غفلت عنها كتب المؤرخين . فهذه القصيدة تطوف بنا أرجاء البصرة ، وتطلعنا على مناحى النهضة الحديثة ، التى تحققت على يدى واليها الصالح المصلح ، فقد أحاطها بسورمحكم ، وابتنى فيها المدارس والمشاهد والربط ، وأنشأ سوقا تنافس سوق بغداد ، ورمم مسجدها ، وأدخل عليه تعديلا :

كانت سواداً قبله فأعادها
مصرا تروقك ممسئاً ومقيلا
بالمبرم الاسواق والسور الذي
منع الأعادى ان تميل مميلا
والربط بين مدارس ومشاهد
شرفت وفضل أهلها تفضيلا
أحيى بها للشافعى ومالك
وابى حنيفة احرفا وفصولا
وبجامع ند الجوامع كلها
حسنا وعرضا فى البناء وطولا[٣٢]

وقد سلك نفس المنهج فى داليتيه ، الاولى ومطلعها :

طما بحر الهموم به فمادا
وعوضه عن الغمض السهادا[٣٣]

مدح بها بدر الدين ، تكراره لأبيات بعينها ، وردت فى (ميميته) التى مدح بها الخليفة الناصر لدين الله ، وقد بلغت هذه الأبيات أربعة عشر بيتا ، كرر بعضها دون تغيير كقوله :

فإن هومت اهدت لها سنة الكرى
سراياه تردى بالقنا والصوارم
فتزعجها حتى كأن قد اصابها
من المس مالا يتقى بالتمائم
فليس لها في نومها منه راحة
اذا النوم اسرى الهم عن كل نائم(٥٢)

والبعض الآخر من الأبيات ناله حظ يسير من التغيير ، كأن يستبدل لفظه بأخرى أو يضع اسم بدر الدين بدلا من اسم الخليفة ، ومن ذلك قوله في مدح الخليفة الناصر لدين الله .

إليك أمير المؤمنين تجشمت
بى البعد همات النفوس الكرائم
فكم متن ساج تحت ساج قطعته
على ظهر ساج غير واه العزائم
وكم جبت من خرقا تمون بها الظبا
بهمة مضاء على الهول حازم(٥٣)

وقوله فى مدح بدر الدين لؤلؤ :

اليك (طوت يابا الفضائل وامتطت)
بى البعد همات النفوس الكرائم
فكم متن ساج تحت ساج قطعته
على ظهر ساج غير واه العزائم
وكم جبت من خرقا تموت بها الظبا
(بعزمة) مضاء على الهول حازم(٥٤)

وكذا كان شأنه فى سائر الأبيات الاربعة عشرة ، ولولا ان تكرار بعض معانى المدح ظاهرة ملموسة فى مدائحه بعامة ، لرجحنا ان هذا العمل منوط بالناسخ لا الشاعر . ولكن ما يرجح رأينا أن الأبيات اياها ليست مرتبة ، فقد أسقط الشاعر بعض الأبيات من مدحة الخليفة التى لا تناسب الممدوح الجديد ، كقوله :

فما الحق الا دعوة هاشمية
هى الحق لا دعوى غوى وغاشم(٥٥)

وليس من شك فى دلالة هذا الكم المتكرر على افلاس الشاعر في معانى المدح ، وعدم مطاوعتها له ، كما تطاوعه الفاظه ، وتسلم زمامهاله .

ومما يبعث على الدهشة بيتان من الهجاء ، ختم بهما ابن المقرب مدائحه لبدر الدين لؤلؤ ، هما :

تسلطن بالحدباء عبد بلؤمه
بصير بلى عن نيل مكرمة عم
اذا أيقظته لفظه عربية
الى المجد قالت أرمنيته نم(٥٦)

وقد جاء في مقدمة البيتين ما نصه « وله يهجو بدر الدين صاحب الموصل ، وقد سأله أن يهجوه »(٥٧) اما نسخة برنستون الخطية فقد جاء فيها ما نصه : « وقال يهجو بدر الدين صاحب الموصل ، وقد سأله ان يهجوه ، فأبى ، ولما لم ير بدا من اجابة سؤاله ، قال هذين البيتين ، وذلك من غرائبه .(٥٨) ولكن الناسخ فاته أن يسجل البيتين بعد التقديم لهما .

وهذا أمر غريب حقا ، اذ كيف يطلب شخص كبدر الدين من شاعر أن يهجوه وهو الحريص على

استقطاب الشعراء حوله ليمدحوه ، ويسجلوا مآثره ؟! وحتى لوطلب لا أظن ابن المقرب سيوافقه ، وان وافقه فلن يكون بمثل هذه الجدية في هجائه . ولكن ما يقبله العقل ، ويستسيغه ، المنطق ، ان ابن المقرب قد استطاع ان يسبر أغوار بدر الدين ، وأن يقف على ما تنطوي عليه نفسه من زيف وخداع . فهاهو ذا مؤرخ معاصر وأحد أبناء الموصل ، يصفه بأنه من دهاة عصره ، ميكيافيلي السياسة ، يقدم على كل أمر في سبيل توطيد ملكه .. وان اظهر الاسلام ، وحب آل البيت ، الا أن الاسلام لم يجد الى قلبه سبيلا ، قاسي القلب ، كثير القتل والتشويه ، نكل بكثير من رجال الموصل الذين انكروا أفعاله ، وأوجس منهم خيفة ، ثم أراد ان يستميل نصارى أهل الموصل ، فأمر بالاحتفال بعيد الشعانين ، وأظهر فيه من أسباب الخلاعة والمجون ، ما نفر أهل البلد منه .(٥٩) .

أما مدائحه في شرف الدين عميد الدولة(٦٠) ، فقد احتفظت بها نسخة الظاهرية الخطية تسلسل (٦٢٣٤) ، كما احتفظت بها نسخة لندن الخطية تسلسل (٧٢٨٨) وخلت منها نسخة الحلو المطبوعة .

وقد خصه الشاعر بأربع(٦١) قصائد، تقليدية في منهجها ومعانيها ، وان كان قد عمد الى ممدوحه مباشرة دون تمهيد بالنسيب في قصيدتين منها ، كلاميته التي استهلها بقوله :

عميد الدولة الغراء قل لي
علام جفوتني وصرمت حبلي(٦٢)

ويلاحظ على مدائحه فيه ، ان الشاعر لا يولي الجانب التاريخي اهتمامه ، كما هو الحال مع سائر ممدوحيه . كما يبدو منها ان صلته بالممدوح كان يشوبها شيء من النفور وخاصة من جانب عميد الدولة الذي تخلى عن نصرة ابن المقرب حين استعداه. على بعض خصومه.

رجوتك يوما ما لدفع عظيمة
ومثلك من يدعى لدفع العظائم
وفوفت من مدحي لمجدك حلة
يقصر عن تفويفها كل راقم
وما انا بالباغي عن المدح نائلا
وأنت فمعروف نبيل الكرائم
فقلت مديحي عند مجدك حرمة
فضيعتها لما اعنت مخاصمي(٦٣)

ولم يتناول الدكتور رزوق فرج هذه المدائح في عميد الدولة ، في بحثه عن « عراقيات ابن المقرب » ظنا منه أن النسخة المحققة قد ضمت شعر الشاعر بأكمله .

وبعد أن استعرضنا ألوانا من مدائح الشاعر ، حاولنا فيها أن نوضح المنهج الذي أثره ، والصفات التي خلعها على ممدوحه ، ووقفنا عند شخصيات بعينها نظرا لمكانتها وخطرها ، وتقديرها لشاعرنا ، واعجاب الشاعر نفسه بها ، تجدر الاشارة الى أن مدائحه التي وجهها

لله درك اى موضح مشكل
أضحى ومن شبه عليه ختام[٧٤]

ونجد ابن المقرب يقتبس ـ أحيانا ـ معنى آية كريمة ، أو حديث شريف كقوله في مدح شمس الدين باتكين معرضا بأعداء الأمير :

وأراهم اعمالهم حسرة
والله للظالمين بالمرصاد[٧٥]

فقد ضمن في هذا البيت قوله تعالى « كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار »[٧٦] . ومنه قوله في مدح الخليفة الناصر لدين الله :

فإن انتم أمطرتموها تحدثت
وجادت وانت اكلها كل طاعم[٧٧]

فضمن في هذا البيت قوله تعالى « كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ..»[٧٨]

ويكثر الاقتباس في شعره ، ومنه قوله في مدح الخليفة الناصر لدين الله :

وأتاكم فصل الخطاب ومحكم الـ
كتاب وملكا زاهياً غير زائم
فاوضحتم سبل الهدى وكشفتم
عن الحق أغشاء العمى المتراكم
وقومتم بالسيف من مال خده اصر
عراراً ولم يشمخ بأنف لخاصم[٧٩]

ولا يخفى ان الشاعر قد اقتبس قوله تعالى[٨٠] وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب « وقوله تعالى « ولا تصعر خدك للناس » .[٨١]

وقد يقتبس معنى أحد الاحاديث النبوية ، كقوله فى مدح الامير الحاكم على ابن ماجد بن محمد العيونى :

وعف فلم يمدد الى مسلم يداً
بسوء ولا باتت له عقرب تسرى[٨٢]

فقد اقتبس قوله صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .[٨٣]

كما ينعكس في مدائحه أثر ثقافته التاريخية:

ففى مدائحه لامراء أسرته تسعفه حافظة واعية بأيام وأبطال ربيعة ، ومن انحدر منها من القبائل ولا سيما قبائل عبدالقيس وحين كان يمدح أحدا سواهم ، كان يعنى بتسجيل مآثر قوم الممدوح فى الجاهلية وصدر الاسلام ، أما اذا كان ممدوحه متحدرا من أصول غير عربية، فنلاحظ أنه كان يعوض هذا بالاهتمام بمآثر الممدوح الحاضرة ، كما فعل مع شمس الدين باتكين ، وبدر الدين لؤلؤ ففى مدحه للخليفة الناصر لدين الله يقول :

سمى النبى المصطفى وابن عمه
ومالك اعناق الملوك الخضارم
نماه أبو الفضل الذي لم تزل به
بنو الجدب تسقى فى السنين العقائم
وحل الذرى فى (شيبة الحمد)[٥] وارتقى

الى ضئضىء العلياء من صلب هاشم
واحيا خلالا سنها فى زمانه
(قصى)[٨٤] أبو ساداتها والبراجم[٨٥]
ليالى يدعى فى قريش مجمعا
بجمع ذويها فى فنون المحارم[٨٦]

ومن القصيدة ذاتها يقول :

اذا العرب العرباء يوماً تفاخرت
بذى العز من ساداتها والقماتم
وجاءوا (بقيس)[٨٧] وابنه (وبمعبد)[٨٨]

(وكعب)[٨٩] و (اوس)[٩٠] و (ابن سلمى) و (حاتم)
واى كريم ليس ينسب جوده
الى جود بحر منكم متلا طم ؟

ومثل هذا قوله فى مدح فخر الدين الدارمى :

لكل امرىء ممن له الفضل خلة
بها قومه صاروا رؤوسا وانفا
(فكعب)[٩١] جواد (والزبيدي)[٩٢] فارس
(وقيس)[٩٣] حليم (والسموأل)[٩٤] ذووفا[٩٥]

ومظهر آخر في مدائح ابن المقرب هو نغمة السؤال:

وقد شاعت هذه النغمة بين شعراء المديح في هذا العصر ، «وأصبح لكل شاعر أن يطمح فى أن يسافر الى أمير يكفيه ، أو ملك يلبيه ، أو قائد يحميه »[٩٦] ولكن هذه النغمة تكاد تختفى من مدائح ابن المقرب فى امراء أسرته ، ونستطيع القول ان سؤاله لأبناء عمه الأمراء حكام الاحساء ، والقطيف ، لم يكن طلبا لرفدهم ، بل كان مطالبة بحقه المضيع ، وما له المغتصب ، ولم تكن تسمح له مكانته بينهم أن يسألهم الرفد ، ويستجدى نوالهم ، فيقول للأمير علي بن ماجد بن محمد العيونى :

وانى لصوان لمدحى وان نبا
بى الدهر واجتاحت نوائبه وفرى[٩٧]

ولكنه حين ارتحل الى العراق ، لم يجد حرجا في طلب النوال ، وان كفاه البعض مؤونة السؤال ، تقديرا لمكانته ، وهمته ، ونفسه الكبيرة ، وكنا نجده يلوح - غالبا - بمطالبه ولا يصرح بها ، فيقول :

فدونك عقدا صاغه الفكر من فتى
يرى أن مدحا في سواك خيال
ولست بمهد للرجال مدائحى
وان قل مال او تغير حال[٩٨]

ولكن هذه النغمة قد تأخذ شكلا اوضح في مدائحه للخليفة الناصر لدين الله ، والامير بدر الدين لؤلؤ ، كما أشرنا آنفا .

أما تلك الصورة المزرية للتكسب التى نجدها لدى بعض الشعراء ، ففى مدائح ابن المقرب لعميد الدولة نماذج قليلة منها ، كقوله :

اعرنى قبولا واصطنعنى واصف لى
جميلك كيلا يشمت الحاقد الملط[٩٩]
وكقوله :

وبالبيت العتيق ومن يلبى
من الهجاد فيه ومن يصلى
بقربى مع رجاى ووسع شكرى
لمجدك أن يضيق على سبلى[١٠٠]

ولهذا قد اختلف مع الدكتور رزوق فرج الذي يرى ان أسفار الشاعر الشاقة المضنية المتلاحقة ، التى حملت الشاعر من بلده الاحساء الى القطيف والبصرة وواسط وبغداد

والموصل وأربل وسنجار وغيرها من البلدان ، لم تكن أسفار شاعر مداح يجرى وراء المال أو يلهث خلف الهبات[١٠١] ، معتمدا في رأيه على ما جاء في مقدمة الديوان « من أنه لم يك يبغي على الشعر العطايا ، ولا يضع نفسه لشيء من الدنايا »[١٠٢] .

فاذا لم يكن ابن المقرب ـ في رأيه ـ يبغى نوالا من وراء ذلك ، فما الذي يبغيه اذا ؟ ولا سيا أنه (الدكتور رزوق) قد أغفل دواعي اضطهاده ، ودوافع رحلته . وكيف نفسر اشارات التكسب العديدة في عراقياته بخاصة ؟

كما يلاحظ على مدائحه طول نفسه فيها : وهي ظاهرة تكاد تشمل سائر قصائد الديوان ولعل هذا النفس الطويل مرده إلى :

ـ تمكن الشاعر من لغته .

ـ لجوئه الى الاسلوب ـ التقريري ـ أحيانا ـ في تسجيل مآثر الممدوح ، واصلاحاته ، وحروبه ان وجدت .

ـ استقصائه لصفات الممدوح التقليدية ، التى استقرت في الوجدان العام ، بعد مضي الفحول من شعراء المدح في العصر العباسي .

ـ حفظ الشاعر لقوالب معينة ، يكررها في مدائحه ، على اختلاف ممدوحيه ، مع تغيير طفيف في بعض الألفاظ ، وربما رددها كما هي دون أدنى تغيير وحسبنا هذان النموذجان من شعره ، فقد مدح الملك الأشرف الأيوبي فوصف موقعة له فقال :

ويوم يواري الشمس ريعان نقعه
ويحول قبل الطرف فيه الحمالق
وتمشي نسور الجو فوق عجاجه
وتبنى به أوكارهن اللقالق
كأن العجاجة عارض وكأنما
به المشرفيات المواضي عقائق
وتحسب من رأى الأسنة انها
قواذف قذف صوتت وصواعق
وقد أبطل الضرب القسي والقيت
فلم يبق الا ضارب ومعانق
مشى نحوهم مشى السبنتى فداحض
بشكته او طائش اللب زاهق
فصك به الابطال صكا به التقت
لقاء قلى أقدامها والعنافق[١٠٣]

ثم مدح بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ، ووصف موقعة له بقوله :

ويوم نحس يواري الشمس عثيره
حتى يخال الضحى قد غاله الأصل
كانما البيض راحت وهي مصلتة
فيه بوارق غيث رعده زجل
والسمر قد جعلت تحكى اسنتها
كواكب القذف والفرسان تنتصل
سما له مشية الرئبال لاخور
يشينه في تهاديه ولاكسل
بصارم لو علا ضربا به حضنا
لقيل كان قديما هاهنا جبل
اذا بدا ضاحكا في يوم معركة
بكفه بكت الاعناق والقلل
فصك هام العدى صكا مقل
قرت لأن سخنت من وقعه مقل[١٠٤]

والمتأمل لمعاني وأخيلة هذه الأبيات وسابقتها ، لا يحتاج الى كبير عناء

ليدرك مدى التشابه بينها، ومدى الحاح الشاعر على الصورة، واستقصائه لجوانبها، تلك الصورة التى أوجزها «بشار» في بيت واحد بقوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه(١٠٥)

والصورة العامة للمديح عند ابن المقرب:

هى تلك الصورة العامة لقصيدة المديح التى طرقت مرارا وتكرارا في العصور التى سبقت شاعرنا، وعرفها عصره، معانيها معان موروثة، والممدوح شخص تتمثل فيه طائفة من القيم والمثل، تغنى بها شعراء العربية على مدى العصور كالكرم، والشجاعة، وسداد الرأى، والتقى، والحياء، والعدل، والاحساس، والعفو، والحلم، ونصرة الدين :

حياء واقدام وحلم وقدرة
وحزم وجود ليس فيه مطال
وعلم وايمان وعدل ورافة
ونسك ورهبانية وجمال(١٠٦)

بهذه المعانى مدح باتكين أمير البصرة، وبمثلها مدح سواه .. «فقد ألم اخوانه قبله بكثير من المعانى، فضاقت سبل الاختراع، فأعادوا الصور والتراكيب، وتضاءلت ينابيع المديح، وجف معينه، وهكذا ألح المتأخرون على القديم، وبد لوا في مبانيه وصوره، وأعادوا وكرروا حتى سقط المديح البليغ، كما سقط العالم السياسي للاسلام في ظلمات داجيه»(١٠٧).

(٦)
الهجاء

يرى الأستاذ عمران محمد العمران(١٠٨) أن ابن المقرب قليل الهجاء، ولم يهج سوى اثنين، وليس له سوى قصيدتين ومقطوعة من بيتين. ولكنه أغفل تماما نوعا آخر من الهجاء غير هذا الهجاء الفردى، وهو هجاء ابن المقرب للجماعة، وهذا النوع من الهجاء أكثر أنواعه تعقيدا، وأعمقها، تجربة، ونجده في عشر قصائد عنده، أربع منها كان غرضها المدح، وخمس منها تنازعها الهجاء والفخر، واستقل هذا النوع بقصيدة منها. وقد بلغ مجموع أبياته في هذا الغرض مائتين وثمانية عشر بيتا.

اذا فابن المقرب لم يكن كثير الهجاء ولا قليله، غير أننى أرى أنه من الهجائين، أو أن في مقدوره ما يجعله في مصافهم، لأنه يملك أدوات الهجاء، من لسان سليط حاد، وقدرة على السخرية والاستهزاء، كما أن له قدرة على النقد الاجتماعى، وهو وإن ذكرنا بروح جرير في هجائه الاقذاعى، وبروح ابن الرومى في هجائه (الكاريكاتيرى) الساخر، الا أنه لم يبلغ مبلغهما.

ولعله كان يكبح جماح امكاناته فى

الهجاء من الانطلاق في هذا الميدان ، لأنه لايتلاءم مع نفسه المترفعة ، فالهجاء في حقيقته « تجسيد لملامح الشر والاختلال والشعور بالنقص والاختلاف »[١٠٩] ولم يعرف عن ابن المقرب انه كان يعاني شيئا من ذلك .

وكان ابن الدبيثي صاحب الحظ الأوفر من هجائه الاقذاعي ، وسخريته اللاذعة فقد خصه بقصيدتين طويلتين ، تزيد أبيات كل منهما عن الأربعين .

وابن المقرب حين يهجو ، هجاء فرديا يفحش أيما فحش ، ولا يتورع عن ايراد العبارات المخجلة ، والالفاظ النابية ، كقوله من رائيته في هجاء ابن الدبيثي :

بع واسطاً بالناي والهجر
ودع المرور بها الى الحشر
ارض يدبرها ابن صابئة
شابت مفارقها على الكفر
قد سد واسع قبلها عظم
فجميع ماولدت من الدبر[١١٠]

وليس من شك في بشاعة هذا الهجاء وفحشه ، ولولا موضوعية البحث العلمي لما أوردت شيئا من مثل هذا الفحش .

وبعد أن نال من أم مهجوه بهذا السيل من فاحش اللفظ والمعنى ، يتحول اليه ساخرا منه، في قول مسف ، وعبارة لاذعة :

لك لحية كالتيس ما برحت
من بوله في ناطف تجري
وبها اذا حاضت حليلتك الر
رعناء تعرف أول الطهر
ولسوف يحلقها اخو كرم
زاكي الأرومة طيب النجر
وهي التي غرتك فابغ لها
بيتا يحصنها من الظهر
واجمع حواليها ليمنعها
ما استطعت من مستحكم الجعر[١١١]
فلقد اتاها ما سيتركها
مرداء خالية من الشعر
ولعل ذلك فيه مصلحة
لك يالئيم ونحن لا ندري
تمسي كما قد كنت محترما
عند الزناة معظم القدر
يعطيك حكمك كل ذي شبق
يهوى العلوق مضبر عفر

ولكن مادوافع ابن المقرب الي هذا الفحش في الهجاء ؟ يرى أستاذنا العقاد ـ رحمة الله ـ أن « الافحاش وليد الحضارة ، والغلو في الافحاش وليد التهتك في الحضارة ، ومتى غلا الشاعر في القذف بأدناس التبذل والخلاعة ، فهناك عيبان محققان أحدهما ولا شك عيب البيئة التي اشاعت تلك الأدناس ، أو جعلت الذم بها ذما هينا على الاسماع ، فلا بد فيه للشاعر من المبالغة والاغراق . والثاني : نبحث عنه في قائل الهجو ومدمنه ..»[١١٢] وحبذا لو كان قد أضاف اليهما أمرا ثالثا ، نبحث عنه في شخص المهجو نفسه ، لكي نستطيع أن نفهم تطرف شاعرنا في هجو شخص بعينه . فلم يعرف عنه انه هجا أحدا غير ابن الدبيثي بمثل

هذا اللون من الهجاء ، أو بما هو أقل منه . فلم يكن من مدمني الهجاء كالحطيئة وابن الرومي مثلا .

لذا يصبح البحث في شخص المهجو في هذا المقام أجدى وأدنى الى القصيد وحسبنا في هذا المقام شهادة مؤرخ معروف عاصر الشاعر ومهجوه ، فقال في ترجمته لابن الدبيثي « وكان قد ضمن البيع بواسط وظلم الناس وصودر ومقته الناس »(١١٣) .

وبعد هذه الشهادة ، أصبح موقف الشاعر من ابن الدبيثي امرا لا يستدعي الدهشة ، ولا سيما اذا ماعلمنا ان نفس الشاعر ، وأحواله المادية لم تكن تسمح له بأن يقبل ذلك الظلم الدبيثي ، ويدفع تلك الضريبة الباهظة التى اشتط رجال المكوس في تقديرها ، وكان تصرف ابن الدبيثي ورجاله لهو أقرب الى سلوك الشطار وقطاع الطرق منه الى عمل رجال الضرائب والجمارك ، وفي هذا يقول ابن المقرب :

انكرتني ولسوف تعرفني
فتقر اني واحد العصر
فاذهب فراراً كيف شئت فما
تنجو باجنحة القطا الكدر
قد يمهل الله الظلوم الى
حين ويجزى المكر بالمكر
اسرفت في ظلم العباد اما
للبعث في ناديك من ذكر
واعنت قطاع الطريق على
فقر التجار وخيبة السفر
نصف البضاعة حين تظفرها
مكس لقد بالغت في النكر
خنت الخليفة في رعيته
وعصيته في السر والجهر(١١٤)

فالشاعر حين نظم هذا القريض ، كان في حالة شديدة من السخط والغضب والهياج ، فجاءت قصيدته غضبة حليم لا ترحم . ولكن مهما كانت دواعى الهجاء ، وأيا كانت عيوب البيئة ، والمهجو فلا يليق بشاعرنا ان يتدنى الى مثل هذا المستوى ، من السباب الرخيص ، وتناول الأعراض .

أما قصيدته الثانية التى هجا بها ابن الدبيثى ، فقد بلغ فيها حدا من الاسفاف ، وقذف الأعراض ، يجعلنا نتحرج من الاستشهاد بشىء منه .(١١٥)

وقبل أن ننتقل الى لون أخر من هجاء شاعرنا ، لابد من أن نشير الى مذهبه فى هجائه الفردى الاقذاعى ، الذي يبدو أنه سلك فيه طريقة جرير وابن الرومى من بعده « فجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، وترك الفحش فيه أصوب الا جريرا فانه قال لبنيه : «اذا مدحتم فلا تطيلوا المادحة ، واذا هجوتم فخالفوا ، وقال ايضا اذا هجوت فأضحك »(١١٦)

وان كنا لا ننكر على جرير ، وابن الرومى فحولتهما ، واستاذيتهما ، فهما علمان شامخان فى عالم الشعر ، الا أننا لا نستطيع أن ننكر أن الهجاء

الاقذاعي الفاحش يعد أقل منزلة من هجاء التعريض والتلميح ، فيروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : « خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها »(١١٧) ثم جاء ابن رشيق ففصل هذا الرأى بقوله : « ان التعريض اهجى من التصريح لا تساع الظن فى التعريض ، وشدة تعلق النفس بـه ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فاذا كان الهجاء تصريحا أحاطت به النفس علما ، وقبلته يقينا فى أول وهلة ، فكان كل يوم في نقصان لنسيان أو ملل يعرض ..»(١١٨).

ومن هجائه الفردى بيتان هجابهما أمير الموصل بدر الدين لؤلؤا ، وختم بهما عددا من مدائحه فيه ، وحاولنا تفسير موقف ابن المقرب الفريد من هذا الممدوح المهجو .

كما نجد في هجائه بيتين من ذلك اللون (الكاريكاتيرى) الساخر الذي اشتهر به ابن الرومى ، هجا بهما شخصا مجهولا ، فقال :

وابكم مثل حب القرع مبسمه
وأحدب وجهه الخازى من السفن
يرغو اذا هر في قول مشافره
مثل الثمامة اذ تعلو على اللبن(١١٩)

ومثل هذين البيتين عبثه بلحية ابن الدبيثى ، وهذا الكم القليل جداً ينبى عن مهارة وقدرة فى التصوير ورسم الحركة وانتزاع الاعجاب .

أما الهجاء الاجتماعى أو الايجابي ، فهو أعمق أنواع الهجاء تجربة ، وأعلاها رتبة ، وهو الغالب على شعر الهجاء عند ابن المقرب ، وكان هذا النوع عنده أقرب الى النقد الاجتماعى . ومن ذلك قوله :

ومن الشقاء اقامتى فى بلدة
لله جد عدوها ما أسعدا
لو حلها كسرى لقال لما يرى
نفسى لمن يبغى الخراب لها الفدا
ما بين قوم لا يصان لجارهم
عرض ولا يرجى لغيهم هدى
سوداء مومسة اجل لديهم
من عالم حبر وادنى مقعدا
وبمصلح لابل بالفى مصلح
لا يعلون خبيث اصل مفسدا
لو قيل كن هوداً لأشرف رتبة
منهم ودونك درهما لتهودا

ينزل الشاعر سياط هجائه على قومه . منتقداً ماتفشى في مجتمعهم من أمراض اجتماعية ، مبينا كيف انقلبت المثل والقيم رأسا على عقب حتى أصبح مجتمعهم في حالة من الانحطاط والفساد لا يحسد عليها . وفي مثل هذا النوع من الشعر نحس ان الشاعر قد انفصل عن مجتمعه . ولم يعد واحدا منهم . ولكن الحقيقة كانت غير ذلك ، فابن المقرب لم ينفصل عن مجتمعه . وشعره شاهد على صلته الحميمه به ، وانما اتخذ من هذا (النقد الاجتماعي) والقسوة فيه سبيلا لاصلاح قومه .

وكلما ازدادت أوضاع قومه ترديا ، ازداد حدة وقسوة فى

هجائهم :

ثكلتهم الأعداء إن حياتهم
غم الصديق وفرحة الأعداء
اموالهم لذوى العداوة نهبة
وعن المكارم في يد الجوزاء
لا يعرف المعروف فى ساحاتهم
الا كما يحكى عن العنقاء
جلد الجمال على الهوان وفيهم
ضعف الدبا وتلون الحرباء
واذا ابتدوا بحثوا البذا فكانهم
دجج تباحث عذرة بفضاء
عمى عن الاحساس الا انهم
اهدى الى لؤم من الزرقاء
صم عن الحسنى ولكن طالما
سمعوا كلام الحكل فى العوراء
جعلوا المحال الى المحال ذرائعا
تغنى عن البيضاء والصفراء[١٢٠]

الا ترى بداوة صوره ومعانيه في هذه الأبيات ، ومطاوعة المعجم البدوى ، له ، واستقصائه لجوانب المعنى بسيل من الكنايات العفوية ذات الدلالات التراثية الدقيقة ، وان كانت الصنعة - أحيانا - قد اعترضت سبيل التدفق العفوى ، فألبست المعنى كالتجنيس بين (المحال والمحال) في البيت الأخير .

وأكثر ما يأتى هذا اللون من الهجاء عنده ، في قصائد الفخر « لأن الهجاء وبخاصة الوجدانى منه ، ليس في الواقع سوى وجه آخر من الفخر ، انه الفخر السلبى[١٢١] لذا فإن هذين النوعين الأدبيين يتجاوران فى شعره ، ويمتد أحدهما في الآخر ويتكامل به ،

ومن ذلك قوله :

سأمضى على الأيام عزم ابن حرة
يرى العود فيما تكره النفس احمدا
فاما حياة لا تذم حميدة
يحدث عنها من اغار وانجدا
انال المنى فيها ، واما منية
تريح فؤاداً اح من غلة الصدى
وأهجر داراً لويحل ابن (قاهث)[١٢٢]
بها راح مسحوتا من المال محجدا
يدبرها أوباش قوم تنكبوا
عن الرشد حتى خلت ذا الغى ارشدا
اذا رضى الأعداء منهم مهانة
باخذ الجزى عدوه نصراً مؤيدا
اقاموا الأغانى بالمغانى وضيعوا
كرام المساعى والثناء المخلدا
فلو احسن التصفيق والرقص فيهم
ورفع المثانى والغناء المهودا
لعشت عزيزا فيهم ولما اجترا
يمد الى الضيم باعاً ولا يدا[١٢٣]

وقد تصل به القسوة فى هجاء قومه الى حد التشكيك فى صحة نسبهم :

نسبوكم فعزوا بيوتا منكم
مشهورة لسواد خوزستان
نقلت أوائلهم الى البحرين كى
يبنوا مشقرها (انو شروان)
قد كنت اكذب ذاكم واظنه
من داعيات البغض والشنان[١٢٤]

وبعد هذه النماذج التى تناولناها من شعر الهجاء عنده ، نستطيع ان نقول :

- أن الهجاء الفردى عنده لون من السباب والشتم ، ويذكرنا ببشار بن برد في هجائه .

ـ وأنه يتناول العرض والشرف ، بلا وازع من دين أو ناه من خلق ، كما فعل مع ابن الدبيثي .

ـ أما تصويره الساخر (الكاريكاتيري) فالقلة القليلة من أبياته فيه تدل على استطاعة ومهارة .

ـ وأنه يتخذ من هجائه لقومه وسيلة للنقد الاجتماعي .

ـ وشعره في الهجاء الاجتماعي امتداد لشعره في النصح والعتاب ، ولا يختلف عنه في النوع . ولكن يختلف عنه في الدرجة .

(٧)
الحنــــين

الحنين إلى الأهـل والـرفـاق، والمنازل ، والديار ، وملاعب الطفولة ، ومرابع الصبا ، وأيام الهوى والشباب ، من اصدق الموضوعات التي ضمها ديوان الشعر العربي ، وأشدها وقعا في النفس ، وتحريكا للمشاعر الانسانية المشتركة . فقد صدر فيها الشعراء عن معاناة حقيقية ، بلا رياء او تملق ، فجاءت زفرات حرى ، وأحاديث نفس تفيض باللوعة والشوق ، تنفيسا عن ضغط مشاعر الغربة ، والانفراد ، والوحشة . وقد بلغت أبيات ابن المقرب في هذا الغرض ثمانين بيتا ، جاءت كلها في ثنايا عراقياته .

وكما نعلم فقد نزح الشاعر عن وطنه مثقلا بهموم نفسه ، تحدوه آمال عريضة تكاد لاتتسع لها حواضر العراق وبواديه . وسرعان مايشده حنين الوطن الجارف ، على الرغم ممالقيه فيه من اذى حتى من أقرب الناس اليه ، فيقول :

ياحبذا وادي الحساء فإنه — لوساءني — واد الى محبب
بل حبذا درب السليم وحبذا — ذاك القطين به وذاك الملعب[١٢٥]

يبدو من هذين البيتين مدى صدق الشاعر في حنينه الى موطنه ، ولاسيما في قوله (لو ساءني) وهذه الموسيقا التي نستشعرها من تكرار فعل المدح «حبذا» .

وقد كانت هجرته الى العراق هجرة جسد فحسب ، لاهجرة قلب وروح فقال في صدر كتاب الى اهله من بلاد البصرة :

كتاب مشوق ماتغنت حمامة — من الورق الا حن شوقا اليكم
مقيم بارض المجزرى وقلبه — رهين بجرعاء الشمال لديكم[١٢٦]

وقد يتوهم مسافرا ميما شطر الاحساء ، فيستوقفه ليحمله رسالة حب الى وطنه ، مفعمة بمشاعر الشوق والحنين :

فياراكبا وجناء تستغرق البرى — ويطوى الفيافي خطوها وانجذابها
اقم صدرها قصدا الى الخط واحتقب — رسالة ود انت عندى كتابها
فحين ترى الحصن المعلى مقابلا — ويبدو من الدرب الشمالي بابها
فلج بسلام آمنا تلق بلدة — مقدسة الاكناف رحبا جنابها[١٢٧]

ويتكرر هذا الاسلوب فى شعر الحنين عنده ، ومنه قوله :

فياراكبا تطوى به البيد جسرة
وتغتال غيطان الفلا والأخاشبا[١٢٨]

وقد تحرك «ريح الشمال» حنينه، وكأنها رسول الشوق بينه وأهله:

يحن اذا هبت شمال لانها
تؤدي اليكم او تمر عليكم[١٢٩]

ويستبد به الشوق والحنين ذات يوم ، وقد أوغل فى أرض العراق قاصدا ديار بكر ، فيتمثل بقول الشاعر مالك بن الريب :

الا ليت شعرى هل ابيتن ليلة
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجبا

فيقول :

الا ليت شعرى هل ابيتن ليلة
بحيث التقى سقط اللوى والابارق[١٣٠]

وكان كلما طال مكثه فى العراق ، تعاظم شوقه وحنينه لى وطنه ، وأيام لهوه وصباه وعلت نبرة حسرته :

يا منزل الحى بالجرعاء لا برحت
تهمى بك المزن منهلا عزاليها
كم لى بمغناك من يوم نعمت به
وليلة تعدل الدنيا ومافيها
واهالها من ليال لو تعود كما
كانت وأى ليال عاد ماضيها؟
لم انسها مذ نأت عني بهجتها
وأين غر من الأيام تنسيها [١٣١]

بدأ الشاعر هذه الأبيات بالدعاء لموطنه بالسقيا على عادة أسلافه ثم أخذ يتحسر على أيامه التي قضاها على ترابه، والتي تعاوده ذكراها بين الحين والآخر، وقد أشاع الشاعر في ألفاظه، وصوره، ومعانيه جواً من الحسرة والألم، بل واليأس الذي نحسه لاستخدامه لأداة الشرط (لو)، وفي الاستفهام الذي ختم به البيت الثالث كما أن الاستفهام في البيت الأخير بما فيه من دلالة الاستبعاد ، ففيه دلاله أخرى على أحوال الشاعر فى غربته ، والتى يبدو أنها لم تعوضه عزه الذاهب فى الاحساء .

وتعد قصيدته التى قالها وهو عابر فى (دجلة) ، وقد سمع حماما يسجع ، من أجمل ما قاله من هذا اللون ، بل من أجمل قصائد ديوانه ، وأكثرها صدقا ، وعذوبة ، وأشدها تأثيرا فى النفس بموسيقاها المنسابة ذات النبرة الهادئة ، وقد استهلها بقوله :

صبا شوقا فحن الى الديار
ونازعه الهوى ثوب الوقار
وهاج له الغرام غناء ورق
هواتف فى غصون من نضار
صدحن غدية فتركن قلبى
وكان الطود كالشىء الضبار
رويدا ياحمام بمستهام
مشوق منه طول السفار
براه الشوق برى القدح جدا
فغادره بقلب مستطار

لقد فجرت تجربة الغربة ينبوع شعره ، فتدفقت رؤاه ثرة عذبة ، وانطلق يعبر عن هذا الموقف الشعرى الخلاق ، فأجاد تصوير صراع نفسه

الداخلى فى مطلع هذه الابيات ، كما استطاع التعبير فيه عن موقف انساني عام ، بدا فيه رقيق المشاعر والألفاظ والموسيقا، وكأني ببغداد وقد أنسته شيئا من وعورة باديته ، وهيأت له مثل هذه التجارب الحية الخلاقة .

واننا لنشفق عليه من غربته وشدة وجده فى هذه الصورة الحسية المنتزعة من بيئته «براه الشوق برى القدح جدا» التى توضح ذلك المصير الذى انتهى اليه؟ كما أن لفظة (جدا) قد ضاعفت احساسنا به ، واشفاقنا عليه .

وان كان ابن المقرب قد اتفق مع بعض شعرائنا فى اتخاذه من غناء الحمام تجربة شعرية ، يتجاوب فيها مع الحمام بكاء ببكاء ، مفضيا اليهن بأسراره ، لكنه زاد عليهم بابداء دهشته وعجبه لشدوهن الباكى ، وليس فى حياتهن - كما فى حياته - ما يوجب البكاء :

فواعجبا لكن تنحن خوف ال
فراق ومابدت خيل المغار
ولم تصدع لكن عصا ببين
ولم تعبث لكن نوى بعار
وانتن النواعم بين بان
وخيرى يرف وجلنار
وبين بنفسج يزداد حسنا
كلون القرص فى وجن الجوارى
تردن نمير دجلة لالغب
بطانا من بواكير الثمار
لدى أوكاركن بحيث تاج ال
خليفة لا باجواز البرارى
فكيف بكن لو نيطت شجونى
بكن ونار وجدى وادكارى(١٣٢)

ويمتاز شعر الحنين عند ابن المقرب :

- بأنه يأتى فى ثنايا عراقياته .

- وأنه يغلب عليه الصدق فى العاطفة لانه صادر عن معاناة حقيقية .

- وأنه يحسن اختيار ألفاظه وتنسيقها ، ورسم صوره الموحية بجوه النفسى .

- كما يظهر فيه - أحيانا - أثر الثقافة والقراءة .

(٨)
الحكمـــــة

عرف الشعر العربى كثيرا من شعراء الحكمة ، وافتن بعضهم فى ترصيع قصائدهم بها ، حتى اقترنت اسماؤهم بها كزهير ، وأبى الطيب ، وأبى العلاء ، وأبى تمام وغيرهم .

والحكمة عند الشاعرالعربى هى محصلة خبرات حياته ، وثقافته ، وهى - بحق - تمثل موقفه من أحداث الحياة ، وصروف الزمان ، فهى فلسفة حياة عندهم ، ومنها نستشف الكثير من جوانب شخصياتهم ، ونستجلي مكنونات نفوسهم.

فقد أدرك كبار شعرائنا رسالة فنهم ، فأوجزوا تلك التجارب الخاصة التى لقنوها فى مدرسة الحياة ، ليقدموها فى أطار فنى جميل مقنع

مسلم به ، لها طابع النصح غير المباشر ، ووجد الناس فيها ترجمة لمواقفهم من الحياة وصروف الدهر ، فحفظوها ورددوها فأصبحت أقوالا مأثورة ، وأمثالا سائرة .

«ولو كان حظ ابن المقرب كبيرا لدى الدارسين لعدوه أحد المبرزين فيها ، فهو بحق شاعر حكمه[١٣٣]» فقد رصع شعره بمائتى حكمه وردت فيما يقرب من ستين قصيدة ، ولم يكن له منهج محدد فيها ، فقد يجعلها فى مقدمة قصيدته ، او فى ثناياها وهو الغالب عنده .

وقد كانت تجاربه الشخصية فى الحياة مصدرا ثرا ، ومعينا لاينضب ، فحياته كانت رحلة حافلة بصنوف المعاناة . وأخصب تلك التجارب ، وأشدها معاناة ، وأبعدها أثرا فى نفسه ، هى علاقته بقومه ، واضطهادهم اياه ، وانكارهم حقه ، واعراضهم عن نصحه ، وتقريبهم للشانئين ، وابعادهم لذوى الرأى والخطر من قومهم .. فهاهو ذا يزهد فى الوطن ، ويزمع الرحلة لينأى عن دار الاذى ، فيقول :

ومن لم يفارق منزل الضيم لم يزل
يروح ويغدو موجع القلب باكيا
ومن يثو فى دار الهوان يعش بها
اخا مضض لايبرح الدهر شاكيا
ومن لم يوف النصف فى دار قومه
ويولى الاذى فالرأى ان لاتلاقيا
ومن يبغ عزا بالبلايا ودولة
يكن مثل من أمسى على الماء بانيا[١٣٤]

واذا ماأصبحت الغربة أمرا لابد منه فى حياته ، او أمراله مايبرره ، فهو يفلسف الغربة ، فيقول :

وماغربة عن دار ذل بغربة
لو أن الفتى أكدى وغثت ماكله
ورب غريب ناعم وابن بلدة
تبكيه قبل الموت فيها ثواكله[١٣٥]

وتهتز القيم فى موطنه ، وتنقلب المعايير الاجتماعية ، فتقدم بغاث الطير على نسوره فيقول :

واعلم بان النسر يسقط ريشه
حينا فيقعده عن الطيران
والصعو ينهضه وفور جناحه
حتى يحوز مواكن الغربان[١٣٦]

ويتمكن الشانئون من الايقاع به لدى أمراء قومه ، ويتظاهرون بصدق نواياهم فى نصحهم لهم فيفسح أبناء عمه لاولئك النفر المغيظين ، ويمكنوا لهم من أمور دولتهم ، ويركنوا الى خططهم الاستسلامية ، ولكن ابن المقرب كان واعيا لكل مايدور حوله ، وللمؤامرات التى تحاك فى غفلة من السلطة الضعيفة فى الاحساء ، فيقول :

ومن يستمع فى قومه قول كاشح
أصيبت كما شاء المعادى مقاتله
وماكل من يبدي المودة ناصح
كما ليس كل البرق يصدق خائله
وقد يظهر المقهور اقصى مودة
وأوهاقه مبثوثة ومناجله
ومن لم يقابل بالجلالة قومه
أتاه من الاعداء مالايقابله[١٣٧]
ومن لم يبح زرق الأ سنة لحمه
ابيح حماه واسترقت حلائله

ومقـدم لا شـك طـود بـاذخ
يـعلـو عـلى الهضبـان والآكـام
ولقـد فقدنـا منـه اروع مـاجـدا
سهـل الجنـاب مؤدب الخـدام[١٦١]

والملاحظ ان رثاءه لهذا الامير يفتقـر لمشاعـر الحزن الصـادقة والعميقة التي نحسها في رثائه للامير محمد ابن ابى الحسين . ولعـل الغـرض الاساسي للقصيـدة وهو المديح ، قد استدعى تجنب الشاعر لتلك الاحزان قدر الاستطاعة ، او الحد من فيضانها وتدفقها ، ولنسنمع الى هذه الابيات التى حاول فيها ان يخلص الى المديح ، لنـرى فتور احساسه تجاه الفقيد :

ان كان ذاك العرش ثل فقد رسى
في اثـره علـم مـن الاعـلام
او كان ذاك السيف فل فقد اتى
سيف اذا مـا سـل غـير كهـام
في اي يـوم لـم نصب بمتـوج
ضخم الدسيعة صادق الاقدام[١٦٢]

وما نفهمه من البيت الثالث ان اخترام المنون لأحد زعمائهم ، قد اصبح امرا مألوفا ومتوقعا ، بل غدا امرا لا ينطوي على الم كبير ، وحزن عميق . فالفقيد لم يترك فراغا كبيرا ، لأن نظيره وخليفته يساويه في الخطورة بل ربما فاقه وزاد عنه . والمألوف في الرثاء غير ذلك ، فالفقيد شخصية مثالية ، ورحيله يعنى فراغا يتعذر ملؤه بسهولة ، وفقده نازلة عظيمة تضطرب الحياة لهول المفاجأة فيها .

اما ابن عم الشاعر مذكور بن عبدالله بن منصور ، فهو ثالث امير عيوني يخصه برثائه ، وذلك حين بلغه خبر مقتله ، وهو قادم من بغداد على مشارف القطيف ، فرثاه بقصيدة بلغ فيها الذروة انفعـالا ، وصدقـا ، وحرقة ، وقد استهلها بقوله :

اظنك خلت الشوق والناى ابكانى
فاقبلت نحوي يابس الدمع تلحانى
فقم فالتمس خلا سواى فما ارى
صحابة من لم يتبع شانه شانى
كانك ما شاهدت ما قد اصابنى
به الدهـر من صياب قومـي واخواني[١٦٣]

ويبدو من هذا الاستهلال تأثره بعادة الاقدمين في استيقاف الصاحب للبكاء ، اذ نراه يتوهم رفيقا يخاطبه ، ولكن رفيقه ـ على غير العادة ـ لا يشاركه آلامه واحزانه ، فيقول له :

فيـا بـارد الانفـاس دعنى فـإنـه
قليل لهم من معشر فيض اجفانى
فلو جاءك الناعى بما جاءنى به
لما عشت الا لابسا ثـوب اسفان
لطاب لديك النوح واستسمع العزا
واصبحت في شأن البكا بعض اعوانى

ثم يفصح الشاعر عن وشائج القربى التي تصله بمرثيه :

اتلحى على فيض الدموع وقد ثوى
اخى وشقيقى وابن عمي وخلصانى

ثم يصور لنا مشاعره لحظة تلقيه خبر نعيه ، فيقول :

أقـول لنـاعيـه وقـد كظنـى البكـا
وقد ان من صدرى تأجج نـيران
وقد اشرف الركب العراقي قاصدا
الى الخط اعلا ذى الشقيقة فرقان
احقا ثوى في اللحد واستوطن الثرى
وجـاور فيه كل ذى نـازح دان

فقال نعم لم آت حتى تناوحت
على يومه بيض الخدود بالحان
وحتى رأيت القوم حول سريره
حفاة ينادون العويل بإعلان[١٦٤]

ويوالى الشاعر تفجعه وتلهفه فيقول من القصيدة ذاتها :

الا شقيت قومي لقد غالها الردى
بمقدام غارات وفلال اقران
بماذا اصيبت ويلها يوم سددت
اليه المنايا سهم صفراء مرنان
لقد كان غيظا للاعادي وباذخا
يلوذ به جان ويامله عان
فمن بعده من للرماح يعلها
وينهلها من كل اشوس مطعان
ومن لتوالى المرهفين اذا غدت
تعاطى وابدى الشر صفحة عريان

ثم يتوجه بالحديث الى عمه ليعزيه في مصابه الجلل ، فيقول :

ايا عم لا تجزع فكل الى البلى
يصير ولا خلد لإنس ولا جان

ولا يخفى انه قد ضمن معنى الآية الكريمة «كل من عليها فان»[١٦٥] ، كما ضمن في البيت التالى معنى قوله تعالى «اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة»[١٦٦] فقال :

فلو لم يمت قتلا لمات بعلة
وليس بمنج من ردى راس غمدان

ويمضى الشاعر في عزائه لعمه ، فيضرب الامثلة – على عادة القدماء –[١٦٧] بمن لقوا حتفهم من الابطال غيلة على ايدى من هم دونهم ، فيقول من القصيدة ذاتها :

وما قتله مما يعاب به الفتى
اذا عد يوما بين شيب وشبان
فقد مات بسطام بطعنة عاصم
وكان المرجى في معد بن عدنان
وحمزة عم المصطفى ذاق حتفه
بطعنة عبد من سلالة عبدان

وفي حدود ما بين ايدينا من شعره ، فقد خلا ديوانه من رثاء اي من افراد اسرته كأمه وابيه ، او اخوانه ، او احد ابنائه . كما خلا ديوانه من رثاء الخليفة الناصر لدين الله .

اما اصدقاؤه فلم ينفعل الا بموت اثنين منهم ، احدهما الرئيس حسن بن عبدالله من بنى بكر ، وثانيهما القاضى محمد بن ابراهيم المستورى التغلبي :

فالأول (كان بينه وبين اهل بيته مودة وصداقة وخلطة)[١٦٨] وقد رثاه بقصيدة بلغت سبعة واربعين بيتا ، استهلها بعدد من الابيات يغلب عليها الطابع الفكري التأملي في الحياة والموت ، ويظهر منها اثر القراءة والثقافة .

كقوله :

ايدى الحوادث في الايام والامم
امضى من الذكر الصمصامة الخذم
فلا يظنن من طالت سلامته
ان المقادير اعطته عرى السلم

ولا يخفى انه قد ضمن البيت الثاني قول كعب ابن زهير :

كل ابن انثى وان طالت سلامته
يوما على آلة حدباء محمول[١٦٩]

كما ضمن في البيت التالي معنى الآية الكريمة «كل من عليها فان»[١٧٠] ، فقال :

كل بما تحدث الايام مرتهن
وكل غاية موجود الى عدم

فما اللذاذة في عيش وغايته
موت يؤديك من قصر الى رجم
فهو متأثر بقول ابي العتاهية :
وقد كنت اغدو الى قصره
فقد صرت اغدو الى قبره[١٧١]
ثم اخذ في تعداد مناقب المرثي ، وبعدها انتقل الى تعزية ابيه (ابى حسن) فقال :
ويا ابا حسن صبرا فكل فتى
مفارق وحياة المرء كالحلم
والموت كل امرىء لا بد ذائقه
تقاصر العمر او ادى الى الهرم
اين الملوك وارداف الملوك ومن
ساد القبائل من عاد ومن ارم
فقد ضمن البيت الثاني معنى قوله تعالى «كل نفس ذائقة الموت»[١٧٢] ، كما انه متأثر في البيت ذاته بقول كعب بن زهير «كل ابن انثي ... الخ» .

ويخلص الشاعر من عزائه الى حديث مسهب عن سادة بكر وتغلب ، وابطالهما ممن طوتهم يد الردى ، وكان موتهم عظة لكل متدبر . والملاحظ على رثائه لهذا الصديق سيطرة طابع الهدوء والرزانة عليه .

ومثل هذا الطابع الرزين الهادىء ما نحسه في رثائه للقاضى المستورى ، وان كانت الابيات الاولى منها تحمل شحنة عاطفية تنم عن الم وحزن ، لم نحسها في مرثيته الاولى اذ يقول :
غرام اثارته الحمام السواجع
ونار جوى اذكت لظاها المدامع
وقلب اذا ما قلت يعقب راحة
ابت حرق تاتي بهن الفجائع
افي كل يوم للحوادث عدوة
لها في سويدا حبة القلب صادع[١٧٣]
ولنستمع الى هذه الابيات ، لنرى ما فيها من رزانة وهدوء نفس :
فصبرا بني مستور فالدهر هكذا
وكل عليه للمنايا طلائع
ففيكم بحمد الله حصن ومعقل
ونور مبين يملأ الافق ساطع
فمن كان عبدالله منه خليفة
فما مات الا شخصه لا الطبائع
فتى لم يزل مذ كان قبل احتلامه
يدافع عنكم جاهدا ويصانع[١٧٤]
فقد خلت الابيات - كما يبدو - من جو الحسرة ، والتلهف الذي لمسناه في مرثيته لابن عمه .

ويمتاز رثاء ابن المقرب :
- بأن الحزن الحقيقي والاسى العميق يتجلى في رثاء ذوي قرباه ، وان افتقر رثاؤه - احيانا - لذلك .
- وبأننا نحس في رثائه لاصدقائه بجو الاسف والحزن الهادىء الرزين الذي ينتحى به الى اعمال الفكر في الحياة والموت .
- وبأن رثاءه الذي جاء في ثنايا قصائد المدح ، قد تأثر بروح المدح ، وافتقر لنبرة الحزن الحقيقي .
- كما ينعكس على اسلوبه اثر الثقافة والقراءة ، كما بدا ذلك جليا في رثائه لصديقه الحسن بن عبدالله البكري .

(١٠)

الوصف

ترددت قبل ان افرد الوصف في غرض مستقل عند ابن المقرب، لأن

الاشعار كلها وصف . فمثلا الغزل هو وصف عواطف الرجل نحو المرأة ، والمدح ليس الا وصفا لعواطف الشاعر نحو الممدوح ، وما الرثاء الا وصف لعواطف الشاعر نحو الفقيد ... الخ ولكنني اعنى بالوصف هنا ما جاء في موضوعات جانبية خلال قصائد الشاعر ، ووقف ازاءها وجلاها ، فلم يكن يقصد الى هذا الفن قصدا ، ولم يخصه بقصائد منفردة ، فكل وصفه جاء تابعا لمدائحه . لذا فقد وصف الرحلة الى الممدوح ، على عادة القدماء ، في التقديم بهذا الوصف بين يدى مدائحهم ، وبالغ - على طريقتهم - في وصف اهوال الطريق ، والمشقة التي تجشمها في الوصول الى الممدوح ، استدرارا لعطفه ، واستزادة لرفده ، وقصر عنهم ، فلم تستوقفه مشاهد الطريق ، من طبيعة حية وصامتة ، بالرغم من حياته الحافلة بالارتجال والتنقل ، برا وبحرا . فلم يستلهم من البوادي العربية لوحات حية جذابة كتلك التي ابدعتها مخيلة ذى الرمة من قبل . كما اختفت من شعره صورة حمرها وظبائها ، وتلصص الصيادين لاقتناصها ، كما افتن في هذا زهير والشماخ .. حتى فرسه وناقته لم تحظيا بكثير او قليل من شاعريته المصورة ، كما حظيتا باهتمام اسلافه ، امثال امرىء القيس وطرفة بن العبد .

والحواضر العراقية بكل ما حفلت به - آنذاك - من مظاهر الحضارة والعمران ، لم تحرك ملكة التصوير عنده ! وقد كان فيها ما يعجب ويدهش بدويا طارئا عليها . ولعل عدم الاستقرار الذي عاشه ابن المقرب هو الذي شغله عن استجلاء مشاهد الطبيعة من حوله والوقوف ازاءها ، والتعاطف معها ، والاندماج فيها ومناجاتها .. فقد كانت نفسه متنازعة بين الوان شتى من القلق النفسي :

اعاذك الله من وجدى ومن قلقى
ومن غرامي ومن همي ووسواسي(١٧٥)

ففي قصيدة له يمدح فيها الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣- ٦٤٠) يقول واصفا رحلته اليه :

فكم لذا اليوم من دوية قذف
قطعت والقلب في أهوالها يجب
تبدو بها الجن لى حينا وآونة
تبث اضواءها حولي وتنتحب
فحين اكثرت التهويل قلت لها
هذا التهول جد منك او لعب(١٧٦)

ان صورة الفلاة الموحشة التى تتقاذف سالكها ، فتضطرب نفسه ، ويخفق قلبه ويتوهم انه يرى فيها اشباح الجن ، ويسمع اصواتهم ، ليست بجديدة .

ولابن المقرب بضعة ابيات يصف فيها مركبا شراعيا ، تنم عن خبرة بركوب البحر ، ولكنه يسوق وصفه لها سوقا تقريريا ، يفتقر للحس الصادق والخيال البارع فيقول :

ارى المعالى تقتضى عزمتى
تعسف البيد وخوض الظوام
بكل مطلى الملاطين لم
يجرب ولم يرع بمرعى السوام
تسوقه الريح وتحتثه الجل

وفي الوجعاء منه الزمام
لا يعرف الاعياء في سيره
ولا يبالي أمضى أم أقام
وقد تساوى عنده في المدى
يوم واسبوع وشهر وعام
اذا يمس الارض في جريه
خيف على راكبه الاصطلام(١٧٧)

ثم يتبع هذا الوصف ببيتين، يصف في الاول منهما ناقته :

او كل روعاء عزيزية
تزف بالرحل زفيف النعام(١٧٨)

فهي قوية كريمة الاصل ، سريعة كالنعامة . ويصف في البيت الثاني حصانه :

يصحبها اجرد عرض النسا
قصير الارساغ طويل الحزام(١٧٩)

فيخلع عليه عددا من الصفات المعروفة والتى استقرت في الوجدان العربي العام ، كدليل على الاصالة ، من شعر قصير ، وصلابة ، وارساغ قصيرة ، وصدر عريض ، واين هذا الوصف من قول امرىء القيس في وصف حصانه :

له ايطلا ظبي وساقا نعامة
وارخاء سرحان وتقريب تتفل(١٨٠)

ولابن المقرب بضعة ابيات يصف فيها المزن وهطول المطر ، في صدر مدحته للخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢) ، وجاءت بعد مخاطبته لعرصات الدار ، والدعاء لها بالسقيا ، فيقول :

سقاكن من نوء السماكين عارض
من المزن محلول النطاقين دالح
ملث يظل الجاب في عنفوانه
على النشر وهم السحسح المتمايح
وتمسى الرعان القود فيه كانها
يعاليل في اذى بحر طوافح(١٨١)

فالشاعر يصف لنا صورة المطر الغزير المتواصل ، الذي حبس الغليظ من الحيوانات ، فلم تبرح مكانها ، كأنها فرس سابق ذل وقد فاجأته المهالك . والبيت الاخير صورة مبالغ فيها ، توحي بغزارة المطر ، الذي اغرق الارض ، واحالها بحارا ، قد غرقت فيها مقدمات الجبال ، وبدت كأنها فقاقيع تعلو امواج البحر . ولكن ايثار الشاعر لهذه الالفاظ المعجمية ، يحول دون الاستمتاع بما ابدعته مخيلته من صور بدوية طريفة لهطول المطر :

اما ابياته القليلة التى وصف فيها الخمر ، فليس فيها ما يدل على المام بصفاتها ، وقدرة على وصف مجالسها ، وقد استهل بها مدحته لأمير البصرة شمس الدين باتكين فقال :

قم فاسقنيها قبل صوت الحمام
كرمية تجمع شمل الكرام
صهباء مما عتقت بابل
مزاجها الارى وماء الغمام
مما ادير الكاس منها على
كسرى نمرود بن كوش بن حام
لو احتساها بن الزبير اغتدى
اكرم من كعب واوس بن لام
تذهب بالياس وتدني المنى
وتنشر اللهو وتطوي الغرام
لو ذاقها المنزوف ضرطا لما
هاب ابن ذي الجدين يوم الزحام(١٨٢)

فالشاعر يصف الخمرة بأنها معتقة من العصر البابلي ، ومما شرب منه كسرى ونمرود ، وانها ذات اثر قوي في النفس ،

فلو شربها من هو كاين الزبير بخلا
وحرصا لغدا اكرم من كعب واوس ، ولو
شربها الرعديد لما هاب اشجع الرجال .
ولا يخفى ان الشاعر مشغول باستعراض
ثقافته عن وصفه .

اما وصف المعارك ، فقد حظي باهتمامه دون سائر موضوعات وصفه ، ونجد ان نفسه فيه اطول ، وخياله فيه اطوع . فكانت الصورة تمتد فيه لترسم لنا لوحة حية موحية بالحركة واللون .. معتمدا على التصوير المجازي تارة وعلى التصوير الواقعي المباشر تارة اخرى . ولا شك ان وصف المعارك من اكثر الموضوعات مواءمة لنفس ابن المقرب وطبعه ، تلك النفس المتمردة الثائرة والتي تؤمن بالقوة مبدأ في سياسة الناس ، وفي التعامل مع الاعداء .. وحسبنا تلك الابيات التي وصف فيها «معركة دمياط» مشيرا الى دور ممدوحه الملك الاشرف (٥٧٨ ـ ٦٣٥) في صد الهجمة الصليبية عن السواحل المصرية ، فقال واصفا جموع الصليبيين :

وقد جاءت الافرنج من كل وجهة
كان تداعيها السيول الدوافق
كتائب ملء البر والبحر من بدت
له قال ذا جنح من الليل غاسق
تسير بسد من حديد لو انه
هو السد لم يخرقه للوعد خارق
له لجب كادت مرارا لهوله
تقطع بين المسلمين العلائق(١٨٣)

فقد وصف الشاعر جموعهم بالكثرة ، والكثافة ، وتمام التسلح ، وان كانت صوره في البيت الاول وتاليه مطروقة ، فان الصورة في البيت الثالث لا تخلو من طرافة ، وتذكرنا بقول ابى الطيب :

اتوك يجرون الحديد كأنما
سروا بجياد ما لهم قوائم(١٨٤)

وينحو ابن المقرب منحى سابقيه في وصف جيش العدو ، اذ يبالغ في كثرته وقوته ، وتسلحه .. ليوحي لنا بشجاعة ممدوحه ، وعظمة الانتصار على مثل هذا الجيش .

وبعد وصفه لجيش الصليبيين ، وصف مقدم الاشرف مفاجئا جموعهم ، وقد حفت به رايات المسلمين خفاقة ، فقال :

فما كان الا ان احسوا قدومه
تحف به تلك البنود الخوافق
يهز حساما لم يكن من دمائها
له صابح منهم برى وغابق(١٨٥)

ثم نجد ابن المقرب ـ على غير عادته ـ قد تجنب وصف لحظات القتال ، فانتقل بنا الى وصف نهاية المعركة ، وما اسفرت عنه من نتائج :

ومالوا لقذف المال في اليم بالضحى
وبالليل ثارت في الرجال الحرائق
وازعجهم من ذاق للجرح بعدهم
بامس وهل يستعذب الموت ذائق
فولوا فمنكب على ام راسه
لدن ذاك لم ينفق وآخر نافق
ومستعصم بالبحر منه وعائذ
باخلق تنبو عن صفاه المطارق
ولم يبق يثنى من عنان جواده
اب لابنه والموت للقوم خانق
فسال دم لو سال في الارض لاستوى
بها ردغ ما عمرت ومزالق
جرى منه فوق البحر بحر فموجه
الى الآن من بعد الاقاحى شقائق(١٨٦)

لقد اتسعت الصورة في هذه

الابيات ، فصور الشاعر فزع العدو ويأسه ، وما حل به من اذى ، وفي البيت الثالث رسم الشاعر بالتصوير الواقعي صورة طريفة لجند الافرنج وهم في صراع مع الموت ثم يستقصي جوانب الصورة لنهاية المعركة ، وكيف لاذت جموعهم الناجية من سيوف المسلمين بالبحر، فاعتصموا بسفن كأنها الصخور القوية الملساء . وكيف حاق بهم الموت ، وشغل كل منهم بنفسه ، وذهل عن اعز الناس اليه . ويعطي الصورة من ثم لونها ، مبالغا في تجسيم هذا اللون ، ولا سيما في البيت الاخير ، اذ علا البحر بحر آخر من دماء الصليبيين ، ولا يكتفى الشاعر بهذه المبالغة ، بل يذهب الى نوع من الغلو في قوله (الى الآن) من الشطر الثاني .

ولقد كانت المبالغة سمة غالبة للشعر العربي الذي صور الصراع الاسلامي الصليبي ، نظرا لصدق الاحساس وقوته .

كما لا يخفى ما في البيت الاخير - خاصة - من صنعة عقلية ، فقد شبه الشاعر موج البحر كأنه شقائق النعمان لكثرة الدماء التى سالت فوقه ، وبعد ان كان موجه بزبده الابيض - قبل اليوم - يشبه الاقاحى في لونها .

ويمتاز وصف ابن المقرب :

- بأنه يأتي دائما في ثنايا قصائد المدح عنده .

- وبأن ديوانه قد خلا من مقطوعات او قصائد مستقلة في هذا الفن .

- وبأن موضوعات وصفه - عدا وصف المعارك - تفتقر للخيال البارع ، والصور المبتكرة .

- وبأن معجمه التصويري والتعبيري في وصف الرحلة ، والمطر ، والناقة ، والفرس متأثر بمن سبقوه الى حد بعيد .

- وبأن وصف المعارك عنده ، غني بالاحساس ، والتصوير البارع ، ويحفل برسم الصورة الممتدة والمتحركة .

- وبأنه يميل الى المبالغة في معانيه عندما يصف المعارك ، لأن هذا الموضوع يلائم طبعه ، وفلسفة حياته ، هذا الى جانب اعجابه بممدوحيه ، ممن وصف وقائعهم تلك .

(١١)

الشعر التاريخى

يرى الدكتور شوقى ضيف «أن المدحة فى تراثنا الشعرى تعد كنزا تاريخيا كأنما ضاع منا مفتاحه ، وعلينا أن نجده ، ونفتح بابه ، ونستخرج منه مايحويه من وثائق تاريخية تضيف اضافات خطيرة الى تاريخ أسلافنا المدون[١٨٧] . كما يرى «ان من يدرس تراثنا الشعرى يعرف انه يصور حياة أسلافنا من جميع أطرافها السياسية والاجتماعية والعقلية ، فقد مثلوا فيه جوانب حياتهم ، ولم يقصروه على وصف

مشاعرهم الوجدانية الخالصة ، بل وسعوا من قديم جنباته ليصور بيئتهم ومجتمعهم وحروبهم أو أيامهم[١٨٨] .

لذا تنبه مؤرخونا قديما الى أهمية الشعر ، فاستعانوا ببعض الاشعار التى نظمت فى الاحداث السياسية والحربية ،وكأنما قد هداهم حسهم التاريخى من قديم الى ان الشعر وثيقة تاريخية ينبغى أن تضاف الى وثائق الاخبار المروية .. ثم يقول الدكتور شوقى ضيف : «ولاارتاب فى انهم تنبهوا الى انه وثيقة أكثر نبضا بالحيوية والحياة من الروايات الشفوية» .. فنحن حين نفتقد التاريخ الدقيق لدولة من دولنا فى العصور الغابرة ، ينبغى أن نلجأ الى دواوين الشعراء الذين عاصروها ، لعلنا نجد فيها مافتقدناه »[١٨٩]. فسيفيات أبى الطيب ، ورائية أبى فراس فى الفخر بأسرته ، والشعر الذى حفل به كتاب «الروضتين فى أخبار الدولتين» لابى شامة المقدسى ، وديوان الشاعر على بن المقرب العيونى .. كل هذا وذاك وماأشبه انما يمثل وثائق تاريخية هامة بل ونادرة ، فلولا أن قيض الله للدولة العيونية ، شاعرا كابن المقرب ، مولعا بأحداث التاريخ وسير أبطاله ، لما استطعنا ان نستجلى هذه الفترة المعتمة من تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ولما أمكننا الوقوف على هذه الدولة ، ومايتصل بها ، فالمصادر التاريخية لم تسعفنا بكثير او قليل عنها ، وكأن الشاعر كان يدرك بحسه المرهف ماتعانيه هذه المنطقة ـ أنذاك ـ من عزلة ، فسجل لنا الدور الحاسم الذى نهضت به أسرته فى القضاء على القرامطة ومن حالفهم من قبائل الازد وعامر :

فعن هجر زادوا القرامط عنوة
وقد شركت فيها عتيك وحدان[١٩٠]

وهو اذ يسجل قضاءهم على القرامطة لاينسى ان يسجل شرعية استئصال شأفتهم لما استحدثوه من بدع ، وماهدموه من فرائض وسنن :

وابطلوا الصلوات الخمس وانتهكوا
شهر الصيام ونصوا منهم صنما
ومابنوا مسجدا لله نعرفه
بل كل مادركوه قائما هدما[١٩١]

وحين يحدثنا ابن المقرب عن تلك المسيرات الظافرة لقومه على القرامطة ومن والاهم ، لايعمد الى الاسلوب التقريرى الممل ، بل نراه يلجأ الى أسلوب الحكاية والقص المشوق ، فى تفصيل واستقصاء للحدث التاريخى ، ويسعفه فى هذا خيال بارع قادر على رسم الصور المتحركة الممتدة ، كقوله :

وقلدوا الامر منا ماجدا نجدا
يشفى ويكفى اذا ماحادث دهما
ماضى العزيمة ميمون نقيبته
اعلا نزار الى غاياتها همما
فصار يتبعه غر غطارفة
لو زاحمت سد ذى القرنين لانثلما
اذا ادعوا يال ابراهيم ظل لهم
يوم يشيب من هام العدى اللمما
حتى اناخ بباب الحصن يصحبه
عزم يهد الجبال الشم والاكما

فشنها غارة شعواء ناشئة
كسى بها الغم من حيطانها قتما
فاقبلت ورجال الازد تقدمها
كالاسد قد جعلت سمر القنا أجما
فصادفت كل ليث لو يحس به
ليث بعثر أو خفان مازحما
فكم صريع هوى عفصا بشكته
منهم وأخر ولى الدبر منهزما(١٩٢)

كما احتفظ ديوانه بأسماء عدد من الطامعين فى ملكهم إبان قيامه، أمثال ابن عياش(١٩٣) والقارونى(١٩٤)، وحماد النائلى(١٩٥)، والشركسية(١٩٦). وقد وصف وقائع قومه مع كل منهم.

كما يرجع الفضل لديوانه فى الاحتفاظ بأسماء أمراء الدولة العيونية، والادوار التى نهضوا بها فى قيام الدولة، او المحافظة على هيبتها، او غير هذا من أدوار سلبية أدت الى ضعف الدولة وسقوطها من ثم.

وحسبنا ميميته التى بلغت أبياتها مائة وخمسين بيتا، واستهلها بقوله:

قم فاشدد العيس للترحال معتزما
وارم الفجاج بها فالخطب قد فقما(١٩٧)

وجاءت كلها فى هذا الغرض، عدا سيل الحكم الذى استهلها به، ولكن يلاحظ عليه عدم ترتيبه للاحداث التاريخية، فقد يعود الى صراعهم مع القرامطة بعد ان سجل قضاءهم عليهم، كما لم يلتزم الترتيب التاريخى عند حديثه عن أمراء أسرته وأبطالها.

فكان يسجل مآثرهم حسبما تتداعى اليه من الذاكرة، وقد لجأ فى ذلك الى أسلوب خطابى تقريرى ذى نبرة عالية، وموسيقى صاخبة كقوله:

منا الذى جاد بالنفس الخطيرة فى
عز العشيرة حتى استرحل العجما
منا الذى قام سلطان العراق له
جلالة والمدى والبعد بينهما(١٩٨)

فقد تكررت صيغة (منا الذى ..) فى ثلاثين بيتا من هذه القصيدة.

أما أمجاد ربيعة، فكما ألم بمآثرها فى حاضرها، فقد ألم بأيامها الناصعة فى ماضيها.

فقومى الاولى أجلوا قضاعة عنوة
ودانت لهم كلب ونهد وخولان
وهم فلقوا هام التبابع إذ طغت
يقربه وادى خزازى وسلان
غداة تولت حمير فى جموعها
وذاق الردى فى ملتقى الخيل صهبان
وهم ضربوا عبد المدان بمنعة
وقد شرعت فيهم سيوف وخرصان(١٩٩)

ويمتاز هذا اللون من شعره:

- بانه لايلجأ فيه الى أسلوب بعينه، بل نراه تارة يعمد الى الاسلوب التقريرى الخطابى، وتارة اخرى يستخدم أسلوبا أدبيا حافلا باللفظة الموحية، والخيال المثير.
- وانه يأتى فى ثنايا قصائده، عدا مطولته الميمية التى خصصها لهذا الغرض.
- وأن أثر القراءة والثقافة يبدو جليا فى هذا اللون من شعره.

(يتبع)